# رؤية شرعية في
# الطبقات الكبرى للشعراني

دراسة/

أكرم مبارك عصبان

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم الشيخ عبد العزيز آل عبد اللطيف

الحمد لله رب ا لعالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين نبينا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين.

وبعد : من المعلوم بداهةً أن الله تعالى أكمل الدين وأتم النعمة كما قال سبحانه: «اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا» فما لم يكن يومئذ ديناً فليس اليوم بدين ، فالمتعين الإتباع وترك الابتداع فقد كُفينا و الحمد لله .

لكن الإعراض عن هدي سيد المرسلين ﷺ وتنكّب سبيل المؤمنين، مع غلبة الجهل وخفاء السنة في أزمان و أمصار... أوقع ذلك في التعبد المحدث بما لم يشرعه الله تعالى، فاندرست السنة وظهرت الأوراد و العبادات البدعية، ثم تفاقم الأمر إلى بدع مغلظة و مكفِّرة كالحلول والاتحاد و نقض أصول الدين و فروعه و الزندقة و الانحلال ، وتأليه المجانين و المعتوهين !!

ولا يغيب عنا ما قد يعتري النفوس من شهوات و حظوظ ، فتؤثر التفلّت على الشرع المنزل ، و التوثب على حرمات الله تعالى و شعائره ، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية في ثنايا حديثه عن مفاسد البدع : مسارقة الطبع إلى الانحلال من ربقة الإتباع وفوات سلوك الصراط المستقيم ، وذلك أن النفس فيها نوع من الكبر ، فتحب أن تخرج من العبودية والإتباع بحسب الإمكان كما قال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله : «ما ترك أحدٌ شيئاً من السنة إلا لكبرٍ في نفسه ، ثم هذا مظنة لغيره ، فينسلخ القلب عن حقيقة إتباع الرسول ﷺ ، ويصير فيه من الكبر وضعف الإيمان ما يفسده عليه دينه ، أو يكاد ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»

اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦١١-٦١٢).

ولا يخفى النشاط المحموم لمتصوفة هذا العصر ، إذ أنهم في كدح متتابع لأجل نبش التصوف و إحياء رميمه .. وهذا الصحو العارض للمتصوفة يوجب مدافعته ومجاهدته حسب الاستطاعة و الوسع.

كما قال القاسم بن أحمد (ت:١٢١٧هـ):

فدع التصوف واثقاً بحقيقته واحرص و لا يغررك لمع سرابه
لبسوا المدارع و استراحوا جرأة عن أمر باريهم و عن إيجابه
فأولئك القوم الذين جهادهم فرضٌ قلا يعدوك نبل ثوابه

وأخونا الباحث الفاضل الشيخ أكرم بن مبارك عصبان له جهوده المشكورة في مقارعة التصوف و مدافعته ، كما في كتابه الماتع «سياحة في التصوف الحضرمي» وكذا في هذا السفر النافع «رؤية شرعية في الطبقات الكبرى للشعراني» إذ قد طالعت الكتاب، وانتفعت به، كما أوردتُ شيئاً من التنبيهات اليسيرة والتي قبلها الباحث الكريم، والكتاب جيد في مضمونه، جميل في أسلوبه ، إذ كشف الشيخ أكرم - وبأسلوب علمي رصين - عما في طبقات الشعراني من الزندقة و التهتك و الفجور والشرك والصراح ، و الكفر البواح ، ومسخ العقل وطمسه ونحو ذلك من البوائق و الشطحات ، فجزى الله الباحث كل خير وبارك في سعيه واحتسابه و الله حسبنا و نعم الوكيل.

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المهتدين وآله وصحبه ومن اهتدى بسنته إلى يوم الدين، وبعد:

**مفتاح الباب:**

لقد تم نسج التصوف في بداية أمره من عناصره الأساسية المتمثلة في الزهد والإعراض عن المباحات، وأخذ يحاكي طريق الرهبانية، ثم بدأت تتدخل في بنائه المصادر الفلسفية، وقد قام كل من البسطامي والحلاج بمد الخيوط التي تتعلق بالفناء فبعدا به عن البداية، وتطور ليفرز لنا الحكيم الترمذي في خطوطه الأخرى فكرة مراتب الأولياء التي يتبوؤها القطب الغوث، وحاول الغزالي ترميم هذا النسج وتزويقه ما استطاع في الإحياء والميل به نحو الاعتدال قبل أن يضفي عليه ابن عربي نظريته في وحدة الوجود التي استلهمها كثير من المتأخرين، وإليه يرجع الوزر في إلقائها في هذا النسج، وتكون هذه العناصر الأساسية والتي طرأت بعد ذلك مادة بين يدي الشعراني يزجيها في بيت العنكبوت؛ ليكتمل بناؤه، وتتشابك أوهامه في شبكة من الأولياء تطالعنا في الطبقات، تمتلك القدرات الخارقة ودعاوى عريضة، غير أن صفة الوهن لا تنفك عن هذا البيت وإن بدا مرتباً في مظهره.

ولقد ظلت شباكه منصوبة تتصيد من خف حظه من الهدى حتى اصطبغت الحياة بلونه، وساد في الواقع على حين غفلة تحت مسمى الزهد الذي انحرف عنه؛ ليصبح لوناً آخر لا يمت للزهد بصلة، بل هو أشبه ما يكون بمسجد الضرار في مضامينه في الحقائق، وانحرافه

في السلوك والرقائق، محاداً بخصائص أقطابه وأوليائه النهج القويم، ومفرقاً للصف المسلم، ومَجْمعاً لمن رام تشويه جمال الشرع وبهائه؛ ولذا يستوجب من أهل الحق التصدي لكشف مخطط الذين يتسترون خلف معاني التصوف الأولى بإلقاء الأفكار السيئة، وتمييز الزهد منه حتى يتمحض الباطل وحده فيزهق.

وما كان لشبكته هذه أن تتوسع في رقعة كبيرة، وتضم أعداداً كثيرة إلا بعد أن تم اللبس والخلط المتعمد في نسبة بعض أئمة السلف ممن اشتهر بالرقائق إلى المنهج الصوفي الذي يشمل المضامين الفلسفية، وانتشرت الطرق وامتدت على طول العالم الإسلامي وعرضه، كلما صوّح نبت البلاد من نور الوحي حتى إذا جادها غيث الحق بوابله أمرعت رباها العلم والسنة؛ فنقصت رقعة التصوف مقابل ذلك.

وإننا إذ ننعم بثمرة هذا الحق بعد النهضة العلمية الراشدة، ونتفيأ ظلاله نحب لإخواننا ممن زلت بهم الأقدام في ظل الخلط المقصود أن يصححوا هذه المفاهيم، وأن يصحوا من تلك الضلالات ويمحوها من واقعهم، ويفيئوا إلى ظل الكتاب والسنة، ونحن أيضاً إذ نذودهم بدراستنا هذه عن حياض الصوفية ليرغبوا عنها إنما نترجم لهم ما تكن صدورنا، ونهدي لهم دليل صدقنا من المحبة لهم بما أحببناه لأنفسنا، اقتداءً بقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ا : (إني أحبك في الله)، ثم ترجم هذه المحبة بإعطائه نصيحة بأن لا يدع أن يقول دبر كل صلاة: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]، وبذلك نكون قد حزنا حقيقة الإيمان إن شاء الله.

إننا ونحن نستقل سفينة تصحيح المفاهيم الخاطئة، ونحذر من الأفكار القاتلة التي

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

شوهت جمال الإسلام، ونقضي حقوق العلم علينا أن نبحر في الفكر الصوفي ذاته، وليس مرادنا أولياءه لو بقوا على أصل الستر والسلامة، ولكن كيف السبيل وقد جاهرت الطبقات بتراجمها، وألقت إلينا بخرافاتها؟! وما أعجب حكاياتها التي تضمنت مفاهيم كثيرة للفكر الصوفي تحتاج إلى دراسة وتحليل بمعيار الشرع وميزانه الذي تطيش به مثاقيل الذر!

وكأني ببعض المخلصين يلوّح بالكف عن الكف في خوض هذا التيار، بحجة أن الأمة قد حاقت بها المصائب، وراشها كل سهم صائب، وينادي هذا المخلص أيضاً بتأخير البيان وقتما تتخلص الأمة من أعدائها، ويرى الانشغال بجمع الصف على علاته، ورأبه بما فيه من ضلالات كي لا يتسع الخرق على الراقع، وهذا تلويح يتطرق إليه النظر للنظر فيه، وإعادته على قائله لأمرين:

**أولاً**: إن من هديه عليه الصلاة والسلام عدم السكوت على الإخلال بالدين لا سيما في العقيدة ولو كان على مشارف بلد العدو، وها هو رسول الله يبين لمن كان معه في الحديبية على إثر سماء كانت بالليل بأن من قال: مطرنا بفضل كذا وكذا فذلك كافر بالله مؤمن بالكواكب[1]، كما في حديث زيد بن خالد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فقد رد عليه الصلاة والسلام على الذين أرادوا أن ينيطوا أسلحتهم بسدرة مروا بها، وقد كان المشركون يفعلون ذلك فقال لهم: (الله أكبر قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون)[2] مع إنهم كانوا مستقبلين غزوة حنين، وهم حدثاء عهد بكفر، فصحح لهم النبي ﷺ غلطهم، ولم يكن خروجهم للغزو مبرراً للإغضاء من تصحيح فساد

(١) رواه البخاري (١٠٣٨)، ومسلم (٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢١٩٤٧).

العقائد.

وقد أجرى الطرطوشي العلة في أخواتها لتدور مع معلولها وجوداً وعدماً فقال: (فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، وينوطون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها) ولأبي شامة نحو ذلك[1].

ونحن نريد هنا أيضاً قطع كل فكرة زائفة أصبحت مناطاً لتعليق جملة من الخرافات العلمية والعملية عليها، حين يمر عليها العامة وينوطون بها رغباتهم فما أشبهها بذات أنواط من هذه الحيثية.

**ثانياً**: إن المشروع المتكامل للتصدي للمصائب العظيمة ومناوأة الأعداء يهتم في حيثياته بالتصحيح الشامل أيضاً، وتغيير كثير من الانحرافات، ولا يغفل جانباً من جوانبه، وإلا إذا أهملنا بعض المهمات بهذه الحجة ولم نصب هدفنا نكون قد خسرنا، فلا العدو كسرنا، ولا الحق نصرنا، وربما كان التصوف ثمرة للواقع الذي عاشته الأمة، ونفذ من خلاله النفوذ الأجنبي قديماً وحديثاً في بث سمومه، وتشويه الفكر الإسلامي، وكأن الوراثة النبوية عاجزة عن الضمان للوصول إلى المقصود؛ ولذا فقد تسلل من خلال التصوف المندسون لواذاً لتحقيق أهدافهم بتقديمه كخطاب مرضي عنه لا يتصل بالحكم الإسلامي، بل كان من بعض ما حواه هذا الفكر غرس الرضا بالواقع المرير، وتعليق أمر النجاة منه بقدرات الأقطاب وغير ذلك من ركام وأخطاء قاتلة.

---

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي (ص:٣٨)، وانظر الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (ص:٤٠).

لذا فلا بد من التصحيح الشامل ومنه تصحيح الانحراف في التصوف، وبه فلنبدأ، قال شيخ الإسلام: وبلغنا أن أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا، مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحراً في العلوم الكلامية والفلسفية منه، وكان من أحسنهم إسلاماً وأمثلهم اعتقاداً[1].

وهؤلاء الذين تحملوا أعباء الفكر الصوفي وأورثوا مشارب متعددة مزيجها الفلسفة، ولا تخلو من استدلالات بالنصوص الشرعية ندعوهم لتحكيم كتاب الله ﷻ وسنة نبيه في هذه الأقاويل، ولا يحملنهم شفاعة الأولياء التي يزعمونها، وسيرهم خلف ركاب القوم على الإعراض عن هذه الدعوة، كما لا يغرنهم ما تلقوه من خوارق عظيمة، فإنها لا تغني شيئاً.

وإن نفراً أرعدت أنوفهم فجعلوا يحاجون عنهم فيما علموه من سيرة أرباب الزهد ينبغي عليهم ألا يحاجوا في ما ليس لهم به علم، مما جاء صريحاً في الطبقات وغيرها من سلوك هؤلاء المتصوفة الذين نحن واردون عليه.

والفرقان بين هؤلاء وأولئك - الزهاد وغيرهم - معارضة الشرع بالذوق والكشف حيث نادوا بالتسليم للأولياء مطلقاً، فمهما عارض كشفهم وذوقهم ورؤاهم النصوص أخذوا به من غير مراعاة لها، وأمثلهم طريقة من عدا عليها بالتأويل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله: هو الاستسلام له وحده، والإخلاص له بالعبودية والانقياد لما جاء به رسوله، فلا يجد المسلم إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة، قال ابن القيم: (ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرض لازم له على الأنفاس: هجرة إلى الله تعالى بالتوحيد والإخلاص

(١) مجموع الفتاوى: (٩/ ٧).

والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية، وهجرة إلى رسوله بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه... ومن لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله)[١].

فالتحاكم إلى شرع الله من لوازم الإيمان، قال تعالى: * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ & [النور:٥٢]، وتأمل إفراد الله بالخشية والتقوى، بينما تكون الطاعة له بما جاء به رسوله، فإن ذلك مهم جداً في تحقيق التوحيد.

**باب المباحث:**

لو تعرضنا قليلاً قبل الانطلاقة في الطبقات إلى إلقاء الضوء على الدواعي لاختيارنا لها لأرجعنا ذلك إلى عدة أمور تصلح أن تكون وقود الانطلاقة للدخول في الموضوع، وهي:

أولاً: الأهمية البالغة التي تحظى بها الطبقات الكبرى في دراسة الفكر الصوفي حتى غدت محل جذب لفئتين متناقضتين في شأن التصوف هما المادحة والقادحة على حد سواء، فكيف استطاعت هذه الطبقات أن تكون مورداً يرده غالب المتأخرين إعجاباً بها وبما حملته لهم من فتحٍ في أبواب كانت مغلقة ثم تجرأوا عليها؟! والمتأمل لكثير من تراجم الذين جاءوا بعدها يجد تأثرهم بالطبقات تأثراً جلياً حتى أصبحت لهم بمثابة الدستور استدلالاً بنصوصها، واقتباساً من سيرها، ومضاهاةً لأسلوبها[٢].

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٤٨٣).

(٢) ومن طريف ما يقال: أنني أتذكر قصة كنت سمعتها قديماً بجهتنا الحضرمية في شفاعة بعض الشيوخ

وفي النقيض: يأتي أخذ المفارقين لهم منها حيث بقيت مصدراً لالتقاط كثير من الصور القبيحة لتكون شواهد على مسلك الصوفية والتنفير منها، فتراهم يتواردون على إيراد حكاية علي وحيش مثلاً وأضرابه ممن سيأتي ذكرهم، وهكذا نرى أن الفريقين معاً قد وردوها ولكن اختلفوا في الصدور، فحين أضرت بقوم فقلدوها في الانحرافات انتفع بها الآخرون في نقدهم، وها نحن هنا نضرب بسهمنا في دراستها وتحليل بعض نصوصها.

ثانياً: المكانة التي يتمتع بها صاحب الطبقات، وهو: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، ولد سنة (٨٩٨ هـ)، وطلب العلم منذ نعومة أظفاره، وترعرع في مجالسه وهو في العاشرة، حيث أجازه السيوطي بمروياته كافة، وأقام في الأزهر ملازماً لشيخه الشوني قرابة خمس سنوات، ومكث في جامع الغمري سبع عشرة سنة تحول بعدها إلى مدرسة أم خوند حتى ذاع صيته.

وممن يعد من شيوخه في الفقه: زكريا الأنصاري، واللقاني، والسمنودي، وصار مقدماً في الفقه بعد ما علا نجمه في سمائه، وما زال كذلك حتى هوى من علياء العلوم في هوة

---

التي امتدت إلى الجماد، وذلك أن رجلاً صلى على أحد الأولياء وبمعيته لحم كان اشتراه لأهله، = = فلما حضرت جنازة الولي صلى عليها، وحين رجع إلى أهله لطباخة اللحم هالهم عدم نضجه، وأن النار لم تؤثر فيه ألبتة، فتذكر الرجل أن اللحم شهد معه الصلاة على ولي وهو بذلك لا يدخل النار! وكنت أظنها لأحد شيوخ الجهة حتى تخيلت مكان صاحب اللحم من الجبانة، وإذا بأصلها موجود في الطبقات مع تعديل طفيف في الصورة، حيث أبدل السمك باللحم في روايتنا، ربما لأن الجهة غير حاضرة البحر وليس ثم سمك طري، نعم قد نحمل قولهم في لفظ اللحم على الحقيقة الشرعية الواردة في قوله: (لحماً طرياً) فلا يكون هناك اختلاف بين الروايتين، ولكن يشكل على هذا أن من حلف أن لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لا يحنث حملاً على الحقيقة العرفية، والله أعلم.

سحيقة من التقليد للصوفية، وكان قد أشار عليه شيخه أحمد البهلول بأن يكتفي بما جمع من علوم الظاهر، وأن يلتمس السلوك، فأخذ بهذه الوصية فسلك الطريقة بعلي الخواص الذي وصفه بصاحب التصريف بمصر! وكذا أخذ عن المرصفي ومحمد الشناوي.

ومما يدل على إغراقه في متابعة الصوفية ما ينم عن التسليم لهم في التلقي عن الموتى الذي يقوض بساط التلقي في الشرع، ويفتح باباً للمدّعين من الباطنية وأحزاب الباطل للإفتيات على الدين قوله: أخذت عن سيدي علي الخواص، وهو أخذ عن إبراهيم المتبولي، وهو أخذ عن رسول الله يقظة ومشافهة بالكيفية المعروفة بين القوم في عالم الروحانيات، ثم إن سيدي علياً الخواص لم يمت حتى أخذ عن النبي ﷺ من غير واسطة كما أخذ شيخه المتبولي، فبيني وبين رسول الله رجل واحد فقط وهذه طريقة انفردت بها في مصر الآن!![1]

فانظر إلى هذه المقالة السيئة التي تبنى عليها كثير من الاعتقادات الفاسدة، وأظن أن اللقب الذي أطلق عليه بعد بأنه القطب الرباني، والغوث الصمداني، يؤهله عندهم إلى علو السند وإسقاط شيخه الخواص بعد ذلك، ويحذف السند رأساً! ولم يكتف بالأخذ عن الأحياء فقد ذكر أن شيخه محمد الشناوي أخذ عليه العهد عند ضريح البدوي تحت قبته! وطلب من البدوي أن يكون الشعراني تحت نظر البدوي ورعايته، فسمعوا عندها صوت البدوي من ضريحه يجيبهم أن نعم!! ثم أخرج إليهم يده فصافح الشعراني وقبض يده! ولا شك أن للجن دوراً في مثل هذا الحكايات إمعاناً في الضلال وسيأتي تفصيله في محله.

**ثالثاً**: لا شك من وجود شعاع خافت من الحسنات الموجودة بالطبقات، يخترق هذا الشعاع الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ويضيء من مصباح خفي، ولكن القباحة

(١) ترجمة الشعراني مستقاة من الطبقات الكبرى تأليفه، حيث توسع في ذكر شيوخه.

بالملاحة أنها لا تفي، فتجد في الطبقات الوصاة بالكتاب والسنة مثلاً، وتجد الرغبة في العمل الصالح، وسلوك رقائق القلوب، وتزكية النفوس، كل ذلك وغيره مما لا شك في خيريته، ونحن لا نطيل الوقوف أمامه، لأنه ينتظم في عقد المنهج الصحيح، ويكون من دائرة الحق الذي نقبله من قائله كائناً من كان، قال تعالى: * وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ & [المائدة:٨].

فما كان حقاً ومصدره مشكاة الحق فسبيل الإنصاف أن نقبله، ونقول لقائله: أصبت فيه، ولا نرميه لجريانه في وادي التصوف، كما قال الأول: (وقولي إن أصبت لقد أصابا).

فمن المحاسن مثلاً اعتذار الشعراني لكثير من الشطحات التي يعسر هضمها على القارئ، فيقوم بتخفيف نجاستها المغلظة، ويتأولها بما يراه مناسباً، وقد لا يسلم من تعقب في ذلك، فلا الباطل استساغه على منطق الصوفية، ولا هو أنكره على طريق الفقهاء؛ فكان كالذي رام تقليد القطاة، فأضل مشيته وأخطأ مشيها، وكما حاول الاعتذار للحقائق فقد ذكر من دواعي التأليف كثرة البدع، فأراد تنقية الطريق من غوائل الرقائق.

ومن المحاسن أيضاً بعض الوصايا القيمة كوصاة أبي علي الجوزجاني، ونصها: بأن أصح الطرق إلى الله تعالى وأعمرها وأبعدها عن الشبه اتباع السنة قولاً وفعلاً وعزماً وقصداً ونيةً، لأن الله تعالى يقول: * وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ & [النور:٥٤]. فقيل له: كيف الطريق إلى اتباع السنة؟ فقال: مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريق الاقتداء بمن سبق قال تعالى: * أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

حَنِيفًا & [النحل:١٢٣] (١).

ومن ذلك أيضاً في بعض الوصايا من وجوب عرض الكشف على الكتاب والسنة لعصمتهما، والحكم بظلمة الوارد إذا عارض الشرع وغير المذكور مما يكون من جنسه، وتفسير وجود ذلك في تقديري يعود لأحد ثلاثة أمور:

**الأول**: أن الذي تقلد بهذه المحاسن إنما هو من أهل الإستقامة على المنهج الصحيح ولا يعد من مدرسة أهل التصوف إلا من حيث الاسم فحسب.

**الثاني**: أن الوصية بذلك لمن بدأ في الطريق ووضع قدمه في عتباتها ليبدأ السلوك مقيداً بالعلم، إلى أن يفتح له في المرحلة التالية فينعتق منه ويسلك سبيل الغلاة.

**الثالث**: ابتغاء لبس الحقائق الفاسدة واختلاطها بهذه الوصايا؛ ليلتبس أمرها عند الآخرين، ويتخذ ذلك مطية كما اتخذت تراجم الصحابة من قبل كذلك، ولا يتزين التصوف بإيراد مثل ذلك، كما لا يتزين بضم بعض الصحابة إلى دائرته لأن العبرة بالمضامين والأفكار لا بالصور والأشكال، حيث إن الواجب إخراج مشايخ أهل السنة والجماعة عن متكلمة الصوفية فضلاً عن أهل الحقائق والوحدة.

والمتكلم الذي يلج في هذا الدرب لا بد له من زادي العلم والعدل، العلم الذي يقضي برفع الجهل فيصح التصور والحكم معاً، والعدل الذي يفضي بسالكه إلى الإنصاف ويعصم من الظلم، قال تعالى: * وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ & [الأنعام:١٥٢]، فحين عَلِق بالتصوف الشوائب القبيحة نادى كثير من الخائضين فيه بتقسيمه وعدم ذمه مطلقاً؛ إذ فيه طوائف النساك

(١) هذه الوصايا جاءت مبثوثة في الطبقات انظر مثلاً: (ص:٢١٠ -٢٩٨-٣٦٣-٤٩٠).

والسائرون إلى فناء الشهود ثم أهل الوحدة، واليوم بعدما راجت بضاعة الغلاة وغالته مفاهيمهم حتى طغت مقابل كسوف شمس النساك بل أفولها، واستقطاب التصوف قداسة الأولياء – أحياءً وأمواتاً – لم تعد هناك فائدة من التعلق بهذا التقسيم؛ لعدم دقته، بل تذم هذه الأفكار التي شكلت مسمى التصوف، ولكن ينبغي أن يسل الواقفون عند عتبة مقام الزهد منه، وكذلك المتعلقون بمقام المحبة مع رد ما أحدثوه من بدع، ولا يوضعون في سلة واحدة مع الغلاة الذين سادت أقوالهم وصارت الآن تنصرف إليه، فكما لا يذم الأتباع مطلقاً لا يمدح التصوف مطلقاً، والحاصل هنا وجوب التفريق بين المنتسبين دون النسبة فإنهم ليسوا سواء، بخلاف الأفكار المنحرفة فإنها باطلة والله أعلم.

فدونك أيها القارئ بعض ملامح الفكر الصوفي تعرضه الطبقات نقف عنده بالدراسة، فأعنّي بفهم تجد الحقيقة ناصعة، وإنما يجب في كلامنا أن نلبس حلية العلم والعدل، إذ إن نقيضه من الجهل والظلم مرتع وخيم، وبقي أن أشير إلى أمرين أحدهما: أن الطبعة التي تم الرجوع إليها من الطبقات الكبرى هي من مطبوعات المكتبة التوفيقية في جزأين بمجلد واحد، وذلك لمن أراد الاستزادة أو المتابعة التي تصلنا بالأمر الثاني: وهو إبداء النصيحة في هذا العمل ما دام أنه من بشر منسوب للخطأ كان مراده أن يتوخى الإصابة، ويتحرى الحق، ويبدي النصيحة، فإن تم له ما أراد وإلا فليَجُدْ إخوانه بما هم أهله عليه، والله يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

**كتبه أكرم مبارك عصبان**

# المبحث الأول
# باب كرامات الأولياء ومفتاحه

تعد دعوى الكرامات ونسبة الأمور الخارقات البوابة الرئيسة التي يدلف من خلالها الصوفية إلى الميدان الأوسع رحابة للاعتقاد في الشيوخ، وتكاد تكون قطب رحى التراجم والطبقات التي تدور حوله، ويتبارى الأتباع في نسبتها وعرضها تخريصاً وتلفيقاً طلباً للحظوة التي تجلب بتوافرها، ولذلك احتملت كتب الطبقات زبداً رابياً من ذلك بقدرها، والملاحظ أنه ليس هناك خط أحمر لا يمكن تجاوزه في هذه القضية، بل الخوارق كلها مفتوحة أمام الشيوخ للتباهي بها، ولو في خصائص الربوبية ما دامت المقابلة لها من قبل الأتباع بالإذعان والقبول، والملفت حقاً في هذا الإطار أنها لم تقتصر على الخوارق الفاسدة فحسب، بل غدت الرذائل والمخزيات والمناكر من هذا الباب بسبب حرمة الشيوخ التي لا تطال، وقداستهم التي لا تنال.

وقد واكب تمرير هذه الكرامات لون خاص من التربية المقصودة، فكان بإزاء عرض الكرامات عادة شفعها بالخوارق التي يتم فيها تصرف الشيوخ فيمن طوعت له نفسه بالانتقاد، وسولت له بالاعتراض على أربابها، والنتيجة تكون دائماً هزيمة المناوئين لهم وتجرعهم الخسارة جزاء تكذيبهم، ولذلك عملت هذه التربية عملها في إذعان وذل بالغين، ولسنا هنا بحاجة للإفاضة في إثبات الكرامات، والبراءة من نحلة المعتزلة في إنكارها حين أبرزوا دور العقل واضطروا إلى عدم القول بوقوع الكرامات، وفي مقابلهم الفكر الصوفي الذي قام على إلغاء العقل ودوره، وقصد طرفي الأمور ذميم، ودحض كليهما مطلوب.

**مفهوم الكرامة في الشرع:**

حين نسلط الضوء على منهج السلف في إثباتها نجد أن الكرامات: هي أمور خارقة للعادة يجريها الله على يد عبد من عباده، وهي إنما تنشأ من الطاعة والاستقامة عليها، وهي مقيدة بالكتاب والسنة، وحدّها الإيمان والتقوى؛ لأن الولاية: هي المحبة والتقرب والنصرة، وأولياء الله هم: * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ & [يونس:٦٣] أي: يؤمنون بالله ويتقونه، والولي مشتق من موالاته للطاعات، أي: متابعته لها ومواظبته عليها.

فطريق التوصل إليها إذن موقوف على ذلك، والكرامة التي تجرى على يدي الرجل الصالح لا بد أن يكون سببها الطاعة والاستقامة، والالتزام بشرع الله كما حصل للصحابة من ذلك جملة، فقد كان أسيد بن حضير ا يقرأ سورة الكهف؛ فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة تتنزل لقراءته(١)، وإضاءة مثل طرف السوط لعباد بن بشر وأسيد بن حضير ب بعد ما خرجا من عند رسول الله في ليلة مظلمة(٢)، وكذا عنقود العنب الذي يأكل منه خبيب بن عدي ا حين كان أسيراً في مكة وهو راسف في قيده، وما بمكة من ذلك قطاف(٣)، وما حصل لأم أيمن ل وهي مهاجرة وكانت صائمة فكادت تموت من العطش(٤)، وكان سعد ا مستجاب الدعوة(٥)، والعلاء بن الحضرمي ا يمشي على الماء(٦)، وأبو مسلم الخولاني ألقي في النار فمشى(٧)، وغير ذلك مما لو تتبعناه

---

(١) رواه البخاري (٥٠١١)، ومسلم (٧٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٨٠٥).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤٥).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٢٢٤).

(٥) رواه البخاري (٧٥٥).

(٦) انظر: صفة الصفوة (١/ ٦٩٥- ٦٩٦).

(٧) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٢٠٨).

لطال بنا المقام، وهذه فروع لأصلٍ واحدٍ هو ملازمة شرع الله، وكانت ثمرة طاعتهم لله من صلاة وصيام وقراءة قرآن وجهاد في سبيل الله.

ولا ينبغي الاغترار بجريان الخوارق على يد الإنسان حتى يرى التزامه بالشرع، فهي لا تدل على صلاح صاحبها مطلقاً ما لم ير حاله من الأمر والنهي، ولله در الشافعي فقد حكي له قول الليث بن سعد ونصه: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تصدقوه ولا تغتروا به حتى تعرضوه على كتاب الله ﷻ، فقال الشافعي: (لقد قصر الليث، لو رأيتم الرجل يمشي على الماء، أو يطير في الهواء فلا تصدقوه، ولا تغتروا به حتى تعرضوه على كتاب الله ﷻ، فإن الشيطان يطير من المشرق إلى المغرب)[1].

فلا بد إذاً من معرفة الفرق بين ما يكون من دائرة الكرامات بحدها الشرعي وما يكون من دعاوى أرباب الخوارق التي تنشأ من شعب متفرقة كالاستعانة بالجن، والرياضة الفلسفية وغير ذلك مما سنعرض له، ولذا صرح العلماء بضرورة استصحاب الفرق بينهما.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ & [البقرة:٣٤]: (قال علماؤنا: ومن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة حيث قالوا: إن ذلك يدل على أنه ولي، إذ لو لم يكن ولياً ما أظهر الله على يديه ما أظهر)[2].

وقال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية بعد أن نقل كلام القرطبي: (وقد استدل

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٦)، ومثل ذلك نقله أبو نعيم في الحلية: (١٠/ ٣٩) عن البسطامي ونصه: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة).

(٢) تفسير القرطبي: (١/ ٢٩٧).

بعضهم على أن الخارق قد يكون على يد غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خبأ له رسول الله: * فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ & [الدخان:١٠]، وبما كان يصدر عنه أنه يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر ا ، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر...)[١]، والحديث عند مسلم.

وقال الذهبي في السياق ذاته: (فلا يغتر المسلم بكشف، ولا بحال، ولا بإخبار عن مغيب، فابن صائد وإخوانه من الكهنة لهم خوارق، والرهبان فيهم من قد تمزق جوعاً وخلوة ومراقبة على غير أساس ولا توحيد؛ فصفت كدورات أنفسهم وكاشفوا وفشروا، ولا قدوة إلا في أهل الصفوة وأرباب الولاية المنوطة بالعلم والسنة، فنسأل الله إيمان المتقين وتأله المخلصين)[٢].

وقال ابن حجر العسقلاني: (إن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك من أولياء الله، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر أو كاهن فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأولى ما ذكروه أن يختبر حال من وقع له ذلك، فإن كان متمسكاً بالأوامر الشرعية والنواهي كان ذلك علامة على ولايته، ومن لا فلا وبالله التوفيق)[٣].

إذاً فمن يمعن النظرة وينعم الفكرة في نشأة كثير من الكرامات لدى كثير من الصوفية يجدها نشأة غريبة عن ما تقرر لدى السلف، ولئن سافر الباحث في بطون الكتب ذوات العدد

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٧٩).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٢٢/ ١٧٩).

(٣) فتح الباري: (٧/ ٣٦٤).

ليجمع ملامح هذه النشأة لأعياه أن يظفر بها، فكيف وقد كفاه الشعراني مؤونة المشقة، وقصر له المسافة، فساق ما يحتاج لدراسته في الطبقات، فهو بحق يكون مورداً للباحثين في التصوف على اختلاف مشربهم، وحديثنا عن الكرامات ينبغي أن لا يكون مكرراً أو معاراً من القول، بل سنعرض الجدة التي تظهر في طبقات الأولياء لا سيما في نشأة بعض الكرامات التي يقف الجن خلف ستارها، فيستعين بهم أولئك الشيوخ في عقد خفي يبدو لنا فيه فعل الجن جلياً، ويظل العوض الذي يقدمه الشيوخ يكتنفه الغموض، ومما يؤكد لنا هذا العقد المذكور: أن غالب هذا النوع من الكرامات يكون في أماكن تواجد الطرف الثاني كالنجاسات، وصحبة الكلاب، والخلوات المريبة.

ولقد أصاب شيخ الإسلام كبد الحقيقة في ذكر الخوارق المريبة بأنها ليست من كرامات الصالحين في شيء؛ لأن صاحبها إما أن يكون مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يدعو غير الله فيستغيث به، أو يلابس الكلاب، أو يأوي إلى المزابل، ويقدم على سماع الأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن[1].

إن قصصاً مثل الحكايات التي نحن بصدد الحديث عنها لتبين بكل أسف العقلية التي لم تراع احترام النصوص، وعقل المسلم؛ فهوت في دركات التبعية والانقياد حتى تقبلها الأتباع، ولم يعد الأمر في طور المسكوت عنه - فضلاً عن إنكاره - بل تجاوز ذلك إلى أن يكون هذا التخريف ضرباً من الولاية التي تشاع عن الصالحين ومقاماتهم الرفيعة، وبدلاً من التوراي عنها وإثناء الصدر للاستخفاء منها سطرت في تحدٍّ سافر للشرع والعقل، والفطرة أحياناً، وها نحن نتجول في الطبقات مع هذه الأخبار.

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: (ص:١٠٤).

**أولا: الاستغاثة بغير الله:**

لا تصح أن تكون الكرامة ناشئة عن معصية فضلاً عن أن تنشأ من استغاثة بغير الله، فالتوحيد هو رأس العدل، قال تعالى: * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ & [الحديد:٢٥]، فالاستغاثة بغير الله شرك قد نعى القرآن الوالغين فيه، وحذر منه، وسد الذرائع المفضية إليه، والتحذير منه ينبغي أن يتصدر الوعظ والوصايا كما يبدأ به في ذكر المحرمات، قال تعالى: * وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ & [لقمان:١٣]، وقال تعالى: * قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا & [الأنعام:١٥١].

وحين تدرج قضاء حاجة المستغاث به من قبل هؤلاء المتصوفة في الطبقات فإن ذلك ليس من الكرامات قطعاً؛ لأنه ناشئ عن شركٍ مضادٍ للطاعة بل للتوحيد، فمحال أن نعدها كرامة، وإنما هي من فعل الجن والاستعانة بهم التي يستمتع بها الإنسي حين يعبث بالناس بعصا هذه الخوارق، ويتصور الإنسي أنه يخبر بالمغيبات مقابل استمتاع قرينه بوقوعه في الإشراك، وهو المقابل الذي يحصل عليه الجني، قال تعالى: * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ & [الأنعام:١٢٨].

وقد ثبت أن مع صنم العزى الذي كان يعبد من دون الله جنية تضل الناس، كما ثبت أن رسول الله لما فتح مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، ليهدم العزى، فأتاها خالد، وكانت العزى ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال له عليه الصلاة والسلام: (ارجع فإنك لم تصنع شيئاً)، فرجع خالد فلما أبصرت

به السدنة – وهم حجبتها – أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى! خبّليه، يا عزى! عوّريه، فأتاها خالد فإذا هي امرأة عريانة، ناشرة شعرها، تحتفن التراب على رأسها، فعممها خالد بالسيف فقتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره الخبر، فقال النبي ﷺ: (تلك العزى)[1].

وأورد ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ & [الجن:٦]، قصة أبي السائب حين آواه المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فأخذ حملاً من الغنم؛ فوثب الراعي فقال: يا عامر الوادي! جارك، فنادى مناد لا نراه يقول: يا سرحان! أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة. قال ابن كثير: (وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنياً حتى يرهب الإنسي ويخاف منه، ثم يرده عليه لما استجار به، ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه، والله تعالى أعلم)[2].

فمن كانت كراماته إنما تقع بدعاء غير الله فإنما هي من عمل الجن، فإذا استغاث الأتباع بشيخهم فإن الجني يقوم بنقل الصوت أو الاستغاثة إلى الشيخ فيقول: نعم ويعمل تمويهاً يظن أنه يدفع عنه ذلك المكروه، فيقوم الجني أيضاً بإكمال التضليل فينقل هذه الإشارة الموهمة إلى الأتباع، فيحصل بذلك الضلال، قال شيخ الإسلام: (ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى: (٦/ ٤٧٤) عن علي بن المنذر عن محمد بن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٠).

وهتف به: يا سيدي فلان! فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بنفس صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول: نعم ويشير إشارة يدفع بها المكروه، فيأتي بمثل ذلك الصوت والفعل، يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه هو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك)[١].

والطبقات قد نضحت لنا بقصص من هذا الجانب نذكرها على النحو التالي:

- فقد ذكروا عن محمد الحنفي أنه ورد عليه وارد وهو يتوضأ، فأخذ فردة القبقاب فرمى بها وهو داخل الخلوة، فذهبت في الهواء وليس في الخلوة طاق تخرج منه، وبعد زمان جاء رجل من الشام ذكر أن اللص لما جلس على صدره ليذبحه قال في نفسه: يا سيدي محمد يا حنفي! فجاءته في صدره فانقلب مغمىً عليه[٢].

- وبهذه الكلمة تؤم كلمة مشابهة لها ولكن في موضع آخر وشخص آخر، فإن الفردة لا زالت حاضرة في قصة أخرى بطلها مدين الأشموني، وقد كان يوماً يتوضأ في البالوعة التي في رباط الزاوية، فأخذ فردة القبقاب فضرب بها نحو بلاد المشرق، ثم جاء رجل من تلك البلاد بعد سنة وفردة القبقاب معه، وأخبر أن شخصاً من العياق عبث بابنته في البرية فقالت: يا شيخ أبي لاحظني!! لأنها لم تعرف أن اسمه مدين ذلك الوقت[٣].

---

(١) الفرقان: (٢٣٠)، وقال أيضاً: (وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ، وقد يخلصونه ما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين).

(٢) (ص:٥١٥).

(٣) (ص:٥٢٨).

فالأصل في هاتين القصتين واحد، وهو الاستنجاد بالشيوخ، ولا أدري ما السر في الإصرار على استخدام القبقاب وهو ليس من آلة القتل قطعاً! ولكن من ضيع التوحيد فقد أضاع عقله، نسأل الله السلامة والعافية، و ما طمع الشيطان في الصحابة بقلامة ظفر من ذلك لعلمهم وإيمانهم، وما كان أحدهم يستغيث بالخلق، وليس بعد ضياع التوحيد من ضيعة:

**في كل شيء إذا ضيعته عوض ... وليس في الله إن ضيعت من عوض**

أما البدوي فقد ورد في الطبقات بمجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج، وإغاثة الناس من قطاع الطريق، وحيلولته بينهم وبين من استنجد به، على حد قول صاحب الطبقات أن أخباره في ذلك لا تحويها الدفاتر قال: وقد شاهدت أنا بعيني سنة (٩٤٥هـ) أسيراً في منارة سيدي عبد العال مقيداً مغلولاً، وهو مخبط العقل، فسألته عن ذلك؟ فقال: بينا أنا في بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدي أحمد، فإذا أنا به، فأخذني وطار بي في الهواء فوضعني هنا، فمكث يومين ورأسه دائر من شدة الخطفة!![1]

وعلينا هنا أن ندرك أن السنة المذكورة بعيدة المسافة عن وفاة البدوي بقرون وهو مواري تحت أطباق الثرى فكيف استساغ الشعراني حكاية هذا التلفيق؟ ولا شك أن للجن قدرة عظيمة في الطيران.

وصار من الأراجيز والمواويل التي يرددها المنشدون في مولد البدوي معتقدين ما سبق:

**السيد اللي من الشباك مد إيده ... من بلاد الكفر جاب الأسير بحديدة**

---

(١) (ص:٣١٧)، ونقل عن أبي موسى عمران أنه إذا ناداه مريد أجابه من مسيرة سنة أو أكثر.

ونتهي في هذه النقطة بذكر محمد الغمري حين عثر حمار بياع فجل من فقرائه في الصعيد فقال: يا سيدي محمد يا غمري!! وكان ماراً به أمير الصعيد خلف بن عمر موثقاً بالحديد حين أرسل السلطان جقمق من يأتي به، فلما سمع الأمير بياع الفجل يستغيث بهذا الاسم قال: من هذا؟ فقال: شيخي، فقال أنا الآخر أقول: يا سيدي محمد يا غمري لاحظني! فسمعه محمد الغمري وهو في المحلة فطلب ثلاثة حمير، وقال لأصحابه اركبوا فركبوا وسافروا إلى القاهرة، فجلس الشيخ تحت قبة حسن لحظة وإذا بابن عمر يصعدون به في الحديد إلى القلعة، فقال لابن النخال: اطلع خلف هذا الرجل فإذا رأيت السلطان أغلظ عليه وأمر بإتلافه فضع أصبعك السبابة على الإبهام وتحامل عليه، فإن كل من في الموكب تضيق نفسه حتى السلطان! فلما طلع وفعل ما قال له الشيخ صاح السلطان: أطلقوه واخلعوا عليه، فتلطخ جماعة بالزعفران، فنزل ابن النخال وأخبر الشيخ، فقال: اركبوا قضيت الحاجة[1].

وهذه القصة فيها وقفات منها: التردي في الشرك بغير الله في هوة سحيقة، قال تعالى: * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ & [النساء:٤٩].

ومنها: عدم استعراض الغمري قدرته في إجابة من دعاه من مكانه، بل تحمل المشقة إلى القاهرة خلافاً لغيره، ومنها: إنفاذ المطلوب في إتلاف الخصم ليس عن طريق سبب وإنما حسبه أن يبعث مريداً يقوم بحركة صبيانية تكمن في وضع السبابة على الإبهام، وهو ضرب من اللمم و الخبل نعوذ بالله من الخذلان! فالسمات البارزة هنا هي:

---

(١) (ص:٥٠٥).

- مظاهر الشرك في الربوبية فضلاً عن الألوهية.

- الغلو في الأشخاص والاعتقاد فيهم.

- إلغاء دور العقل وعدم الالتفات إلى الأسباب الشرعية.

**ثانيا: مباشرة النجاسات:**

في سياق حديثه عن الأمور الخارقة للعادة التي لا تنبعث عن الطاعة قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومثال ذلك أن هذه الأمور قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل، ورائحته خبثة لا يتطهر الطهارة الشرعية ولا يتنظف، وقد قال النبي ﷺ: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا جنب) [(١)] وقال عن هذه الأخلية: (إن الحشوش محتضرة) [(٢)] أي: تحضرها الشياطين، وقال: (من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين - البصل والثوم - فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) [(٣)]. اهـ[(٤)].

والآن نأتي إلى النماذج التي جادت بها الطبقات على أصحابها في الخوارق حين تنشأ من

---

(١) رواه أحمد (٦٠٨)، وأبو داود (٢٢٧)، والنسائي (٢٦١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٦٢٠٣)، وهو في الصحيحين؛ صحيح البخاري (٣٢٢٥)، صحيح مسلم (٢١٠٦)؛ دون قوله: (ولا جنب).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٠٥)، وأبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢٢٦٣).

(٣) رواه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (٥٦٤).

(٤) الفرقان (ص:١٠٤).

الأماكن الخبيثة مما يكون مرتعاً للجن والشياطين كما تواردت به النصوص، كبيوت الخلاء التي يستعيذ المسلم من خبثها وخبائثها التي تسكن بها، فأي فضل في انبعاث ما يكون خارقاً منها، والكرامات الشرعية إنما تنشأ من مكان عبادة كمسجد ورباط في جهاد وصلاة وصيام كما سبق، وحسبك هذا التفاوت بينها (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

**أبو الخير الكليباني يضع وجهه في حلق الخلاء:**

إن أبا الخير هذا قد نسبت له خوارق ولكنها عند أدنى تأمل يجدها القارئ لا تمت للولاية بشيء؛ لأنها صريحة في التعامل مع الجن الذين يستصحبهم وهم على هيئة كلاب، ولعله قد اشتق له من تلك الصحبة صفة لكثرة الخلطة بها حيث يدعى الكليباني، ولكن يا ترى إلى أي حد بلغ من القذارة التي تحضر عندها الجن؟! وما هو أقصى ما يمعن المرء في التخيل بأن يأوى إلى بيت الشياطين؟! لقد وصف بأن أغلب أوقاته يكون واضعاً وجهه في حلق الخلاء في ميضأة جامع الحاكم![1].

ولم يكن فعله المشين هذا الذي تعف النفس عن ذكره فضلاً عن إدراجه ضمن المناقب أمراً استثنائياً، بل تأمل كونه الغالب على أوقاته، ولعقلٍ أن يفتح بصره ليرى هذا المشهد المنفر! فهذه الأحوال المنقولة يكفي تصورها لفساد بضاعة أربابها، ومن لم يستح في إيراد مثل هذا النوع من الحديث فقد فك القيد عن رجله وعقله وصدق من قال:

مـــــا لي أراك مخليـــــاً أيـــن الـــسلاسل والقيـــود
أغـــلا الحديـــد بأرضـــكم أم لـــيس يـــضبطك الحديـــد

(١) (ص:٥٩٦).

**نشأت الكرامة بعد دخول المرحاض:**

وهذا ما تحدثنا عنه الطبقات حين تنشأ الكرامة من مأوى الشياطين، ويكون الرجل على حاله الذي هو عليه، فإذا ما أراد أمراً خارقاً خلا بالجن لتعد بذلك كرامة عند هؤلاء القوم، وسببها ليس طاعة كما هو مقرر، بل بدخول المرحاض أكرمنا الله وعافانا وحفظ لنا ديننا وعقولنا! فقد كان عبد الله القرشي أعمى وأجذم، واشتهت زواجه بنت أحد أصحابه، فطلبَ القاضي وعقدوا له عليها، وأصلحوا شأنها وأحضروها عند الشيخ، فلما خرجت النسوة دخل الشيخ إلى المرحاض!! وخرج وهو شاب جميل الصورة أمرد بثياب حسنة، وروائح طيبة، فسترت وجهها منه حياءً، فقال: أنا القرشي أبقى معك على هذا الحال، ومع غيرك على تلك الحال، ولكن لا تخبري أحداً حتى أموت!

وتمضي بنا الحكاية في تصوير هذه المسكينة المغشوشة في الولاية وقد اختارت الحالة التي يكون بها بين الناس من الجذام والبرص والعمى، ولم تفصح عن سبب هذا الاختيار، ولم تزل معه عليها، ولكن التصوير لم ينته عند هذا الحد البالغ في السوء مبلغاً عظيماً، بل زادوه انحطاطاً فزعموا أنه كان يضع شيئاً تحت ثيابه وأقدامه ينزل فيه الصديد، فكانت إذا خرجت من الحمام جاءت فشربت ذلك الصديد عوضاً عن الماء، وبعد موته كانت حرمتها بين الفقراء كحرمة الشيخ في حياته!![1]

إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تمتاز بسنن مهمة كتقليم الأظافر، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتظهر المرء جميلاً نظيفاً متطهراً، وقد أكد الإسلام على النظافة والجمال والطهارة حتى عقدت فيها أبواب في كتب الأحكام، كما عنيت بها كتب السنن وخصتها بفصول، وقد أبى هؤلاء إلا مخالفة هذه التعاليم، ولم تكن مخالفتهم في عدم اتباعها

(١) (ص: ٢٧٠).

فحسب، بل بالتغني بالوساخة والمجاهرة بها، وادعاء مثل هذه الأمور ورواجها في أوساط القوم يعد جرأة وخطة ضيم أصابت العقل في مقتل.

فأي كرامة في هذه القاذورات إلا إذا كانت لها علاقة بالسحر واستخدام الجن، وهل الصديد يروي غليل هذه المسكينة لتستعيض به عن الشرب؟! وهل تذييل هذه القصة بالمكانة التي بلغت إليها المرأة من الحرمة التي حصلت عليها عند الصوفية بسبب تلك الأمور المخزية حتى انتكست عن فطرتها، وارتكست لتكون لمن خلفها قدوة في التعامل مع أوساخ الشيوخ؟! يبقى هذا احتمالاً وارداً نضعه للنظر فيه، ويعد تأكيداً لحرمة الشيوخ عند الفقراء، وبهذا الحد فقد فاقوا الفلاسفة من حيث الحصول على خوارق من إماتة النفس، حيث أضافوا إليها هذا اللون من الانحطاط.

## صوفيان تظهر كرامتهما في بيت الخلاء:

ونقف الآن مع مشهدين في الموضوع ذاته نضحت بهما الطبقات أيضاً، يصرح فيهما الشعراني بظهور الكرامات في مواضع الشياطين، فالأول يبدو فيه حسين الجاكي - إمام جامع الجاكي وخطيبه - وقد عقدوا له مجلساً عند السلطان ليمنعوه من الوعظ، وقالوا: إنه يلحن، فرسم السلطان بمنعه، فشكا ذلك لشيخه أيوب الكناس، فبينما السلطان في بيت الخلاء إذ خرج عليه أسد عظيم وفتح فمه يريد أن يبلع السلطان؛ فارتعد ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق قال له: أرسل إلى الشيخ حسين يعظ وإلا أهلكتك، ثم دخل الحائط فنزل السلطان إلى الشيخ حسين وأراد الاجتماع بالشيخ أيوب فلم يأذن له.. إلى آخر القصة التي لا يلتئم ذكرها في لب امرئٍ عاقل، ولكنها التأمت عند هؤلاء الصوفية ولم يقفوا عندها بالريب، بل عدوها من عمل الأولياء الصالحين[1].

---

(١) (ص:٣٥٩).

والمشهد الثاني في ذات السياق، ولكن في ترجمة أخرى يظهر فيه إبراهيم المتبولي - قالوا: إنه كان سماً ناقعاً على الولاة، فإذا تشوش على أمير أو وزير مات لوقته أو في ليلته - وقد تعرض جماعة من الظلمة إلى جماعة غيطة: وأراد الوزير - وكان يسمى قاتم التاجر - أن يحدث عليهم مظلمة، وقال: إن كان المتبولي شيخاً ينفخني، فقال: يا ولدي! ما أنا أنفخ، وإنما أفوق سهمي فلا يرد، فدخل الوزير بيت الخلاء، فانتظروه ليخرج فلم يخرج، فدخلوا عليه فوجدوا لحيته ووجهه في حلق الخلاء! وهو ملطخ بالعذرة وهو ميت! فرجع غالب الولاة عن معارضته في أمر من الأمور[1].

وهكذا يكون إعمال الكرامات في بيت الخلاء بسبب سكنى الجن به، وقدرتهم على إنفاذ العقد الذي بينهم وبين الشيوخ، ولم تنشأ عن عمل صالح يفوح منه مسك الطاعة وتشهده الملائكة التي تتأذى من الخبائث، وعلى كل حال: فإن إيراد مثل هذه الحكايات هو احتطاب بليل كما قيل:

**وحاطب يحطب في بجاده ... في ظلمة الليل وفي سواده**

**يحطب في بجاده الأيم الذكر ... والأسود السالخ مكروه النظر**

وقد تم إيراد قصتين أيضاً تدخلان في هذا المجال إحداهما الكرامة فيها بحبس البول، والأخرى بالجنابة نرجئ الخوض فيهما إلى الحديث عن نزاع الصوفية مع الفقهاء.

**بركات الخياط دكانه منتن ويتطهر من مسقاة الكلاب:**

هل تكون لشخص كرامة في عدم الصلاة وملابسة النجاسات ومعاشرة الميتات؟!

هذا ما يطالعنا به الشعراني في ترجمة بركات الخياط الذي كان دكانه منتناً قذراً؛ لأن كل

---

(١) (ص:٥٠٠).

كلب وجده ميتاً أو قطاً أو خروفاً يأتي به فيضعه داخل الدكان، فكان لا يستطيع أحد أن يجلس عنده، قالوا له: نصلي الجمعة؟ قال: ما لي عادة بذلك! فأنكروا عليه؛ فقال: نصلي اليوم لأجلكم، فخرج الجامع فوجد في الطريق مسقاة الكلاب فتطهر منها، ثم وقع في مشخة حمير ففارقوه.. قال: مسقاة الكلاب إنما هي مثال مطعمهم ومشربهم، وكذلك مشخة الحمير إنما هي صورة اعتقادهم النجس[1].

فأفٍ لهذه الرذائل إن كانت هي من مراد الشعراني في استهلاله في الطبقات بقوله: (ولم أذكر من كلامهم إلا عيونه وجواهره دون ما شاركهم غيرهم فيه مما هو مسطور في كتب أئمة الشريعة) انتهى كلامه عن ذكر ما سطره على وجه العموم، ولا انفكاك أن ما ذكر عن بركات الخياط من أحوال إنما هي من باب التخصيص لهذا العموم، وهي مما قذفتها شبكة الشعراني من الجواهر! فما بالنا لو وقفنا على ما دون ذلك؟! فكيف يا ترى يكون لونها وطعمها ورائحتها؟!

وكيف تكون الكرامات في شخص لا يصلي ولا يتوضأ وإن صلى كانت صلاته للناس، ويكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للميتات من الحيوانات، يتطهر من مسقاة الكلاب، ويقع في نجاسات الحمير، وإنما هي أحوال لا تمت إلى الولاية، وهي أشبه بأحوال من يجالس الجن فضلاً عن الناس الذين لا يستطيعون أن يجلسوا عنده، وأبعد ما يكون عن الملائكة الكرام الذين يغشون مجالس الذكر!

ولا أدري ماذا يفعل من أراد ثوبه الذي خاطه بركات؟! فليأته وأنفه مسدود بردائه، لكي لا يتأذى من الروائح الخبيثة، ولا يرغب عاقل في مجالسة من ينتسب إلى الولاية كهذه،

---

(١) (ص:٥٩٨).

والحكم الشرعي في تارك الصلاة الكفر، وأما الجلوس بين ميتة الكلاب والحيوانات فيدل على خلل في العقل، فإن كان صاحبه ذا عقلٍ وأصر على مثل ذلك فيدل على خللٍ في الاعتقاد، واعتقاده هذا هو النجس لا من فارقه حين رأوا منه ما رأوا.

**من كرامات علي أبو خودة ما يعف عن ذكره المرء:**

وهذه خارقة نشأت ولكن ليس فيها من الطاعة قدر شعرة، بل هي مظهر من التلفيق والنجاسة والتلهي بالناس، فعلي أبو خودة سمع خادمه يقول: من يخلّي الشيخ الدشطوطي هراره في رجليه؟ فلما مر عليه كركبت بطن الشيخ وساح هرره على المسطبة التي كان قاعداً عليها!![1].

وأبو خودة هذا لم يستفد من هذا الفعل سوى إظهار قدرته العجيبة أمام خادمه المسكين، والضحك على صاحبها بأسلوب مشين، وفي منظر يزري بناقله فكيف بفاعله، وأشنع منهما أن يعد ترويع الناس ضرباً من الولاية:

**تـــري عينـــي مـــا لم ترأيـــاه كلانـــا عـــالم بالترهـــات**

**ثالثا: صحبة الكلاب والحيوانات:**

لم يكتف هؤلاء الصوفية بالشطح في باب الحقائق حتى زادوا الطين بلة بالغلو في ما يطلقون عليه الخوارق التي تنبعث من أماكن النجاسات ومصاحبة الكلاب التي كثيراً ما تظهر الجن بصورتها، والشعراني نفسه يصرح في مقدمة كتابه: (كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان) أن أسئلتهم أتته مكتوبة في قرطاس في فم شخص من الجان في صورة كلب

(١) (ص:٥٨٢)، وكانت خودته من الحديد وزنتها قنطار وثلث، لم يزل يحملها ليلاً ونهاراً، وربما أن الذي يحملها قرينه!

أصفر لطيف ككلاب الرمل، ودخل عليه من طاق القاعة[١].

وسبق أن أوضحنا أن العقد الذي يبرمه من يخادع بالكرامات مع الجن يكون وراء كثير من هذه الخوارق، ولذا تبدو هذه الخوارق مقترنة بالكلاب، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بأن صاحبها قد يكون معاشراً للكلاب، ولا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف، وقد قال النبي ﷺ: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب) [٢]، وقال أيضاً: (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب) [٣]، وقال أيضاً: (من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من أجره كل يوم قيراط) [٤]، وقال أيضاً: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب)[٥] [٦].

وتظهر ملامح هذا العقد في تبجيل الكلاب مثلاً ونحن نسوق هنا بعض القصص التي تحدثت عن صحبة الكلاب خاصة؛ لأنها واضحة في بيان المقصود في هذه النقطة.

**١ـ أبو الخير الكليباني والكلاب الجنية:**

كانت الكلاب التي تسير معه من الجن، وكانوا يقضون حوائج الناس، ويأمر صاحب الحاجة أن يشتري للكلب منهم إذا ذهب لحاجته رطل لحم، هكذا ذكره في الطبقات في موضع منها، وفي آخر أنه كان يدخل الكلاب الجامع فأنكر عليه القضاة فقال: هؤلاء لا

---

(١) انظر مقدمة الكتاب المشار إليه، وفيه أسئلة تتعلق بالتصوف.

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

(٣) رواه مسلم (٢١١٣).

(٤) رواه البخاري (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٤).

(٥) رواه البخاري (١٧٢)، ومسلم (٢٧٩).

(٦) انظر: الفرقان (ص:١٠٥).

يحكمون باطلاً ولا يشهدون زوراً[١].

وهذا صريح في مصاحبة الكلاب، وأصرح منه أن هذه الكلاب من الجن نسأل الله السلامة والعافية.

## ٢ـ الكلاب التي تكتسب الولاية:

ولقد بلغ من حال هؤلاء المتصوفة في اصطناع الكرامات أن يعد التعامل مع الكلاب من مظاهر الولاية، وجردوا في ذلك حكايات لولا أن لها صلة بالتراجم لصلحت أن تكون من باب التسلية، فيوسف العجمي وقع بصره على كلب حين خرج من الخلوة؛ فانقادت له جميع الكلاب، إن وقف وقفوا، وإن مشى مشوا، فأعلموا الشيخ بذلك فأرسل خلف الكلب وقال: اخسأ، فرجعت الكلاب تعضه حتى هرب، ووقع له مرة أن خرج من خلوة الأربعين فوقع بصره على كلب؛ فانقادت له جميع الكلاب، وصار الناس يهرعون إليه في قضاء حوائجهم، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون، ويظهرون الحزن عليه، فلما مات أظهروا البكاء والعويل، وألهم الله تعالى بعض الناس فدفنوه، فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتت![٢].

ولو قلنا: إن الكلاب انقادت له بفعل هذه النظرة الغريبة، فما بال الناس يهرعون له في قضاء حاجاتهم؟! يعني بعبارة أخرى: ما الذي تغير في الكلب وصار كهفاً للمحتاجين؟! يبدو أن النظرة لم تحول الكلب ولياً صالحاً فحسب!! ولكن مسخت قلوب الناس وعقولهم فصار الكلب غياثاً لهم لا يجيئون مشياً بل يأتونه سعياً كما صرح بذلك الشعراني! وما ذاك إلا

---

(١) (ص:٥٩٦).

(٢) (ص:٤٦٨).

لكون الكلب شيطاناً من الجن!

وأما زيارة الكلاب لقبره فإساغتها كبيرة إلا على أشباه المعتوهين الذين يسلمون بذلك، وليس في دفنه إلهام من الله بل هو من وحي الشيطان، وكيف يا ترى مكانة ضريح الكلب الذي تؤمه الكلاب الزوارة؟! فيا ليت السياق لم ينقطع عند هذا الحد من التصوير لينقل لنا مراسيم زيارة الكلاب الجنية ويتمادى في ذلك! فهل من زعيم يتبنى المحاججة عن هذا الكلام، فيبرز لنا حجته ويخرج لنا برهانه؟!

**٣ـ القيام للكلب إجلالا:**

وهنا وقفة مع القيام للكلاب! وقد ورد في الطبقات بروايتين إحداهما وردت بسند صاحبها عن محمد الشناوي عن عبد الرحمن القناوي: أنه رأى مرة في عنق كلب خرقة من صوف؛ فقام إجلالاً لخرقة الصوف. وفي الرواية الأخرى زيادتان: الأولى تفيد أن كلامه إنما وقع جواباً لسؤالٍ عن سبب قيامه، والثانية تفيد أن الخرقة عبارة عن خيط أزرق من زي الفقراء[1].

وهكذا يتم تعليل هذا الإجلال بالقيام لكلب قيل: إن في عنقه صوف، ويبدو أن الصورة صورة كلب والحقيقة هي الجان الذي يلعب بعقول كهذه! وتبجح هؤلاء القوم بذلك في موضعين يدل على تأكيد الخرافة، ويكفي هذا القول بطلاناً ما ورد من نصوص في ذم صحبة الكلاب التي لا تدخل الملائكة بيتاً هي فيه كما سبق آنفاً، وهؤلاء يأنسون بها ويبجلونها والله المستعان.

---

(١) (ص:٢٦٥-٥٧٨).

**٤ـ السلام على الكلاب والنظر في أمر الدواب:**

وكما قام القناوي إجلالاً لكلبٍ في عنقه خرقة صوف فقد نسب للرفاعي أنه كان يبتدئ من لقيه بالسلام حتى الأنعام والكلاب، وكان إذا رأى خنزيراً يقول له: أنعم صباحاً! فقيل له في ذلك، فقال: أعود نفسي الجميل، ووجد كلباً أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد، فخرج معه إلى البرية وضرب عليه مظلة، وصار يطليه بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحت الجرب منه بخرقة، فلما برئ حمل له ماءً مسخناً وغسله[1].

وهذا تخليط عجيب في السلام على الكلاب والتحية للخنازير، ومراعاة شعورها، والنظر في أمرها لا نفقه كثيراً من تلفيقاته! يصدق عليه قول الشاعر:

**إن كنت أدري فعلي بدنة ... من كثرة التخليط ما أدري من أنا**

وليس من ولاية الشيوخ هذا الهراء وكيف يفسر لنا السلام على الأنعام والكلاب إلا إذا كانت جاناً مقترنة بهم وهذا يعد من العبث الذي ينزه عنه العقلاء.

**٥ـ القرد والدب والحمار والكلب وسط الدار:**

وهذا إبراهيم المتبولي يبدو في الحكاية وقد استنجد به رجل قد ظلمه ابن البقري، وأخذ بقرته التي يشرب هو وأولاده لبنها، وأراد منه المساعدة في رد مظلمته من الرجل، فما كان منه إلا أن ركب حمارته فوجد ابن البقري عنده شيخه ابن الرفاعي، فتكلم المتبولي كلاماً بعزة شيخه، فقال له: شيخك هذا كان أبوه قراداً في بلاده، فما قال الشيخ ذلك الكلام إلا والقرد والدب والحمار والكلب في وسط داره حقاً شهدهم الحاضرون تصديقاً لكلام

(١) (ص:٢٤٣)، قال: وكان قد كلفه الله بالنظر في أمر الدواب والحيوانات.

الشيخ!! ثم غابوا فاستغفر ابن البقري وقضى حاجته[١].

ولا شك أن حضور الحيوانات من شعاب مختلفة، وأودية متفرقة صورة ناقصة مبتورة لا تبين كيفية حضورها وسط الدار، فلم يفاجئنا السياق إلا والحيوانات موجودة، فكيف حضرت إذاً؟!

وما ذاك إلا من اللهث وراء الكرامات الفارغة والخيالات التي يتصيدون بها قلوب العامة، ولذلك يجدون سلطاناً عليهم لبعدهم عن القرآن والسنة، فتنفذ هذه الأوهام، وهكذا تم اصطياد ابن البقري المذكور بشبكة الولاية المزعومة.

**داره مأوى للكلاب والحدادي والغربان العاجزين:**

سبقت صورة دكان الخياط الذي يضم الكلاب الميتة، وتأتي الآن دار تأوي الكلاب، وقد سبق أن من اقتنى كلباً ليس للصيد أو الحراسة نقص من أجره قيراط، فهذا ناصر الدين النحاس كان يذهب كل يوم إلى المذابح يأتي بكروش البهائم وطحالاتها وشغتها في قفة عظيمة على رأسه! يطعمها الكلاب العاجزة والقطط والحدادي والغربان، وكانت داره مأواهم في غالب الأوقات!![٢]

قلت: لا ندري بأي الخرافات ندحض باطل القوم! فقد كثرت علينا فلا ندري ما نصيد؟! والتواضع لا يصل بصاحبه إلى هذا الخروج المقيت عن الهدي القويم، فمن أكل من

---

(١) (ص:٤٤٩)، ومن ذلك أنه أرسل عليه جماعة من رعيان الغنم كلابهم حين أغلظ عليهم أصحابه في رعيهم برسيمه، فلما وصل الكلاب إلى الشيخ بصبصوا بأذنابهم ومضوا في خدمته ولاذوا به تبركاً! فجاء أصحابها فعدوا عليهم وعقروهم ورجعوا إلى الشيخ!!

(٢) (ص:٦٦٧).

الثوم والبصل فلا يقربن مجالسنا لرائحته الكريهة، فكيف بصاحب هذا الصنيع والإعجاب به؟! وخير الهدي هدي محمد، فعلينا أن نزن أنفسنا وأفعالنا بميزان الشرع الحنيف ولا ننساق خلف الدراويش وخيالاتهم.

## حكايات مصاحبة القمل والنوم مع الكلاب ومصاحبة الحيات والثعالب والثعابين:

فمن أولياء الطبقات شمس الدين الحنفي الذي ذهب بعيداً في صحبة الكلاب، ومحبة القمل، فلم يتوقف شغفه بذاك في صحته، بل سأل الله قبل موته أن يبتليه بالقمل والنوم مع الكلاب والموت على قارعة الطريق! وحصل ذلك قبل موته فتزايد عليه القمل حتى صار يمشي على فراشه! ودخل كلب فنام معه على الفراش ليلتين وشيئاً....

- ومنهم شخص آخر يوصف عندهم بأنه من أرباب الأحوال يجلس في البرية، وقد حلق على نفسه بزرب شوك، وعنده داخل هذه الحلقة الحيات والثعالب والثعابين والقطط والذئاب والخرفان والأوز والدجاج، فزاره محمد بن عنان فقال: أهلاً بالجنيدي.....

- ومنهم محيسن البرلسي كان يربط عنده عنزاً وديكاً بحبل والنار موقدة عنده.

- ومنهم علي البرلسي كان يملأ أوعية الكلاب دائماً في حارته وغيرها[1].

## استخدام القمل وأمر الفئران بالرحيل والتمساح الذي يكلم الفرغل:

ومما يتعلق بهذا النوع من الولاية شخصان: أحدهما كان يستخدم القمل في كراماته، والآخر له يد طولى على الفئران، فأما الأول: فهو شخص زمن في جامع الإسكندرية كل من

(١) (ص:٥٢٥-٥٥٩-٥٩٥-٥٩٧)، ومنهم سعود المجذوب كان له كلب قدر الحمار لم يزل واضعاً بوزه على كتفه (ص:٦١٠).

تشوش منه يقول: يا قمل! اذهب إلى فلان؛ فتمتلئ ثياب ذلك الشخص قملاً حتى يكاد يهلك ولقد أنكر عليه فعله هذا محمد عنان و تصرف فيه[١].

وأما الثاني: فهو محمد أبو الحمائل حين شكا له أهل بلده من الفأر وكثرته في مقثأة البطيخ، فقال لصاحب المقثأة: رح وناد في الغيط: حسب ما رسم محمد أبو الحمائل أنكم ترحلون أجمعون، فنادى الرجل لهم كما قال الشيخ فلم ير بعد ذلك اليوم منهم ولا فأراً واحداً[٢].

ولو تتبعنا أخبارهم مع الحيوانات لخرجنا عن المقصود، فحسبنا ما أوردناه من حكايات عجيبة، ووروده في كتب النوادر أشبه منها بكتاب خص بسير الصوفية، والشرع ينسجم مع الفطرة السليمة، ولا يتعارض مع العقل، وهذه الحكايات لم تراع النصوص الشرعية، ولا الفطرة التي فطر الله الناس عليها من النظافة والتطهر، ولم تحترم عقول الناس،

---

(١) (ص:٥٥٤).

(٢) (ص:٥٦٨).

- ومن عجيب الأخبار حديث النموس الذي كان يتتبع حسين أبا علي حيثما مشى في شوارع وغيرها!!

ومن العجائب المتفرقة أيضاً: ركوب إبراهيم بن عيصفير ظهر الذئب والضبع والجمل الذي ساقه أبو العباس الغمري، فمشى في الهواء ودخل قنطرة ضيقة وقد ركب ظهر التمساح وعدى عليه كما أمر محمد الفرغل التمساح أن يلفظ بنت مخيمر بعدما خطفها، فخرج التمساح من البحر وطلع المركب وهو ماش والخلق بين يديه جارية يميناً وشمالاً إلى أن وقف على باب الدار، فأمر الشيخ الحداد بقلع جميع أسنانه، وأمره بلفظها من بطنه، فلفظ البنت حية مدهوشة، وأخذ على التمساح العهد أن لا يعود يخطف أحداً من بلده ما دام يعيش، ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر!

وأخيراً: يأتي دخول الحصان قبر عيسى البرلس وكان قد نذر به شخص للشيخ ثم امتنع عن الوفاء، فبينما هو مار به ذات يوم وقد صار تجاهه رمح صاحبه حتى دخل الزاوية ودخل الحصان قبر الشيخ ولم يخرج.

فواخيبة السعي! بل واضيعة العمر! إن كانت هذه الحكايات من دائرة الولاية! مما يدل على إلغاء التفكير وانقياد الأتباع بلا بصيرة، وما أوتوا إلا بعدما أزاحوا منار العلم عن الطريق، فمشوا في ظلمات الجهل بحثاً عن سراب!

وهكذا تلتبس طريق الأولياء الصادقين هذه الخيالات الفاسدة، ولقد نسب لبعض الصوفية المتقدمين أحوال مع الوحوش، يذكرون أنها بسبب إصلاح باطنهم حتى خافهم الأسد لصدق معاملتهم مع الله، كما نقل عن أبي الخير التيناتي قوله: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد، ولكنه بادئ الرأي ليس من معاملة الكلاب وملابسة النجاسات في شيء فليكن هذا على بال.

**ثالثا: الطريق لا تطلب بالنظافة:**

النظافة من الدين، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، ومخالفة ذلك خروج عن الأدب، ومع ذلك فقد صرح محمد السروي بأن الطريق لا تطلب بالنظافة حين جاءه الحديدي يطلب الطريق فرآه ملتفتاً لنظافة ثيابه، فقال إن كنت تطلب الطريق فاجعل ثيابك ممسحة لأيدي الفقراء! فكان كل من أكل سمكاً أو زفراً يمسح يده في ثوبه مدة سنة وسبعة شهور حتى صارت ثيابه كثياب الزياتين أو السماكين[1].

ولم يقف طلب الولاية بالقذارة عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى حيث يحدثنا المقام عن البدوي مع محمد المسمى: قمر الدولة، عندما جاء من سفر فطلع يستريح عنده، فوجد البدوي قد شرب ماء بطيخة وتقيأه ثانياً فيها، فأخذه محمد المذكور وشربه، فقال له البدوي: أنت قمر دولة أصحابي[2].

---

(١) (ص:٥٦٨).

(٢) (ص:٣١٥).

والغريب أن قصصاً ذوات العدد قد تواطأت على ترك التنظف، والبقاء على الشعث، وترك الثياب متسخة إلى غاية غير محمودة قد تصل إلى تساقط الدود منها عند بعضهم، وذوبانها عند آخرين.

- فممن كان يلبس العمامة ولا يخلعها حتى تذوب الشيخ الصالح[١].

- ومنهم البدوي، ويزيد على العمامة الثوب أيضاً لا يخلعه لغسلٍ ولا لغيره حتى يذوب فيبدلونه له[٢].

ومنهم عمر المجذوب كان إذا لبس القميص لا ينزعه حتى يذوب[٣].

ومنهم علي بن شهاب كان إذا لبس القميص أو العمامة لا ينزعها للغسل قط إلا إن نزعوها، وكانوا ينسونه بعض الأوقات فتصير كالوحل، قال في الطبقات: ومع ذلك على ثيابه الفخر والنور يخفق منها من نور الأعمال! وهذا يتناقض مع ما وصفت به من الوساخة إلى حد الوحل!![٤]

- ومن المجاذيب عبيد البلقيني فقد كان الدود يتساقط من تحت قلنسوته، مكث نحو خمس عشرة سنة بلباس جلده، مكشوف الرأس والبدن، لا يلتفت لتدبير بدنه حتى صار الدود يتساقط من تحت قلنسوته من محل الزيق[٥].

---

(١) (ص:٦٦٧).

(٢) (ص:٣١٢).

(٣) (ص:٦٧٠).

(٤) (ص:٥٤٥).

(٥) (ص:٦٠٢).

ولا فخر في شيء من ذلك كله، ومعلمنا وقدوتنا رسول الله هو الذي جاء بالحنيفية السمحة، وأمر الصحابة بالاغتسال يوم الجمعة حين انبعثت رائحة الصوف، ولم يزل الغسل بعد ذلك سنة ماضية، وكذا التجمل بالثياب، وما أروع ما ورد من نصوص في استحباب السواك، ومنها ما روته أم المؤمنين عائشة ل مرفوعاً بأنه: (مطهرة للفم مرضاة للرب)[1].

وأمامنا تراجم الرعيل الأول ممن أخذوا هديه لم يسطر في أخبارهم العطرة شيء مما ذكره هؤلاء و نادوا به، وقد ضبط فريق ممن يوصفون بصناعة هذه الأعمال وهم ينصبون بها أشباكاً لاصطياد أموال الناس فأظهروا للناس نسكاً وعلى المنقوش داروا، وأما إن كان هذا الفعل ابتغاء الولاية، واقتفاء أثر السابقين ممن نسب إلى التصوف فإنه خروج عن سبيلهم، وما طريقهم بالنسبة للمتأخرين إلا كطلل قديم يصح البكاء عليه، والوقوف عنده بالتحية:

**حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم**

**يفلي ثوبه من القمل وسحلية تسلب الحال:**

لقد استطعنا أن نصل بعد هذه الجولة من القصص إلى حقيقة تجلي دعوى الولاية، وأن الأمر ضرب من استخدام الجن والشياطين وسحر الناس، وتعمد الوساخة والقاذورات، ولذلك يتبارى أولئك في امتلاك الجن وقوة التأثير فيما بينهم أيهم أقوى نفوذاً في الأحوال والقدرة على سلبها، كفعل السحرة الذين يستعرضون سحرهم العظيم خلافاً لمعنى الكرامة بمعناها الشرعي، ودليل هذا أن محمد بن هارون قد سلب حاله من قبل سحلية! وإليك تفاصيل هذا الخبر يرويها الشعراني في الطبقات: بأنه كان إذا خرج هذا الصوفي من صلاة

(١) رواه أحمد (٧)، والنسائي (٥)، وابن ماجه (٢٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٩).

الجمعة تبعه أهل المدينة يشيعونه إلى داره، فمر بصبي القراد وهو جالس تحت حائطه يفلي ثيابه من القمل، وهو ماد رجليه، فخطر في سر الشيخ أن هذا قليل الأدب يمد رجليه ومثلي مار عليه، فسلب لوقته وفرت الناس عنه، فرجع فلم يجد الصبي، فدار عليه في البلاد إلى أن وجده في رميلة مصر، فلما نظر القراد الكبير إليه وهو واقف وقد فرغوا قال له: تعال يا سيدي الشيخ مثلك يخطر في خاطره أن له مقاماً أو قدراً، هذا الصبي سلبك حالك فله أن يمد رجله بحضرتك كونه أقرب إلى الله منك، فقال: التوبة، فأرسله إلى سنهور المدينة إلى الحائط الذي كان يفلي ثوبه عنده وقال: ناد السحلية التي هناك في الشق وقل لها: إن قزمان طاب خاطره فردي علي حالي، فخرجت ونفخت في وجهه فرد الله عليه حاله[1].

انتهت القصة برمتها ولا بد من تحليل ما حملته في طياتها من حقائق مخيفة، وهي حكاية لا يحسد على ذكرها؛ لما تضمنته من المهانة بدرجة لا يشك فيها العقلاء، وتحليلها يكون في النقاط التالية:

- الوساخة المتناهية في يوم الجمعة لدى صبي القراد الذي يفلي ثيابه من القمل، ولا ندري هل مثل هذا شهد الجمعة أم لا؟

- سلب الحال الذي كان عليه ابن هارون يدل على أن جنه الذين يمتلكهم أضعف من هذا الصبي فانهزموا أمامه.

- اختفاء هذا الصبي بهذه السرعة يدل على أنه من الجن.

- السحلية من الجن والقضية مرتبطة بكبيرهم حين طاب خاطره.

- قيام السحلية بإرجاع الحال لمحمد بن هارون حصل بمجرد نفخة من فمها، وهذا أمر في غاية الإسفاف.

---

(١) (ص:٣٦١).

وهي ظلمات بعضها فوق بعض، وشاهد صادق لهذا النوع من الخوارق والأحوال الشيطانية التي تمارس من قبل أشرارها، وخبر السحلية يعد حديث بلهاء تطلعني على أسرارها، والولع بذكرها في سير الأولياء بهذه الظلمة الحالكة يفتح للشك أبواباً في تراجمهم وما ينقل عنهم من أباطيل يزهقها نور الكتاب والسنة، قال تعالى: ((ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)) فيا ليت الطبقات نادت بالنصوص القرآنية ولم تلتفت إلى قداسة الشيوخ!

**رابعا: الخلوات وعلاقتها بالجن:**

تعد الخلوة من الأمور التي تساعد على رياضة النفس، ومن عقبتها يشرف الصوفي على عالم المشاهدة والفناء كما يزعمون، غير أن هذه الخلوات في بعض أحوالها تشهد أعمالاً أخرى دون ذلك، هذه الأعمال ذات علاقة باستحضار الجن والشياطين، ولذلك نستطيع أن نفسر خوف بعضهم من مفاجأته دون استئذان حين يكون داخل هذه الخلوات، فربما اطلع الداخل على ما لا تحمد عقباه، وسجلت لنا الطبقات شيئاً من هذا القبيل نذكره قريباً، فقد تكون الحالة غير معهودة لتلبس الجن به، فلا يقوى الداخل على تقبل هذه الحال أيضاً، وهذا ليس بسر ينبغي كتمانه، أو نتيجة ينبغي إعمال العقل في الوصول إليها، بل الأمر صريح عند بعضهم بأن الشياطين تأتي للشيخ في الخلوة لتضله، وقد كان أبو النجيب السهروردي يحذر الفقير إذا جلس في خلوة، فيدخل عليه في كل يوم يتفقد أحواله ويقول: يرد عليك الليلة كذا، ويكشف لك عن كذا، وتنال حال كذا، وسيأتيك شخص في صورة كذا، ويقول لك كذا فاحذره فإنه شيطان!! فيقع للفقير جميع ما أخبر به[1].

(١) (ص:٢٣٩)، ومن هنا يمكن نفهم تحذير إبراهيم الدسوقي بقوله: لا تفيد الخلوة إلا إن كانت بإشارة شيخ وإلا ففسادها أكبر من صلاحها.

وإذا كان هذا الفقير قد وفق بزيارة مرشد يحوطه بالعناية، ويتعهده بالرعاية فلا شك أن من فقد المرشد يكون لقمة سائغة للشياطين تلعب به، ومن هذه الخلوات التي تعتمل فيها هذه الخرافات ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: (ومن هذه الأرواح الشيطانية الروح التي يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقى إليه ذلك الكتاب - الفتوحات - ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وحال معين، وهذه مما تفتح لأصحابها الاتصال بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء وإنما هو من الأحوال الشيطانية)[1].

## هيئات الشيوخ في الخلوات

لقد حرص بعض الصوفية ممن ترجم له في الطبقات على إغلاق هذه الخلوات دون الآخرين، ومنهم من جعل له باباً يمنع الداخلين من غير أهلها؛ لأن لهم فيها أحوالاً مختلفة لا يقوى الداخل على تحملها، وبعضها تعد معملاً للكيمياء والسيمياء، ومرتعاً للجن لاستخدامهم في صنع الخوارق، وهيهات أن تكون من جنس الكرامات، وقد تسرب العمل بها من دائرة الفلسفة كما سيأتي في أركان الرياضة.

- فحسين أبو علي كان كثير التطورات، تدخل عليه بعض الأوقات فتجده جندياً، ثم تدخل فتجده سبعاً، ثم تدخل فتجده فيلاً، ثم تدخل فتجده صبياً وهكذا، مكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء، وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة، وكان من لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوي سيماوي!! معروف بالكيمياء، وقد قتل وقطعوه بالسيوف ورموه على الكوم، ثم أصبحوا فوجدوه جالساً فقال: غركم القمر![2]

---

(١) الفرقان (ص:١٧٠).

(٢) (ص:٥٠٣).

- ومنهم محمد الغمري دخل عليه الخيسي يوماً الخلوة فرآه جالساً في الهواء وله سبع عيون![1].

- ومنهم محمد الحنفي دخل خلوة تحت الأرض سبع سنين، ودخل عليه أبو العباس يوماً الخلوة بلا استئذان فوقع بصره على أسدٍ عظيم، وحدثته التوتة في الخلوة..

وكانت رجال الطيران تأتي في الهواء إليه فيعلمهم الأدب، ثم يطيرون في الهواء والناس ينظرون إليهم حتى يغيبوا، وكان يزور سكان البحر بثيابه، فيمكث ساعة طويلة ثم يخرج ولم تبتل ثيابه!!

وكان يتطور بعض الأوقات حتى يملأ الخلوة بجميع أركانها ثم يصغر قليلاً قليلاً حتى يعود إلى حالته المعهودة[2].

وهنا نورد أن من هذه الخوارق التي تخلط بالكرامة وتنشأ من الخلوات على النحو التالي:

١- كان يوسف العجمي إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد، فكل من وقع عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً، وقد وقع بصره يوماً على كلب فانقادت له جميع الكلاب.. الخبر المذكور سابقاً[3].

٢- محمد الشويمي جاءه مرة شخص يحمل حملة امرأة يحبها، ويريد أن يتزوجها وهي تأبى، فقال له: ادخل هذه الخلوة واشتغل باسمها، فدخل واشتغل باسمها ليلاً ونهاراً، فجاءته المرأة برجليها إلى الخلوة وقالت: افتح أنا فلانة، فزهد فيها كما ترويه الحكاية.

---

(١) (ص:٥٠٤).

(٢) (ص:٥٠٧).

(٣) (ص:٤٦٨).

ومثل ذلك ما كان من شأن حسن التستري حين جاءه نصراني صائغ أرسل له السلطان فصاً من المعادن الغالية ليصنعه خاتماً لزوجته، فانكسر عليه فصين، وخاف من القتل، فدخل التستري الخلوة وحوّل باطن السلطان إلى أن صار يطلب الفص فصين..[١].

٣- جمال الدين يوسف اشتاق إلى أهله بحصن كيفا من بلاد الأكراد وهو بمصر، قال: فشاورت الشيخ وكان ذلك بعد العصر، فقال: إن شاء الله يكون، فدخلت الخلوة وقرأت ورد العصر؛ فرأيت نفسي داخل بلدي والناس تسلم علي..[٢].

- ومنهم محمد عنان استنجد به الشريف بركات من الغوري، فدخل الخلوة ولم يخرج، ففتح اثنان من أصحابه الباب فلم يجداه، فبعد ساعة خرج وعيناه كالدم الأحمر، فقال: اركب يا شريف لا أحد يلحقك فما شعر الغوري به إلا بعد يومين[٣].

أفبعد كل ما قيل من الغلو في قدرات الشيوخ في خلواتهم يطلب دليل على فساد هذا الطريق؟! ويمكن لنا أن نسجل ما يلي:

- إن قول الغلاة في تصوير قدرات أئمتهم يزرع في نفوس التابعين لهم قداسة تصل بهم إلى خصائص الربوبية، واسمع ما قال مؤمن آل ياسين في القرآن الكريم حيث ينعي على قومه اتخاذ الآلهة بقوله: ((أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون)).

---

(١) (ص:٤٦٩-٥٣٠).

(٢) (ص:٥٥٧).

(٣) ومنهم محمد الفرغل، اشتهت امرأة الجوز الهندي فلم يجدوه في مصر، فقال للنقيب: ادخل هذه الخلوة واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التي تجدها في داخل الخلوة، فدخل فوجد شجرة جوز فقطع خمس جوزات، ثم دخل بعد ذلك فلم يجد شجرة.

– لم يثبت في النصوص دخول هذه الخلوات، وإنما كان اعتكافه عليه الصلاة والسلام في المساجد أحب البقاع إلى الله ﷻ، وقد وجدت في رهبانية النصارى، وسلوك الفلاسفة فأي غبن يبوء به من شد رحله ويمم وجهه شطر هذا السبيل؟!

– كثير من هذه الخلوات يأوي إليها الجن؛ فتنبعث منها ما يسمى الخوارق، فلا يغتر الإنسان بما يقال عن الانقطاع فيها للذكر، إضافة إلى ما يصاحبها من جوع وسهر يعارض النصوص الشرعية.

**سادسا: النساء والمردان**

قد يطمع الجني في عقده مع صاحبه الإنسي بما دون الشرك من المعاصي والمخالفات، ولعل صحبة المردان والنساء من المراتع التي تكون أخصب ما يريده فيظفر ببغيته، وما زالت الزاوية في انحراف التصوف تتسع انفراجاً في السلوك – بعد وصولها الزاوية المنفرجة بالهذيان بالكفر في أمر الشطح – حتى وصلت عند جماعة منهم إلى الانفتاح على النساء والمردان بعدما ملأوا الدنيا ضجيجاً عن الزهد في المباح، فإذا بهم يغشون المحرمات الواضحة التي لا لبس فيها، وأستغرب من قوم رغب جماعة منهم عن الزواج بحجة الانقطاع عن الدنيا والرهبنة المبتدعة، ومع ذلك يتسلل بعضهم إلى مجالس النساء وصحبة المردان جهاراً.

ودعونا أولاً قبل أن نخوض مع الطبقات في هذا المشهد الجديد حتى نبين مدى خطورة الاجتماع بالنساء الأجانب، وكذا صحبة المردان، فإنها مفسدة للمرء أي مفسدة، وهو طريق ممنوع الاقتراب منه لوعورته وهلكة سالكه، وبعض المتصوفة أبى إلا أن يكون لهم في هذه القضية كلاماً آخر ليلوث التصوف فوق ما فيه من فساد بوحدة الوجود وغيرها من اللوثات الفكرية.

ومن تأمل عنايته عليه الصلاة والسلام بسد المنافذ التي يلج منها الشيطان أدرك سلامة القلب التي يهتم بها الدين، حيث حمى النفوس من إلقاء نزغات الشيطان فقال عليه الصلاة والسلام لرجلين أبصراه ومعه صفية زارته في معتكفه فانقلب يودعها: (إنها صفية)[١].

ومفسدة صحبة النساء وكذا صحبة المردان - فإنها آخية لها - لا نحتاج إلى الخوض فيها طويلاً لوضوحها، وقد بحث شيخ الإسلام هذه العلاقة فقال: (ومن هؤلاء من يستحل الفواحش كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلوة بهن، زعماً منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن، وإن كان محرماً في الشريعة، وكذلك يستحل ذلك مع المردان...)[٢].

وفي الطبقات جملة من الأقوال التي تذم هذه الخلوة سواء النساء أو المردان، وهو من الأمور المقبولة من قائلها، وقد أدلى السيوطي بدلوه في الموضوع ذاته فقال: (ومن البدع المحدثة المستقبحة في الأفعال ما وقع فيه طائفة من جهال العوام النابذين لشريعة الإسلام، التاركين الاقتداء بأئمة الدين، وهو ما يفعله طائفة من المنتمين إلى الفقر - الذي حقيقته الافتقار من الإيمان - من مؤاخاة النساء الأجانب والخلوة بهن، وهذا حرام باتفاق المسلمين، ومستحل ذلك كافر، وفاعله على طريق التهاون به عاص ضال مضل، مارق من الدين، ومفارق لجماعة المسلمين، أبعد الله فاعله، فإن النظر إلى النساء الأجانب، والخلوة بهن، وسماع كلامهن حرام على كل بالغ ما خلا ذي الرحم المحرم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهذا ليس موضع استقصاء الدليل عليه، وإنما المراد تبيين الدليل، والبدع والتحذير منها، وليس

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (١١/ ٤٠٥).

هذا يخفى على مسلم)[1].

وأصحاب هذا المسلك عادة لا يلتفتون إلى إنكار الفقهاء لهم، وإنما يلوذون ببيان عاقبة المعترضين على الأولياء في ذلك، وليس في صنيعهم هذا تبرير لهم فيذكرون العاقبة السيئة التي حاقت بأولئك المنكرين على وفق تعبير الشاعر:

**شكونا إليهم خراب العراق فعابوا علينا شحوم البقر**

والآن ندع الطبقات تمضي بنا في تراجمها إلى هذا النفق المظلم الذي يعز وجوده في غيرها، فتذيعه لنا بأوضح عبارة - دون الإشارة - في جرأة متناهية بغشيان مواقع الريب، نسأل الله العافية، ولولا البيان في التمييز بين الكرامات والخرافات لعافت نفوسنا النظر إلى هذه المشاهد.

**فمن المشاهد المبثوثة في صحبة النساء:**

١- مجلس تنبعث من أرجائه ما يزعمونه كرامة يبدو فيه محمد الحنفي جالساً وحوله نساء أجانب تكبسه، وبينا هو كذلك بحضرتهن إذ دخلت عليه امرأة أمير، فأنكرت بقلبها عليه، فلحظها الشيخ بعينه، وقال: انظري، فنظرت فوجدت وجوههن عظاما تلوح، والصديد خارج من أفواههن ومناخرهن كأنهن خرجن من القبور، فقال لها: والله ما أنظر

(١) انظر ذم الخلوة في الطبقات: (١٩٤-٢١٠).

وانظر كتاب الأمر بالاتباع للسيوطي وفيه أيضاً: ومن ذلك معاشرة الأحداث، وقد كان السلف يبالغون في الإعراض عن المرد، وصحبة الأحداث أقوى حبائل الشيطان قال أبو بكر الرازي: قال يوسف بن الحسين: نظرت في آفات الخلق فعرفت من أين أتوا، ورأيت آفة الصوفية من صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد.

دائماً إلى الأجانب إلا على هذه الحالة[١].

وقد سحرت امرأة الأمير المنكرة بقلبها فرأت ما رأت مما أخافها، وهي إنما لم تتعد أضعف الإيمان ومع ذلك ارتاعت، فكيف لو أنكرت بلسانها أو بيدها؟! وهل تكون كرامات الأولياء من مثل هذه المجالس؟!

٢- وأما المجلس الآخر فمكانه قصر الخليفة، وهو يختلف عن الأول في بعض الجوانب، ففي حين كانت المنكرة على الحنفي جلوسه مع النساء الأجانب - آنفاً - امرأة الأمير فإن التي تقترف هذه المخالفة هنا هي بنت الخليفة، فتظهر مع جواريها في غرفتها بأعلى القصر، فيطلع إليها أحد الصوفية وهو محمد الشناوي ليلقنها الذكر ويلقن جواريها، ففعل ووقعت عصائبهن من كثرة الاضطراب في الذكر!! فلما نزل قال: الحمد لله ما كان هناك أحد من المنكرين على هذه الطائفة![٢].

وهذا دليل على أهمية إنكار المنكر الذي رام إسقاطه فأين مراقبة الله والخوف منه الذي رتبوه من جملة المقامات التي يعرج فيها السالك؟!

٣- وخبر أحمد الملثم في العجب مثل سابقيه، فقد كان أهل مصر لا يمنعون حريمهم منه في الرؤية والخلوة؛ فأنكر عليه بعض الفقهاء فقال: يا فقيه! اشتغل بنفسك فإنه بقي من عمرك سبعة أيام وتموت، فكان كما قال!![٣]

---

(١) (ص:٥١٧).

(٢) (ص:٥٧٩).

(٣) (ص:٢٢٦).

والغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ((وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)) ومن ادعى علم الغيب كفر، و صنيع هذا الفقيه هنا من الاشتغال بالنفس وأي اشتغال! وليس هناك علاقة بين موت الفقيه وبين ما يأتيه الصوفي من مخالفة، ولو قدر موت المنكر فعلاً فالمخالفة تظل عصياناً لا بد من إنكاره من قبل حماة الشرع، ومثل هذه الأفعال إنما يستحق فاعلها التأديب بأغلظ من عراجين عمر | عقوبة وتعزيراً.

ومن صور صحبة المردان نكتفي بمشهد واحد ولكنه كاف ببيان المقصود، ونترك الحديث للشعراني يقصه بقوله: إن إبراهيم المتبولي نام عنده جماعة من فقهاء الأزهر في بركة الحاج، فوجدوا عنده مملوكين أمردين من أولاد الأمراء ينامان معه في الخلوة! فأنكروا عليه ثم رفعوا أمره إلى الشرع بالصالحية، فأرسل القاضي وراءه فحضر فدخل الصالحية فقال: مالكم؟! فقال القاضي: يدعون عليك أنك تختلي بالشباب وهذا حرام في الشرع، فقال: ما هو إلا هكذا وقبض على لحيته بأسنانه وصاح فيهم؛ فخرجوا صائحين، فلم يعرف لهم خبر بعد ذلك الوقت، ثم جاء الخبر أنهم أسروا وتنصروا في بلاد الإفرنج، فشفعوا فيهم فلم تقبل شفاعة أحد، ورماه أهل بيت متبول باللواط مع ولدهم، فقال: هتك الله ذراريهم، فمن ذلك اليوم صار أولادهم مخانيث!! وبناتهم زناة إلى يومنا هذا!![1].

وهذه الخلوة حرام، والحق ما ذهب إليه المنكرون على أمثال هؤلاء، وقد قاموا بالواجب عليهم من الغيرة على الشرع فجزاهم الله خيراً، وما يضيرهم بعد ذلك المكر الذي مارسه ضدهم هذا المنحرف بالاستعانة بجنوده من الجن، و تصوير النتيجة المذكورة مما تجاوز

(١) (ص:٤٩٩)، وفيه أن أحدهم رماه بالفاحشة فقال: سود الله نصف وجهك، فصار له خد أسود وكذلك ذريته إلى يومنا هذا! وانظر ترجمة المتبولي.

حد الغلو يراد منه الرهبة من الشيوخ وتركهم يعصون الله بهذه الخلوة المحرمة، ولكن ليس أحد فوق الشرع بحيث لا يعترض عليه، وإن ولغ هذا المتصوف في صحبة من لم يأذن له الشرع بصحبته، ولاذ بالكيد بحماة الدين، فقد باءوا بالأجر إن شاء الله، ولا يلتفت بعد ذلك إلى ضرر الصوفية؛ لأن العقيدة الراسخة التي غرسها نبينا في قلوب الصحابة تدفع بصاحبها إلى اعتقاد أن الأمر لله، فتأمل قوله لابن عباس ب : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1].

## بعض المشايخ يحسس على امرأة والآخر على مقعدة أمرد!

إن مما طفحت به طبقات الشعراني مما ينأى العاقل عن ذكره ما يتعلق بهذه القضية من المشاهد التي تزري بناقلها فضلاً عن الساكت عنها، فكيف بمن يعدها في باب المناقب، وهي مما يعف اللسان عنها؟! ولولا أننا في مناقشة هذه المشاهد المزرية لأعرضنا عنها، وضربنا الذكر عنها صفحاً، ولكن أبت النصيحة إلا أن نوردها كشاهد على الانحراف البين، فليلتمس القارئ لنا العذر في ذلك وهو أهل لذلك، وقد ورد في ترجمة ثلاثة من المتصوفة ما يلي:

- محمد الشويمي كان يدخل بيت الشيخ مدين يحسس بيده على النساء! فكن يشكون للشيخ فيقول: حصل لكم الخير فلا تشوشوا!![2].

ويا لها من زلة تبكي لها الفضائل ولا تكون إلا في بعض القصص البائسة ولا تليق

---

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

(٢) (ص:٥٣٠).

بمن يوصفون بأولياء الله الصالحين! ولا أدري أي خير يحصل بالمجاهرة بهذا الفساد؟!

ولنعد النظر من جديد في ملامح خطاب الشعراني الذي بدأ به الطبقات بقوله: (ولم أذكر من كلامهم إلا عيونه وجواهره دون ما شاركهم غيرهم فيه مما هو مسطور في كتب أئمة الشريعة! ومن فوائد تخصيص عيون كلامهم بالذكر تقريب الطريق على من صح له الاعتقاد فيهم! كل من طالع هذا الكتاب على وجه الاعتقاد، وسمع ما فيه فكأنه عاصر جميع الأولياء المذكورين فيه!)

- وعلي أبو خودة كان إذا رأى امرأة أو أمرد راوده عن نفسه! وحسس على مقعدته!! سواء كان ابن أمير أو ابن وزير! ولو كان بحضرة والده أو غيره! ولا يلتفت إلى الناس ولا عليه من أحد![1].

والمراودة هنا على الفواحش منكر فكيف تعرض في الطبقات من غير نكير؟! وهذه مفاسد أخلاقية يندى لها الجبين، وكيف يلتفت إلى أحد وقد ألقى بجلباب الحياء عنه وأصغى لمراودة الشيطان في ذلك؟!

وهذا المشهد بالغ في الفضاعة ما لا يمكن تخيله، وهو أشبه بوضعه في حكايات العشق منه في مناقب الصالحين، ثم كيف نفسر هذه المجاهرة بالمعاصي وعدم الاستتار، بل والإصرار على فعل ذلك بحضرة والد الأمرد أو المرأة؟! فأي عقول تجيز هذه الترهات؟! وهذا لا يصدر إلا من متهتك، ولكننا إذا تأملنا خوضهم في الحقائق التي تختفي وراءها وحدة الوجود لا نرى شيئاً يوازي الجراءة في تلك الأقوال التي تعرضت للاتحاد ولو كانت مراودة الأمرد

(١) (ص:٥٨٢).

والنساء وغير ذلك من كلام أرباب العته نسأل الله العافية والسلامة! وأي المعاصرين زعيم بالمحاجة في شأن هؤلاء؟! ولنحن أولى بالصدمة من الأول حين قال:

**يا ويح تاجة ما هذا الذي زعمت أشمها سبع أم مسها لمم**

- وأما محمد العدل فكان يحسس على بطن امرأة أجنبية لمرض كان بها، وقد أحسن صنعاً أبو بكر الحديدي حين صاح عليه وزجره عن فعله المشين هذا[1].

وهذا نبذ لأحكام الإسلام على حد تعبير أبي شامة في رده على هؤلاء في الباعث على إنكار البدع والحوادث، ونص كلامه: (لكن نبين من هذا القسم مما وقع فيه جماعة من جهال العوام النابذين لشريعة الإسلام، التاركين لأئمة الدين والفقهاء، وهو ما يفعله طوائف المنتمين إلى الفقر الذي حقيقته الافتقار من الإيمان من مؤاخاة لنساء الأجانب والخلوة بهن، واعتقادهم في مشايخ ضالين مضلين يأكلون في نهار رمضان من غير عذر، ويتركون الصلاة ويخامرون النجاسات غير مكترثين لذلك، فهم داخلون تحت قوله تعالى: ((أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله))[2].

وقد مرت قريباً أمثلة لمخامرتهم النجاسات، وسيأتي ما له علاقة بترك الفرائض.

## أمور مزرية وأحوال مخجلة!!

وهذا كلام ينبغي الحجر على من يسود به الكتب والأخذ على يده، فإن من الأدب الذي قيدنا به الشرع مراعاة الألفاظ، وعدم الإسفاف في النقل، ومراعاة شعور القارئ، واحترام عقله أيضاً، فما بال السياق هنا لا يراعي هذه الآداب، لا سيما وأن الشعراني قد

---

(١) (ص:٥٧٧).

(٢) (ص:٤٠).

أوضح أنه إنما يسوق لنا حكايات الشيوخ المقتدى بهم؟! فهل يتناسب دخولنا هذا العرض المأساوي في أزمة الأخلاق بصراحة متناهية مع من ملأوا الدفاتر ضجيجاً عن الأخلاق وتزكية النفوس بل وإماتتها أيضاً بالرياضات، وطاروا في الحديث عن الزهد في الحلال كل مطار؟! فلتمسك عزيزي القارئ فؤادك حتى لا يطير من هول الصاعقة النازلة، ولتصبر قليلاً على ما ينتج من غثيان بسبب هاتين القصتين، وليكن العزاء في ذكرهما ما نتوخاه من استبانة سبيل المنحرفين في سوق الأخلاق، وليس هو بفكر بائد صار من الحكايات الغابرة بل هنالك من يجادل عنه بكل وسيلة، والقصتان هما:

- قال يوسف الحريثي: كنت يوماً في دمياط فأراد علي أبو خودة السفر في مركب قد ازدحمت ولم يبق فيها مكان لأحد، فقالوا للريس: إن أخذت هذا غرقت المركب لأنه يفعل في العبيد الفاحشة! فأخرجه الريس من المركب، فلما أخرجوه قال: يا مركب! تسمري فلم يقدر أحد يسيرها بريح ولا بغيره، وطلع جميع من فيها ولم تسر[1].

لم يذكر لنا الشعراني الحد الشرعي في إتيان هذه الكبيرة وهي فاحشة اللواط التي لعن فاعلها، وعذب الله قوماً كانوا يقترفون هذه النجاسة، قال لوط × لقومه: * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ & [الأعراف:٨١]، وقال تعالى: * وَلُوطًا ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ & [الأنبياء:٧٤].

فالواجب: أن يكون المسلم قالياً لهذا العمل الذي حده كما بينه الصحابة القتل - ولو

(١) (ص:٥٨٣).

كان بكراً – سواء كان فاعلاً أو مفعولاً، وإليه ذهب الشافعي، واختلفوا في كيفية قتله فقيل: يقتل بالسيف ثم يحرق لعظم المعصية، وإليه ذهب أبو بكر ا بعدما أشار عليه علي ا ، وذهب عمر وعثمان ب أنه يلقى عليه حائط، وقال ابن عباس: ينظر أعلى بناء في القرية فيرمى منكساً، ثم يتبع بالحجارة[1].

فلماذا لم يناد الشعراني بإقامة الحد على هذا المتصوف وعبيده صيانة للشرع؟! وهذا واجب عليه، لا أن يستعرض لنا ما قاموا به من المشي على الماء، حيث زعم أنه ضرب بعكازه على مركب فلم يتزحزح، فنزل هو وعبيده يمشون على الماء إلى أن وصلوا إلى شربين والناس ينظرون! وهذا يلزم منا أن نعيد النظر أيضاً في الخوارق المنسوبة لبعضهم كالمشي على الماء فإنه لا يلزم منه الولاية، فأين إقامة الحدود يا هؤلاء؟

– وأما علي وحيش المجذوب فقد قال عنه: إنه إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة ويقول له: أمسك رأسها لي حتى أفعل فيها! فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه[2].

والواجب من شيخ البلد إن كان حقاً كذلك الاحتساب في هذا المنكر؛ لتعلو درجاته فيساعد على إقامة حد الله في هذا المجاهر، وقد وردت نصوص في السنة أخذ العلماء منها حكم إتيان البهيمة، فعن جابر ا أنه يقام عليه الحد، وعن علي بن أبي طالب ا إن كان محصناً رجم، قال الحسن البصري: هو بمنزلة الزاني، وذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي

(١) انظر نيل الأوطار للشوكاني: (٧/ ٢٨٧)، وقد حكى صاحب الشفاء إجماع الصحابة على القتل، وعن مالك وأحمد أنه يرجم.

(٢) (ص:٦٠٦).

أنه يوجب التعزير فقط إذ ليس بزنا[١].

ومقام شيخ البلد في هذا المشهد لا يحسد عليه، ويدل على تمكن هؤلاء المتصوفة على مسخ عقول الناس وفطرتهم، وعكس حمارة وحيش هذا تأتي حمارة عبد القادر السبكي حيث يجعل لها ولأولادها براقع على وجوهها! ويقول: إنما أفعل ذلك خوفاً من العين[٢]!

ولا شك أن من فعل الفواحش لا يقربن حمى الصالحين، وما كنا نتصور أن يعبث الشيطان بقوم إلى هذه الغاية ما لعب بهؤلاء الدراويش، وفي هذا كفاية تغني عن التعليق، فإنما يعلق المرء على ما كان خفيفاً في نجاسته لما دون القلتين، أما مثل هذه فإنها تلوث البحار إذا اختلطت بها، وقد جاوزت قنطرة التعليق فإلى الله المشتكى، وقد آثرت ذلك المسلك لما فيها من إسفاف بالغ، كما أنني استحييت من ذكر أمور أخرى، ونحن لا نعلم البدع التي كثرت في عصر الشعراني، وذكر أن سبب تأليفه الكتاب لكي لا تختلط بأحوال من يترجم لهم، ولكننا وقفنا على هذه الأفعال وأقوال الوحدة فهل هناك ما يفوقها انحرافاً؟!

وهل يصح بعد ذلك قوله: (وكذلك لا أذكر من أحوالهم في بداياتهم إلا ما كان منشطًا للمريدين؛ كشدة الجوع والشهر و محبة الخمول وعدم الشهرة ونحو ذلك، أو كان يدل على تعظيم الشريعة دفعًا لمن يتوهم في القوم أنهم رفضوا شيئا من الشريعة حين تصوفوا؛ كما صرح به ابن الجوزي في الغزالي بل في حق الجنيد والشبلي، فقال في حقهم: ولعمري لقد طوى هؤلاء بساط الشريعة طيًا فيا ليتهم لم يتصوفوا)[٣].

---

(١) نيل الأوطار: (٧/ ٢٩٠).

(٢) (ص:٦٦٤)، وهناك حمارة ثالثة زعموا أن الشبلي وجدها في خرابة فخشي أن يراودها فخرج!! (ص:٥٢٤).

(٣) (ص:٦).

وأكاد أجزم هنا بعدم رضى كثير من المنتسبين للتصوف بهذه المخزيات التي يوردها الشعراني في هذا المقام وغيرها أيضاً، ولكن ندعوهم إلى الشجاعة في إسقاط التسليم للشيوخ ورميه بكل وضوح، وأن يتبرؤوا ممن يتلبس بذلك ولا يكتفوا بالتواري منها، فإنهم إذا ما فعلوا ذلك فإنه خطوة للنظر في غيرها، وقول الحق مرّ لكن عاقبته أشهى من العسل، ولا يصح أن يقال لكل من دافع عن الحق وأبان حال هؤلاء بأنه لا يعرف قدر الأولياء، فهو محروم، وعن طريقهم مطرود، فإني أعظهم بالقيام لله مثنى وفرادى، ثم يتفكرون في هذه المفاهيم والسلوكيات ليتبين لهم الحق وبالله التوفيق.

**خبر الوارد:**

ومن العجائب خبر الشيخ زون الذي وصف بأنه كان يصعق في حب الله تعالى! فتضع الحوامل ما في بطنها! فحول الله تعالى ذلك إلى حب امرأة من البغايا، فجاء إلى الصوفية ورمى لهم الخرقة وقال: لا أحب أن أكذب في الطريق، إن واردي تحول إلى حب فلانة، ثم صار يحمل لها العود ويركبها، ويمشي في خدمتها إلى أن تحول الوارد إلى محبة الحق بعد عشرة شهور! فجاء إلى الصوفية فقال: ألبسوني فإن واردي رجع عن محبة فلانة، فبلغها ذلك فتابت ولزمت خدمته إلى أن مات!!

ولا ندري ممَّ يستقي هؤلاء الدراويش أفعالهم هذه؟! ومن أي مصدر يستمدون هذه الواردات التي توردهم موارد الضلال حتى يركن أحدهم إلى عشق النساء والسعي في خدمتهن من شدة الولع بهن بحجة تحول الوارد، فما الوارد هذا الذي اطلعوا عليه دون الصحابة؟ * هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ & [الأنعام:١٤٨] أمّا نحن فماؤنا معين الكتاب والسنة الذي يروي الغليل نسأل الله تعالى الاستمساك بهما والدفاع عنهما.

**سابعا: السماع:**

والسماع أيضاً من المواضع التي تنشأ منها الخوارق الكاسدة والبعيدة عن كرامات الصالحين، وتأمل إقرار النبي ﷺ لصاحبه أبي بكر حين نعت الدف الذي ضربت به الجاريتان في يوم عيد عند عائشة ل بأنه من مزامير الشيطان[١]، تجد سريان العموم في غيره من المعازف ومنها ما يستخدم في السماع، وإنما أبيح الدف في حالين هما: يوم العيد تضرب به الجواري، وللنساء يدففن به في الأعراس، ومن أثبت غيرهما فليبرز الدليل، ولا يفرح بنذر المرأة بالدف على رأسه عليه الصلاة والسلام حين قدم من بعض غزواته، وهو حديث بريدة أن امرأة قالت: (يا رسول الله! إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف، فقال: أوفي بنذرك)[٢]، زاد أن ذلك وقت خروجه في غزوة، فنذرت: إن رده الله سالماً[٣]، وفي رواية لأحمد: (إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا) [٤]، وفي آخر الحديث أن عمر ا دخل فتركت؛ فقال النبي ﷺ: (إن الشيطان ليخاف منك يا عمر) [٥]، وإنما نذرت لما حصل السرور بقدومه، وأغاظ المنافقين بذلك، كان من القرب، قال البيهقي: يشبه أن يكون أذن لها في ذلك لما فيه من إظهار الفرح بالسلامة[٦].

والسماع عند الصوفية يزيد تهييج نفوسهم فتلطف، ويطرقون عنده ما لم يطرقوا عند

---

(١) رواه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٣٣١٢).

(٣) رواه ابن حبان (١١٩٣).

(٤) رواه أحمد (٢٣٠٦١).

(٥) رواه الترمذي (٣٦٩٠)، وقال الألباني: إسناده على شرط مسلم. انظر: إرواء الغليل (٨/ ٢١٥).

(٦) سنن البيهقي الكبرى (١٠/ ٧٧)(١٩٨٨٩).

كتاب الله، قال ابن القيم:

**تـلي الكتـاب فـأطرقوا لا خيفـة لكنـــه إطـــراق ســـاه لاه**

**وأتـى الغنـاء فكالـذباب تطـايروا والله مـــا رقـــصوا لأجـــل الله**

**دف ومزمـــار ونغمـــة شـــاد فمتـى شـهدت عبـادة بملاهـي**

قال الشافعي: خلفت بالعراق شيئاً أحدثه الزنادقة يسمى التغبير، ويشغلون به الناس عن القرآن. وقد كان أصحاب الشافعي ينكرون السماع، هذا قول العلماء فيه وكراهيتهم له مع تجريده عن غيره من المحرمات من حضور النساء والمردان، والدفوف والشبابات وغير ذلك من أنواع المنكرات، فينبغي للعاقل أن ينصح نفسه وإخوانه، ويحذرهم من مكائد الشيطان[1].

فالرقص إذن وسماع مزامير الشيطان لم تكن عند السلف من المباحات فضلاً عن أن تكون طاعة تثمر الولاية، و من كانت خوارقه منبعثة من سماعها فقد أبان لنا عن حاله، وأوضح شيخ الإسلام أن ليست هذه الكرامات التي تحصل عند الغناء، وتقوى أحواله عند سماع مزامير الشيطان، فيرقص ليلاً طويلاً وتوجد مواجيده عندها، وقال: (ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار)[2].

وقد نقل الشعراني عن تقي الدين السبكي أنه قال حضرت سماعاً فيه الشيخ رسلان فأنشد القوال شيئاً؛ فكان الشيخ رسلان يثب في الهواء ويدور فيه دورات ثم ينزل إلى الأرض

---

(١) نقله السيوطي في كتابه زاد: (ومن البدع المحدثة المستقبحة في الأفعال ما أحدث من السماع والرقص والوجد، وفاعل ذلك ساقط المروءة، مردود الشهادة، عاص لله ورسوله، وهو محظور).

(٢) الفرقان (ص:٢٠١-٢٢٢).

يسيراً يسيراً يفعل ذلك مراراً والحاضرون يشاهدون، فلما استقر على الأرض أسند ظهره إلى شجرة تين في تلك الدار قد يبست وقطعت الحمل مدة سنين؛ فأورقت واخضرت وأينعت وحمل التين تلك السنة[1].

وليس العتب على الصوفية في مثل هذه الحركات، ولكن المعتب عليه مجاراة بعض الفقهاء لهم، وقد فعل السبكي ذلك فماذا سيخسر لو قام بتأديب من فعل مثل ذلك؟!

والسماع أيضاً مظنة لقول الشطح؛ لأنه عندهم مما يثمر سني الأحوال، وهو دليل على حضور الجن، و لما وشوا بذي النون المصري إلى بعض الخلفاء وادعوا أنه زنديق قال له الخليفة: ما هذا الكلام الذي يقال فيك؟ فقال: ما هو؟ فقال: قالوا إنك تقول كما يقول الحلاج، فقال: لا أعرف ذلك إلا عند السماع، فأرسل خلف قوال ينشد شيئاً حتى أريكم، فأنشد بين يديه فانتفخ ذو النون حتى بقي كالفيل وقطرت منه كل شعرة الدم[2].

ولابن حجر العسقلاني في فتح الباري تعليق لطيف على قولهم أنه يثمر سني الأحوال فقال: ينبغي أن تكون سيء بالياء التحتانية[3]

وقد أجاد في ذلك كما أجاد غيره في قوله:

**هل لهم يا قوم في بدعتهم ... من إمام أو فقيه يتبع**

**مثل سفيان أخي ثور الذي ... علم الناس دقيقات الورع**

**أو سليمان أخي تيم الذي ... ترك النوم لهول المطلع**

---

(١) (ص:١٤٢).

(٢) (ص:٢١٤-١٢٣).

(٣) فتح الباري (٢/ ٤٤٢).

والمصيبة حين يكون التأثر في السماع أشد من القرآن، وقد علل ذلك يوسف الهمداني حين قيل له: إن هؤلاء الصوفية لا يطربون من سماع القرآن، فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والغناء فيطربون؟! فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين، ويرى أبو العباس الآدمي وقيل له: ما بال الإنسان يتواجد عند سماع الأشعار ولا يتواجد عند سماع القرآن؟ فقال: لأن سماع القرآن صدعة لا يمكن أحداً أن يتحرك فيها لشدة غلبتها، والأشعار ترويح للنفس فتتحرك فيه![1]

والأسى يأخذ من يتابع ما سود به الغزالي الإحياء في هذا الباب، وتقريره أن السماع أشد تهييجاً للوجد من القرآن قال من سبعة أوجه، وفي هذه السبعة ما يتفق مع ما ذكر هنا، وأتى بتعليلات عليلة[2].

وشتان بين الذين يعكفون على القرآن تلاوةٍ وتدبراً وعملاً، ويخرون للأذقان سجداً يبكون من سماع القرآن الذي قال فيه تعالى: * وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ & [الرعد:٣١] وبين سماع الدفوف والمزامير!

**ثامنا وتاسعا وعاشرا: الرياضة والفناء والأماكن المهجورة:**

مما لا يستقيم أن يكون موافقاً لكرامات الأولياء: أن تكون نشأتها من الرياضة التي اقتبسوها من سلوك الفلاسفة في تصفية النفس لتستعد للإشراق كما يعبرون؛ لأنها ربما كانت

---

(١) (ص:١٢٣-٢٦٨-٢٧٣).

(٢) الإحياء: (٢/ ٢٩٨)، وزاد في الأربعين (ص:٤٦)بأن صرح بأن القرآن أفضل للخلق جميعهم إلا الذاهب إلى الله ﷻ، وجعل مداومة الذكر أولى لمن استولى الذكر على قلبه، قال: بأن القرآن يجذب خاطره ويسرح به في الجنة، والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها، بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً وذكره ذكراً واحداً حتى يدرك الفناء والاستغراق به...

سبيلا لاستخدام الجن والسيطرة على الناس من خلالها، كما قال الشعراني نفسه في الطبقات: (ولذلك استعمل النصابون الرياضات لاستخدام الجان ليخبروهم بالمغيبات حين عدموا الصدق في الزهد في الدنيا فأخطأوا ومقتوا نسأل الله السلامة)[١].

ومن هنا ندرك وجوباً عرض هذه الخوارق وأصحابها على الكتاب والسنة، فما وافق الحق قبلناه، وما خالف الشرع رفضناه، ومهما بلغ المرء من الخوارق فلا يسلم له حتى يوزن بميزان الشرع الذي يحكم بين الناس، والحكايات التي تنبعث من الرياضات الفلسفية يطول حصرها وسيأتي الحديث عنها في أركان الرياضة.

وأما الفناء والسكر فإنه مزلة قدم، ولا يزال الرجل يستكثر منه حتى تنسب له الأمور المهولة، والأحوال المثيرة التي يتبجح فيها بمخالفة الشريعة، وقد انتهى أمر أحد أصحاب حسين أبي علي - ويسمى عبيداً - إلى أن ثقب لسانه لكثرة ما كان ينطق به من الكلمات التي لا تأويل لها، قال الشعراني: وأخبرني بعض الثقات أنه كان مع الشيخ عبيد في مركب، فوحلت فلم يستطع أحد أن يزحزحها، فقال الشيخ عبيد: اربطوها في بيضي بحبل وأنا أنزل أسحبها! ففعلوا، فسحبها ببيضه - خصيتيه - حتى تخلصت من الوحل إلى البحر![٢]

ونقول: ألم يجد هذا الدرويش غير هذا التعبير المسف؟! أما كان الأولى به استعراض أحواله بصورة أليق منها بذكر المستقبح؟! ولكنه ليس الملوم في ذلك، بل الملوم هو من أصغى إلى تلبيسه، وعرضه للأجيال يقتبسون منه، وانظر إلى هؤلاء الذين خيل لهم من سحره أن المركب يسحب بما يسوء ذكره من الخوارق الجنية، وقد سئل الجيلاني عن صفات الموارد

---

(١) (ص:٢١٥).

(٢) (ص:٥٠٣).

الإلهية والطوارق الشيطانية؟ فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت مخصوص، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالباً![1].

فتأمل هذه الاحترازات في الوارد الصحيح عند الجيلاني تجد هذا الدرويش قد باء بنقيضها، ولا عجب في أفعاله الغريبة فإن أقواله الشنيعة قد أدت إلى أن ثقبوا لسانه صيانة للشرع، وكان الواجب أن ينأى الفكر الصوفي عنها فضلاً عن أن تنسب إلى الكرامات!

وقد تعد الأماكن المهجورة والخرائب مأوى للجن أيضاً، فإذا ما خرجت لنا الخوارق من جدرانها وكانت في معزل عن الكتاب والسنة فلا يبعد أن تكون من فعلهم، قال شيخ الإسلام: (ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ورسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال.. يسمونهم رجال الغيب وإنما هناك رجال الجن)[2]

وقد ورد في الطبقات ما ينسب إلى عبد القادر الجيلاني - وسيرته تأبى ذلك - قوله: أقمت في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً، لا أعرف الخلق ولا يعرفوني، يأتيني طوائف من رجال الغيب أعلمهم الطريق إلى الله ﷻ[3].

ومن الأحوال العجيبة لهذه الأماكن ما وصف به سلمان الحانوتي الذي مكث نحواً من سبعة وثلاثين سنة لا يضع جنبه على الأرض، وكان أكثر إقامته في المساجد المهجورة والبساتين الخراب ليلاً ونهاراً، وكانت ثيابه تارة رثة وتارة كثياب القضاة التجار، ولونه تارة

---

(١) (ص:٢٠٨).

(٢) الفرقان (ص:٢١٣).

(٣) (ص:٢٢٠).

تجده أحمر كالقرمزي وتارة أصفر متحولاً، وتارة تجده أسمن ما يكون، وتارة تجده أهزل ما يكون[1].

هكذا تنشأ إذاً الخوارق التي تنسب للولاية من الأماكن المهجورة، وهي سافرة عن وجه التعامل مع الجن فيها، خلافاً لكرامات الصالحين التي منشؤها هو الطاعة كما هو الحال عند السلف الصالح الذين مشوا على درب الاستقامة، وخدموا الدين علماً وعبادة ودعوة وجهاداً كما جاء وصفهم في القرآن: * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ & [الفتح:٢٩].

ويمكن إجمال ما ورد في هذا الفصل في أمور:

١- الكرامة الشرعية ثابتة بالنصوص المتواردة في ذلك.

٢- الكرامة الصحيحة هي التي يكون صاحبها على العقيدة الصحيحة والعبادة والاستقامة.

٣- الخوارق تنبعث من الاستعانة بالجن والشياطين، والرياضة التي تقوم على الجوع والسهر، ولذا فإن أماكن انبعاثها من ملابسة نجاسة، أو صحبة كلاب، أو خلوة مريبة، أو صحبة لنساء أجانب، أو سماع ومزامير، أو فناء وغير ذلك مما سبق ذكره.

وبذلك ننتهي من هذا المبحث ونغادره إلى أسرار الصوفية وفتح ملفات الشطحات كما ورد في الطبقات.

---

(١) (ص:٦٧٠).

# المبحث الثاني
# أسرار الصوفية وكشف ملفات الشطحات

لقد أرسل الله رسوله عليه الصلاة والسلام بالهدى ودين الحق، وأنزل معه الكتاب تفصيلاً لكل شيء، قال تعالى: * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلاً & [الأنعام:١١٤] وقال تعالى: * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ & [فصلت:٣]، وقال تعالى: * وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ & [القمر:١٧]، ولقد بين نبيه عليه الصلاة والسلام الدين أتم بيان، وبلغه للناس، كما قال تعالى: * وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ & [النحل:٤٤]، فلم يمت عليه الصلاة والسلام حتى كمل الدين، وترك الصحابة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، قال أبو ذر كما في المسند: (لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يتقلب في السماء طائر إلا ذكرنا منه علماً)[1].

ولا ريب أن من أعظم الأبواب التي علمهم إياها ما يتعلق بمعرفة الله ﷻ، إذ هو أوجب الواجبات على العبد، وحفظ الصحابة ذلك العلم، قال عمر ا : (قام فينا النبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه)[2].

ولا بد أن يوافق ما أورده الصوفية من الحقائق في طبقاتهم، وما ساقوه من العلوم في

---

(١) رواه أحمد (٢١٤٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٣).

(٢) رواه البخاري (٣١٩٢) واللفظ له، ومسلم (٢٨٩١).

كلامهم، وكذا الخوارق التي نسبوها لأوليائهم ما جاء به رسول الله، إذ لا يسع أحداً الخروج عن الكتاب والسنة ألبتة، وكل التصرفات يجب أن تظل تحت ولايتهما، ولذا فالذي يسوّغ وجود العلوم المضادة لشرع الله فهو يقول بأحد ثلاثة أمور:

- إما أن الأولياء لا يحتاجون في معرفتها إلى النصوص، وأنه وسعهم الأخذ من غيرها.

- وإما أنهم محتاجون للنصوص في علم الظاهر دون الباطن، أو في الشريعة دون الحقيقة، وتذكر هنا غالباً قصة الخضر وموسى عليهما.

- وإما أن ما أرسل به النبي ﷺ من النصوص لم يبثها كلها، فهم حازوا المسكوت عنه، وبعضهم يجاري الباطنية في استدلالهم بحديث أبي هريرة في الجرابين اللذين بث أحدهما وامتنع عن بث الآخر[1].

وكل هذه الاحتمالات الثلاثة ظلمات متراكمة، وبعضها خروج عن الشرع، وليس هناك ثمة سر مخفي عن المكلفين، ومع هذا التقرير الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار يجد المتأمل للفكر الصوفي - لا سيما قسم الحقائق - أن الصوفية قد زعموا أنهم أحكموا شراعهم نحو اللجج المتلاطمة، وغاصوا الأعماق حتى ظفروا بما أطلقوا عليه الأسرار المنوطة بالكتمان وعدم إفشائها لغير أهلها؛ لأن من شأن الأسرار كذلك، والخطر كل الخطر في البوح بها، ولذلك حين يضطر الواصل إلى هذه المرحلة لإذاعة السر فإن سيوف حماة الشرع

---

(١) رواه البخاري (١٢٠)، وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري(١/ ٢١٧) في شرح حديث أبي هريرة عن ابن المنير قوله: (جعل الباطنية هذا الدليل ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين).

تجرد لعنقه، ويقف من يسمونهم القاصرين له بالمرصاد، وتبدو الإشكالية في الخوف من الفقهاء المنكرين وعدم ضمها بين الجوانح لغلبة الشوق والمحبة،، فيفضي به السكر إلى أن يتهتك، وهذا الذي نظمه ابن عربي شعراً في فتوحه بقوله:

**وغص في بحر ذات الذات تنظر ... معاني ما تبدت للعيان**
**وأسراري قراءة مبهمات ... مسكرة بأرواح المعاني**
**فمن فهم الإشارة فليصنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان**
**كحلاج المحبة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتداني**
**وقال أنا هو الحق الذي لا ... يغير ذاته مر الزمان**

يقول إن هذه العلوم التي ظفر بها بعد ما غاص في بحر الفناء واكتشف السر لا تباح، ولا بد أن تصان فلا تذاع، وإلا فليتحمل مذيعها التلف، وهنا يتضح أن الغلبة مجرد حجة يظهرها من خاف القتل، والذي يثير الحيرة أيضاً أنه حذا بكلام الغزالي حذو القذة بالقذة، فالغزالي قد سبقه فتحدث عن صاحب المرتبة الرابعة في التوحيد من كتاب الإحياء، فقال بأنه موحد بمعنى: أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد... فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر! ثم أشار إلى الحلاج حين رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: فيم أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، فقال الحلاج: قد أفنيت عمرك في

عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد[١]؟!

قلت: والحلاج هذا إنما قتل بزندقته بحكم مجلس القضاء في زمن المقتدر، وقد قال: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد، ووصل إلى التصريح بقوله:

**كفرت بدين الله والكفر واجب علي وعند المسلمين قبيح**

وقد أوضح أن صاحبه في ذلك وأستاذه إبليس وفرعون[٢].

وهنا يمكن أن نلخص ما ذكر آنفاً في أمور هي:

- إن هناك سراً اكتشفه الصوفية بواسطة اقتحامهم البحار، ومغامرتهم في خوض التيار.

- إن هذا السر ظاهره كفر- وهو ما نقله الغزالي عن العارفين - فلا ينبغي إفشاؤه وإلا لما سمي سراً، فالواجب صيانته عن الأغيار.

---

(١) الإحياء: (٤/ ٢٤٥-٢٤٦)، وقد أضاف: إن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد، إذ نقول: إنه إنسان واحد.. فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبار آخر سواه كثير.. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر وذكر خبر الحلاج مع الخواص الذي نقلناه آنفاً.

(٢) انظر ترجمته سير أعلام النبلاء: (١٤/ ١٣١)، البداية والنهاية: (١١/ ١٤١).

وانظر كتابه الطواسين (ص:٥٠)وفيه قوله: (تناظرت مع إبليس وفرعون فقال إبليس: إن سجدت سقط عني اسم الفتوة، وقال فرعون: إن آمنت برسوله سقطت مني الفتوة، وقلت أنا: إن رجعت عن قولي ودعواي سقطت من بساط الفتوة...).

– قد يستثنى من الخروج عن حفظ السر من كان معذوراً بغلبة، وهو حال كثير منهم، أو كان مأذوناً له، وهو قليل، أو كان متحدثاً بالنعمة، وهذا أقل، ومع هذا العذر فإن عليه أن يتحمل تبعات كشفه هذه الأسرار.

ودون الوصول إلى السر عقبات مهلكة، ورياح عاتية وأهوال، فلا يجتاز ذلك كله إلا ذو مؤهلات محددة وصفها أهل تصوف الحقائق، وفاضوا في بيانها في باب الرياضة، فكانت من علوم الفيض أو العلم اللدني، كما صرح إبراهيم الدسوقي في وصيته لأتباعه بقوله: عليكم بتصديق القوم فيما يدعون؛ فقد أفلح المصدقون، وخاب المستهزئون، فإن الله تعالى يقذف عليكم في سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا بدل ولا صديق ولا ولي[(١)].

ولا شك أن هذا يخالف تماماً التحاكم للكتاب والسنة، ويفتح باباً واسعاً لهؤلاء الباطنية في مصادمة الشرع جاروا فيه على الإسماعيلي في قوله عن علم الباطن: (صعب مستصعب، وسر مستتر مقنع بالأسرار، مبطن بالرموز، لم يحمله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان)[(٢)].

وأما أبو المواهب الشاذلي فيتنزل درجة عن الدسوقي فيرى بأن أولياء الله يطلعون على أمور لم يطلع عليها العلماء، فلا يسع الخائف على دينه إلا الأدب والتسليم[(٣)].

هذه هي قصة الأسرار التي ضن بها غلاة المتصوفة الذين مضوا إلى الفناء الذي يحقق

---

(١) (ص:٢٩٣).

(٢) أربع رسائل إسماعيلية عارف تامر (ص:٣٤).

(٣) (ص:٤٨٤).

الوحدة والاتحاد، ولا شك أن دونه فناء يقل عنه خطورة وحكماً وهو الفناء عن الشهود، والآن نريد من خلال هذه التوطئة أن نقترب من هذا السر، ونقترب من هؤلاء المغامرين، ونذكر طرفاً من خوفهم على الفضيحة الكامنة وراء إظهاره وفق القراءة في الطبقات على النحو التالي:

**سر الربوبية:**

يبدو للوهلة الأولى أن السر عظيم المرام، خطير العاقبة، وهو كذلكم؛ لأن الفلتات التي يسقطها بعض الشيوخ سنلتقطها من باب: (لكل ساقطة في الحي لاقطة)، ثم نجمعها في سياق واحد ونركمها بعضها فوق بعض لتوضح لنا النتيجة، فالسر أبانه بعضهم، ويكمن في الوصول إلى الفناء والوحدة والتخلق بصفات الربوبية، وممن أبانه أبو المواهب الشاذلي حين قال في معنى قولهم: (إن للربوبية سراً لو ظهر لعطل نور الشريعة) قال: المراد به الفناء وإعطاء سر التكوين، وأن العبد يفعل ما يشاء، يعني: لو أعطي العبد ذلك لتعطلت أفعال الشريعة كلها!![1]

وهذا تصريح خطير حيث يصل العبد إلى هذه الدرجة، فالفناء المقصود ليس بوجهه العام، بل هو المخصوص بما يثمره من خصائص الربوبية، ويقترب علي محمد وفا من البيان أكثر فيصرح بقوله: السر ما لا يشهده إلا واحده، فمن شهدت سره فاعلم أنك أنت هو، من حيث حصل لك هذا الشهود![2]

وهكذا إذاً تبدو الحقيقة لامعة في شروقها لا تخفى إلا على أكمه، وماذا نريد بعد هذا

---

(١) (ص:٤٧١).

(٢) (ص:٤٣٧).

الوضوح الذي لا لبس فيه من القول بالوحدة، والخلط بين مناط الربوبية ومقام العبودية؟!

قال تعالى: * قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ & [الأنعام:١٤] * قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ & [الأنعام:١٧].

وهذا إبراهيم الدسوقي يقرر أن فيض الربوبية إذا فاض أغنى عن الاجتهاد؛ فإن صاحب الجهد قاصراً ما لم يقرأ في لوح المعاني سر عطاء القادر، فقد يعطي الولي من يكون قاصراً ما لم يعط أصحاب المحابر، وليس مطلوب القوم إلا هو! وهو القائل أيضاً: من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة بقي هو بلا هو[(١)].

ويقول أبو الحسن الشاذلي في أمر هذا السر وحال صاحبه: فإذا أمده الله بنور سر الروح وجد نفسه جالساً على باب ميدان السر، فرفع همته ليعرف هذا الموجود الذي هو السر، فعمي عن إدراكه؛ فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشيء![(٢)]

والحقيقة أن هذه خيالات فاسدة لا طائل وراءها، وصدق الذهبي حين قال في مثلها: (والله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر، لا يعرف عن العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله واليوم الآخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق،

---

(١) (ص:٢٩٤).

(٢) (ص:٣٧٦).

ولو قرأ مائة كتاب، أو عمل مائة خلوة)[1].

كما أجاد الشاعر القائل:

**هل قال هذا رسول الله ويحكم أو قال ذلك من أصحابه أحد**

**أم غاب عنهم دقيق العلم دونكم أم اكتساب حلال الربح قد زهدوا**

وهذا السر المزعوم هو الأصل الذي تفرع عنه القول بامتلاك صفات الربوبية كما سيأتي، وهو أعظم المصائب التي مني بها التصوف، ولم يكن الشرك عندهم في الربوبية أن يعتقد أحدهم أن ثمة خالق مع الله، بل زعموا أن الرياضة الفلسفية توصلهم أن يتخلقوا بصفات الله ﷻ في دائرة الفناء والوحدة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً! كما ترتب عليه صرف العبادة لهؤلاء المدعوين مما جاء الإسلام بتطهير الأمة منه، ومن أعظم الجهل أن يكون القلب خالياً من تعظيم الله وتوقيره حق قدره، قال تعالى: * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ [نوح:١٣] * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ [نوح:١٤].

## الوصية بكتمانه وصيانته

ونظراً لخطورة هذا المقام فقد تواصى أصحاب الحقائق بالكتمان، وحذروا من التهاون في ذلك أشد التحذير، وقد احتاج بعضهم حين يخوض في هذا النوع من الكلام أن يختار له قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحه تحت وركه، بل ربما صانوا سرهم عن أقرب المريدين فضلاً عن المحبين وأبعد ما يكون عن القاصرين، وأما المعترضون فلا بد أن تضرب بينه وبينهم أسوار وحجب غليظة، فإبراهيم الدسوقي الذي اعتنى بمريديه عناية فائقة

(١) انظر لسان الميزان: (٥/ ٣١٢).

يصرح أنه لم يجد أحداً منهم يصلح لحمل الأسرار[1].

وهنا نقف على حديث يبين المراد أقصى ما يكون، هو حوار دار بين عمر القرشي وأصحابه الذين بلغ عددهم ستمائة:

**الأصحاب**: لم لا تحدثنا بشيء من علم الحقائق؟!

**القرشي**: كم أصحابي اليوم؟

**الأصحاب**: ستمائة رجلاً.

القرشي: استخلصوا منهم مائة، ثم استخلصوا من المائة عشرين، ثم استخلصوا من العشرين أربعة، ثم قال: لو تكلمت بكلمة من الحقائق على رؤوس الأشهاد لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة.

فانظر أيها القارئ إلى خطورة الأسرار التي حكمها الكفر عند أصحابه المقربين الذين يتبعونه فلا يقوون على سماعها، ويعتذرون له دائماً، فكيف لو دراها الآخرون؟!

وتشبه الأسرار بالعورة عند أبي المواهب، والعورة حرم كشفها والنظر إليها والتحدث بها، فيوصي المريد بعد صحبة القوم أن لا يفشي شيئاً منها، ويترتب على المخالفة عنده مقت الله وغضبه، ولذا من كشف عورته لنا فليتحمل عقوبة ذلك، أو بتعبير داود بن ما خلّا: من أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبداؤه، وأفشى من العلم المكنون ما لا يناسب إفشاؤه

---

(١) (ص:٢٥٦)، وجاء أيضاً أن الجنيد لا يتكلم في علم التوحيد إلا في قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحه تحت وركه، ويقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله وخاصته ويرمونهم بالزندقة والكفر؟ (ص:٢٠) ونسبوا إليه: أنه لا يبلغ أحد درجة الصديق حتى يشهد ألف صديق أنه زنديق!!

عوقب بسوء الظن فيه، أو بما هو فوق ذلك من العقوبات، وهو الذي نقل عنه قوله: لو زال منك أنا للاح لك من أنا![1]

ولا شك أن العقيدة الواضحة الصافية التي تفهمها الجارية التي ترعى الغنم تختلف عن علوم القوم ومعارفهم التي تصل إلى الزندقة، كما قال أبو إسحاق القرميسين في اختصار هذه القضية الشائكة وتقريبها بوصف دقيق يفيد المعنى بقوله: إن علم البقاء والفناء يدور على الإخلاص للوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غيرهما فهو من المغاليط والزندقة[2].

وما لنا ولتلك المصطلحات الغريبة التي إذا تأملها العارف - عند ابن القيم في المدارج - وجدها كلحم جملٍ غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فينُتقل، فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب، ومعنى أغرب من اللفظ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طحناً. اهـ.

**طي بساط البشرية عن الأولياء:**

وبعد ما تقرر اكتشاف السر، وأنه الفناء في أغلظ صوره، وامتلاك الأولياء له ووصولهم إليه، فيرون أنهم بعد أن نالته أيديهم قد تخلصوا من الصفات البشرية، ولم يعودوا من البشر في شيء، ففارقوا أصلهم إلى الصفات الإلهية عياذاً بالله! وهذا الحديث المفترى ليس بأمرٍ خفيٍ شديد الغموض لا يلحظه المرء ويدركه العنت في رؤيته، بل هي مسألة بادية للعيان، وعلى العكس: فإن من لا يفقه هذه الحقيقة عندهم هو الملوم، وهو الظالم الذي يرى الأولياء بصورتهم البشرية، ولم يتخلص بعد من حجابه فيراعي حقهم المعلوم، فيلحقه التثريب لتفريطه فتعال لتر وتسمع الخبر:

---

(١) (ص:٣٢٨).

(٢) (ص:١٩٥).

**يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا**

صرح الشعراني في مقدمة الطبقات بوجود هذه القضية الحساسة - أعني بها: عدم معرفة الولي حق معرفته - ونعى على الناس التهاون في معرفتها، حيث يقصرون في حق من تخلص من صفات البشرية، فقال: والذي أوقعهم في هذا الظلم إنما هو النظر لكونه يأكل مما يأكلون منه، ولو أبعدوا النظر لطووا عنه بساط البشرية، ولذا حذر بعضهم من الأكل بصحبة الأولياء وكثرة مخالطتهم، وأضاف: (ومن أشد حجاب عن معرفة أولياء الله ﷻ شهود المماثلة والمشاكلة! وهو حجاب عظيم، وقد حجب الله به أكثر الأولين والآخرين كما قال تعالى حاكياً عن قوم: * وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ & [الفرقان:٧] * مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ & [المؤمنون:٣٣]، يعني: لم نر أحداً يوافقه على ما يدعيه، ويأمرنا به ونحو ذلك، ولكن إذا أراد الله ﷻ أن يعرف عبداً من عبيده بولي من أوليائه ليأخذ عنه الأدب، ويقتدي به في الأخلاق طوى عنه شهود بشريته، وأشهده وجه الخصوصية فيه! فيعتقده بلا شك، ويحبه أشد المحبة، وأكثر الناس الذين يصحبون الأولياء لا يشهدون منهم إلا وجه البشرية! فلذلك قل نفعهم وعاشوا عمرهم كله معهم ولم ينتفعوا منهم بشيء!)[1].

وهذا كلام يقضي بتعظيم المخلوق في قلوب الأتباع، وينبني عليه صرف العبادة من محبةٍ ودعاءٍ لغير الله، وهو الشرك الصراح، قال تعالى: * قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا & [الأنعام:١٦٤].

وقد حذر عليه الصلاة والسلام أمته أن تقع في الشرك بالغلو في الصالحين فقال في

(١) (ص:١٧).

مرضه الذي توفي فيه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [1] يحذر ما صنعوا كما ورد عن عائشة ا عند البخاري، وما زال الغلو في عيسى × حتى عبدوه من دون الله، ولم تكن الأصنام التي تعبد من دون الله – وهي: ود وسواع وغيرها – إلا أسماء صالحين خرجوا بمحبتهم إلى دائرة الإشراك، فما بال هؤلاء المتصوفة يدعون أتباعهم إلى تعظيمهم، ومعرفة أحوالهم التي قرروها كما يلي:

– إن عدم معرفة الولي ظلم في حقه.

– إن مما يقود إلى عدم إعطائه ما يستحق: هو اعتقاد أنه يشبه الناس؛ كونه يأكل مثلهم.

– التوفيق عنده: أن ينظر المرء إلى الولي لا أنه بشر ولكن بما اختص به.

– النتيجة في النظر إلى الولي بما سبق الانتفاع به.

وبهذا التفسير السابق نقدم عزاءنا لمن غره الزهد فظنه من التصوف، وعليه أن يتجرع السم الناقع في تعظيم الأولياء إلى طي بساط البشرية عنهم، وانظر إلى ما أبانه القرآن في ذم غلو أهل النصارى تجد الشفاء لما في الصدور، قال تعالى: * يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ & [النساء:١٧١] * فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ & [النساء:١٧٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٤)، ومسلم (٥٢٩).

**زيادة توضيح:**

وقد تقدم أبو العباس المرسي خطوة جريئة في التوضيح، فزعم بأن معرفة الولي أصعب من معرفة الله ﷻ، فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله، ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب)؟[١].

ويردد علي محمد وفا الكلام نفسه ولكن في صورة أخرى: فيزعم أن من لا يرى من أستاذه إلا وجه البشرية فلا يزيده ما كشف له من الحق المبين إلا إعراضاً وتكذيباً ونفوراً ومن ثم لا تجد محققاً يظهر لقومٍ إلا من حيث يشهدونه[٢].

ومحمد بن أبي جمرة يشارك السابقين بقوله في السياق نفسه: ثلاثة لا يفلحون في الغالب: ابن الشيخ وزوجته وخادمه، ويعزي سبب عدم فلاح الخادم أنه بسبب تكرار رؤية الشيخ، وإطلاعه على أحواله من المأكل والمشرب والمنام، ولذلك قالوا: لا ينبغي للشيخ أن يأكل مع المريد ولا يجالسه إلا عند الضرورة خوفاً على المريد من سقوط حرمته من قلبه، فيحرم بركته من قلبه، فيحرم بركة الصحبة، فإذا نظر الخادم إلى الشيخ بالتعظيم انتفع كذلك وأفلح أكثر من غيره[٣].

ويثب أبو الحسن الشاذلي وثبة عظيمة تفوق السوابق فيزعم أن لكل ولي ستراً أو أستاراً نظير السبعين حجاباً التي وردت في حق الحق تعالى! حيث إنه تعالى لم يعرف إلا من ورائها فكذلك الولي! وتمضي الطبقات في موضع آخر في التخصيص لتصور لنا حجابين يختفي وراءهما أحمد البدوي، ولم ينفك أحد مريديه من طلب الرؤية والبدوي يمتنع، حتى

---

(١) (ص:٣٨١).

(٢) (ص:٤٥٠).

(٣) (ص:٢٧٢).

خاطر بحياته يوماً فاشتهى رؤية وجه سيده البدوي ولو كانت النتيجة أعلى كلفة فقال: يا سيدي! أريد أن أرى وجهك وأعرفه، فقال: يا عبد المجيد! كل نظرة برجل، فقال: يا سيدي! أرني وجهك ولو مت، فكشف له اللثام الفوقاني فصعق ومات في الحال![1]

وأعجب من ذلك كله حين أراد يوسف العجمي أن يبرر فشله في التسول فكان يأتي يذهب يشحت للفقراء فلا يرجع إلا بكسيرات يابسة يأكلها فقير واحد، أما الفقراء ممن هم دونه فيأتون بحمل حمارٍ من اللحم والخبز والفجل؛ فسألوه عن ذلك؟ فقال: أنتم بشريتكم باقية وبينكم وبين الناس ارتباط، وأنا بشريتي فنيت حتى لا تكاد ترى؛ فليس بيني وبين التجار والسوقة وأبناء الدنيا كبير مجانسة! وكان صورة سؤاله: أن يقف على الحانوت أو الباب ويقول: الله ويمدها حتى يغيب ويكاد يسقط على الأرض! فيقول من لا يعرفه: هذا الأعجمي راح في الزقزية! وسيأتي خبره في شحاتة الفقراء قريباً[2].

فلقد خاضوا الفتنة وأتوها من بابها، وأسسوا هذا البنيان على شفا جرف، ونادوا بتعظيم المخلوق حتى رفعوه في مقام الربوبية، وجعلوا له أستاراً وحجباً على وجهه إمعاناً في المضاهاة، ومراعاة لحرمته المبجلة، ونسبوا له خوارق عظيمة، فأمر التصوف أمر عجيب، وهو وإن حاولوا أن يزجوا ما استطاعوا من حكايات فإنه بيت عنكبوت، فلا يصل أربابه إلى ما يكبرونه في صدورهم، فإنهم لا يملكون من قطمير، ويذهب قولهم الذي ليس عليه أثارة من علم أدراج الرياح عند الرجوع إلى الحكم الذي ترضى حكومته، قال تعالى: * أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا & [الأنعام:١١٤].

---

(١) (ص:٣٠٩).

(٢) (ص:٤٦٨-٥٨٣).

**التزام عجيب:**

فيا سبحان الله! ماذا يريد هؤلاء الصوفية من الناس أن يعتقدوه؟! إنهم يريدون طي شهود بشرية من يدعونهم بالأولياء، ومقابل ذلك رؤيتهم بصفات الربوبية، ولازم قولهم هذا أن يصرفوا الناس إلى عبادة أوليائهم لينتفعوا بهم؛ لأنها خطوات يفتحها الشيطان فمتى وضع المرء قدمه على عتبتها انجر إلى ما بعدها.. إلى حيث يلقي به في هوة سحيقة، ومن العجيب أن بعضاً منهم قد التزم بهذا اللازم صراحة، وهي لعمري قاصمة في الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله! والزعيم بذلك هو أبو العباس المرسي في قوله: (لو كشف عن حقيقة ولي لَعُبد؛ لأن أوصافه من أوصافه، ونعوته من نعوته!)[1].

إذاً حقيقة الولي عندهم من وصل إلى الاتحاد بحيث صارت أوصافه خصائص الربوبية! وهنا يقولون: إنهم لم يجعلوا مع الله إلهاً آخر وإنما الولي صار فانياً! ووصل إلى حقيقة التوحيد المتمثلة عندهم في الفناء! فإذا ما انكشف حال الولي صار هو المعبود، وهذه العبارة ناطقة بما سبق، وإدانة على أنفسهم بما قالوا، ولقد قالوا قولاً عظيماً، فهل عندهم من برهان من كتاب على ما قالوا أم إنها مخرجات الفلسفة وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان؟! قال تعالى: * قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ & [الزمر].

---

(١) (ص:٣٧٨)، و لا يعنينا بعد تأويل الشعراني بقوله: (ومعنى (لأعبد) أي: لأطيع، قال تعالى: ((لا تعبدوا الشيطان)) أي: لا تطيعوه فيما يأمركم به والله أعلم؛ لأن السياق والسباق يؤيد ما ذهبنا إليه في حمل الكلام على ظاهره!

والتزم بعبادة الولي شخص آخر، وهو علي محمد وفا في قوله: (إذا رأى العارف أنه عين معروفه فلا عليه بأس في تعظيم العباد له) وقد أعرب هذه العبارة الشعراني فقال: ومعنى كونه عين معروفه: أن يتخلق بصفاته التي أمره بالتخلق بها، وهذا مبني على أن الصفات عين لا غير، فافهم[1].

ويتلاشى الفارق بين العارف وربه عند داود بن ما خلا، فيهذي بقوله: إنما كان العبد يدخله الوسواس في الصلاة، ولا يدخله إذا سمع كلام عارف وهو بين يديه؛ لأن المصلي يناجي ربه، والمستمع للعارف يناجيه ربه[2].

فما أقبح هذه الخرافات التي تجتث القواعد من بيت التوحيد، وتنادي بتعظيم الأولياء بل وعبادتهم إذا انكشف أمرهم! وهذا لا يقف بالمرء عند تعظيمهم فحسب، بل نسبوا لهم من الصفات ما تفرد الله به بحجة الوصول للفناء! وهو هضم لجانب الربوبية، وظن السوء برب العالمين، قال ابن القيم: (ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً يحبه ويخافه، ويرجوه، ويذل له ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟! قال تعالى: * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ & [البقرة:١٦٥]، وقال تعالى: * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ & [الأنعام:١]، أي: يجعلون له عدلاً في العبادة والمحبة والتعظيم، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وآلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالاً وباطلاً فيقولون لآلهتهم وهم في النار

(١) (ص:٤١٠).

(٢) (ص:٣٣٦).

معهم: * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ & [الشعراء:٩٨]، ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا أن آلهتهم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما ساووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب للإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين! وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وأنهم لا يشفعون لعابدهم أبداً، بل حرم الله شفاعتهم لهم ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع)[1].

وخلاصة الكلام أنها عبارات مزخرفة وشقشقة لا طائل تحتها غير تقويض خيام الشرع، وليس طي صفات الولي البشرية، وماذا نطلب بعد هذا التصريح من هؤلاء الدراويش أن يقولوه، وكيف يبقى حالهم ملتبساً مشكلاً عند آخرين؟!

فاللهم سترك ولطفك وحلمك، فأما الكتاب والسنة فشاهدة ببطلان ما زعموه، وقد مر بنا من النصوص ما تضمنته سورة الأنعام من قوله تعالى: * قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا & [الأنعام:١٦٤]، وقوله: * قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا & [الأنعام:١٤]، وقوله: * أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا & [الأنعام:١١٤]، فلا يتخذ المرء رباً غيره، يتصرف ويدبر الأمر، ولا يتخذ غيره ناصراً ومعيناً ومعبوداً كما لا يتحاكم إلى غيره بعدما فصل الآيات، فمن رضي به رباً ولم يجعله ناصراً ووليا

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٩٩).

بل اتخذ من دونه أولياء يعظمهم ليقربوه زلفى فقد أشرك، وكذا من لم يرض به حكماً يتحاكم إليه، فرضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وكفانا ما رضينا به:

**فأما ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني**

## ظاهرة الشطحات

تمثل ظاهرة الشطح لدى الصوفية المرحلة النهائية لمن وصل إلى دائرة الفناء والوحدة، ونحن معنيون هنا بتحليل هذه الظاهرة في إطار الفكر نفسه، ثم دحضها بالحق المبين، وهي مرحلة بالغة الخطورة، وتكمن هذه الخطورة في الكلمات التي يتفوه بها الصوفي لبيان حالته المتلبس بها، ويقوم بكشف السر الذي توصل إليه حين شرب من كأس المحبة كما يصورونه، وكان قد هرع إلى الداعي ولبى نداه، وألقى كل شيء كي يخفف رحله من طعام وشراب ونوم وراحة وأهل (والزاد حتى نعله ألقاها) ولما وصل وذاق ما ذاق، غلبه المقام في إذاعة الأسرار وصار بين نارين:

الأولى: هي كتم الشوق الفياض المتدفق بعد إجابة الداعي في ذلك – ورد الدعوة كفر – وفي كتمه تلف النفس وهلاكها، حيث إنه لا يستطيع تحمل هذا الحال.

الثانية: التعبير عن الحال بما يفيضه المقام، وتصوير النشوة البالغة، وفي تصويره هلاك للسامعين من ناحية؛ لأن ظاهره كفر، وهلاك له ذاته في الحكم عليه بالزندقة حيث ستجرد السيوف لعنقه كما فعل بأشياعه من قبل، فما هو صانع في فنائه؟!

الميزان الصوفي يتجه نحو الوصول إلى الفناء ورؤية السر لا يلوي على غيره مهما كانت النتائج، فهو إذاً يرجح اختياره الثاني على ما فيه من عنت، وتحمل ما ينتج عليه وفيه، وبقي كيفية التعاطي معها في شأن القاصرين، مع كونها حق في ذاتها، وإنما مراعاة لقصورهم، فبرز التأويل كخروجٍ – فقط – من صعوبة هضم هذه الشطحات.

وللشعراني صاحب الطبقات جهد كبير، وأثر في تحمل عبء التأويل لكثير من الشطحات بسبب القبس الفقهي الذي شكل جوانب شخصيته، وقد تعرض لإزالة العثرات الناتجة في الجرأة في هذه الشطحات، وورد في الطبقات مواضع متفرقة للتصدي لذلك، ولكنه أفرد رسالة خاصة في تأويل بعض الكلمات قال: إنها صدرت من بعض الكمل من العارفين، وأشكل معناها على بعض الفقراء القاصرين، فأولها لهم حتى تقبلها عقولهم، ولا تنفر من طريق العارفين فيخسروا مع الخاسرين، ولم يذكر فيها كل ما بلغه عنهم من الشطح لدقة تأويله على الأفهام السليمة فضلاً عن غيرها، لاسيما والكتاب يقع في يد أهله وغير أهله، وسمى رسالته هذه: الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح[1].

ولأننا التزمنا قراءة الفكر الصوفي من خلال الطبقات فلنتقيد بما قلنا به، ونبدأ برهطٍ من الشاطحين في الطبقات على سبيل الإجمال، ثم نشفعه بالتفصيل في واحدة منها، فعبد القادر السبكي كان كثير الشطح، وأحمد الكعكي كان كثير الشطح حتى كان لا يقدر أحد على صحبته، وأما حسين أبو علي فأحد أصحابه - وهو عبيد وقد سبق ذكره - لسانه مثقوبة من الشطح، ومنهم إبراهيم بن عصيفير كان كثير الشطح، وكان له شطحات عظيمة، وكان كثير العطب، فكان عطبه للناس حمية! وأما الحضري فإنه يتكلم بالغرائب ما دام صاحياً فإذا قوي الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها[2].

---

(١) (الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح) رسالة صغيرة الحجم تعني بتخريج الشطحات الصادرة عن مشاهير المتصوفة.

(٢) (ص:٦٦٤-٦٦٥).

**من شطحات الدسوقي:**

وحان المقام للمضي في الرحلة الشاقة في صحراء الشطحات والتعليق عليها بما يقتضيه النص مستعينين بالله في ذلك، ومستصحبين خبيرنا الذي لا يخطئ ألا وهو نور الحق، وأول ما نبدأ به من صيد الرحلة هو شطحات إبراهيم الدسوقي في قوله[1]:

تجلى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا قلت منيتي
فأنت مناي بل أنا أنت دائما ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي
فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختي
فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتي
فصرت فناء في بقاء مؤبد ... لذات بديمومة سرمدية
وغيبني عني فأصبحت سائلاً ... لذاتي عن ذاتي وهي غاية بغيتي
وأنظر في مرآه ذاتي مشاهداً ... لذاتي بذاتي وهي غاية بغيتي
أنا ذلك القطب المبارك أمره ... فإن مدار الكل من حول ذروتي
أنا شمس إشراق العقول ولم أفل ... ولا غبت إلا عن عقول عمية
وبي قامت الأنباء في كل أمة ... بمختلف الآراء والكل أمتي
ولا جامع إلا ولي فيه منبر ... وفي حضرة المختار فزت ببغيتي
وما شهدت عيني سوى عين ذاتها ... وإن سواها لا يلم بفكرتي
بذاتي تقوم الذات في كل ذروة ... أجدد فيها حلة بعد حلة

(١) (ص:٣٠٧).

فلـــيلى هنـــد والربـــاب وزينـــب وعلـــوى وســـلمى بعـــدها وبثينـــة
عبـــارات وأســـماء بغـــير حقيقـــة ومـــا لوحـــوا بالقـــصد إلا لـــصورتي
نعـم نـشأتي في الحـب مـن قبـل آدم وسري سرى في الأكوان من قبل نشأتي
أنـا كنـت في العليـاء مـن نـور أحمـد عـــلى الـــدرة البيـــضاء في خلـــويتي
أنـا كنـت في رؤيـا الـذبيح فـداءه بلطـــف عنايـــات وعـــين حقيقتـــي
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقاً وأعطيـــت داوداً حـــلاوة نغمتـــي
أنـا كنـت مع نـوح بـما شـهد الـورى بحـــاراً وطوفانـــاً عـــلى كـــف قـــدرة
أنا القطب شيخ الوقت في كل حالة أنـــا العبـــد إبـــراهيم شـــيخ الطريقـــة

هذه القطعة من الشعر التي تمثل أعلى ما تمثله في ظاهرة الشطحات تعتبر التعبير الصادق لهذه الظاهرة، والحقيقة أنها لم تعد رمزاً بالإشارة كما قيل، بل هي بيان في العبارة، وهي تحمل الكفر في طياتها الذي هو ظاهر السر المكشوف، وتجسد الضلالات مجتمعة في أبيات، نقف عندها قليلاً في سفرنا هذا قدر ما تفصح به من مكنونات وكفريات تحت ما يسمى بالوحدة التي سعى نحوها الضالون، وتلبسوا بلباس الزهد وما ثم إلا الكفر! وتظهر هذه الوحدة في مظاهر منها:

- **أولاً**: تجلي المحبوب على ما يحلو التعبير به - ولا يسلم لهم فيه - وظهوره على هيئة نور يترءونه وهي مجرد دعوى عارية عن الصحة، والمخاطبات الدعية مثل هذه لا تصح أيضاً لأنه قد يختلط عليهم الأمر، ويكون من حيلة إبليس، خاصة مع الابتعاد عن منهج النبي ﷺ، والدعوة إلى المخالفات الصريحة، وقد ظهرت بعض هذه الأنوار على الجيلاني فكاد يركن إليها لولا أن ثبته الله، وندعه يحدثنا عن حادثة حصلت له حيث يقول: تراءى لي نور عظيم

ملأ الأفق، ثم تدلى فيه صورة تناديني: يا عبد القادر! أنا ربك وقد حللت لك المحرمات، فقلت: اخسأ يا لعين! فإن ذلك النور ظلمة، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني: يا عبد القادر! نجوت مني بعلمك بأمر ربك، وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لله الفضل[1].

وكان أبو ميسرة المالكي ليلة بمحرابه يصلي ويدعو ويتضرع، وقد وجد رقة فإذا المحراب قد انشق، وخرج منه نور عظيم، ثم بدا له وجه القمر وقال له: تملأ من وجهي يا أبا ميسرة! فأنا ربك الأعلى؛ فبصق في وجهه وقال: اذهب يا لعين عليك لعنة الله[2].

وإذا بدا إبليس لهذين الشيخين مع سعة علمهما فمن يأمن الفقراء بعدهما من تلبيسه؟! وهو الذي أضل سبعين ممن عاصروا الجيلاني، فكيف بمن بعده من الأزمنة التي كثرت فيها الدعاوى وزاد الجهل؟! فلا شك أن حيله تعددت، وحباله امتدت لتلف كثيراً من المتأخرين؛ فينبغي عدم الاغترار بذكر ما يتراءى لهم من نور.

**ثانياً**: قوله: (أنا أنت) صريح في الوحدة، وأنه عين الحقيقة، وهي الراية التي حمل لواءها ابن عربي، ونظمها ابن الفارض في تائيته، وتبلورت لدى كثيرٍ من المتأخرين، وتعد الغاية عندهم من سلوك الطريق، وها هي كشفت لنا عن وجهها القبيح، وقد يطلق على

---

(١) انظر الطبقات (ص:٢١٨)، وتتمة كلامه: (قيل: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللت لك المحرمات، وسئل عن صفات الموارد الإلهية والطوارق الشيطانية؟ فقال: الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء، ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد، ولا في وقت مخصوص، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالباً).

(٢) الموافقات للشاطبي: (٤/ ٣١٩).

الوحدة الاتحاد ولكنه ليس اجتماع شيئين، وإنما عنوا به الوحدة أيضاً لأنهم ينفرون من الاثنينية، بل هي كفر في مذهبهم الردي المردي، فلينتبه هنا لقوله: (فأوصلت ذاتي باتحاد بذاته) فلا يتوهم القارئ أنه ناقض نفسه وليس ثم تناقض لديه، بل هو الضلال قولاً واحداً.

**ثالثاً**: إذا تعينت الأشياء صار آدم عندهم كنسخة الذات، وكان عين جلاء المرآة المعبر عنه الإنسان الكبير، وما هو إلا عين جمعه بين صورة العالم وصورة الحق، فما صحت الخلافة إلا للإنسان الكامل كما قرره ابن عربي في فصوصه.

**رابعاً**: القطب يفسرونه هنا: القطب الواحد الذي هو موضع نظر الله في الأرض في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، ويعبرون عنه بالقطب القديم والروح المصطفوي، أو الحقيقة المحمدية، وهو ما عناه ابن الفارض بقوله:

**فبي دارت الأفلاك فاعجب لقطبها المحيط بها والقطب مركز نقطتي**

وليس المراد به القطب الحادث الذي يترأس الديوان الصوفي، ويقع في أعلى الهرم الذي يدير شؤون العالم، وكلاهما حديث خرافة ما أخرجوا لنا فيهما علم يتبع.

**خامساً**: وحدة الاعتقادات والأديان التي عبر عنها الدسوقي من طرف خفي بمختلف الآراء التي قامت به؛ لأنه جسد الوحدة حال أن الكل أمته، وكل الجوامع والملل والشرائع على اختلاف مذاهبها له فيها منبر، وهو مشرب وحدة الأديان؛ إذ ليس في الوجود متناقضات عندهم ولا أضداد، وهذا يقضي عندهم أن الوجود كله حقيقة واحدة، ومن جمع ما تفرق في الوجود تيقن أن كل شيء هو عين الذات، فما ثم إلا حقيقة واحدة، فيرضى بكل

معتقد ورأي وأنه حق، فالآلهة المعبودة في حقيقتها عين الذات، والله تعالى أوسع أن يحصره عقد دون عقدٍ على حد تعبير ابن عربي، وعبر عنها ابن الفارض بقوله:

**وإن خر للأحجار في البيد عاكف ... فلا تعد بالإنكار بالعصبية**
**وإن عبد النار المجوس وما انطفت ... كما جاء في الأخبار مذ ألف حجة**
**فما عبدوا غيري وإن كان قصدهم ... سواي وإن لم يعقدوا عقد نية**

**سادساً**: الافتراء بأن ذاته لم تشهد غير الذات التي اتحد بها، ويراها في حلة بعد أخرى ومنه – عياذاً بالله – صورة العاشقات كليلى وهند وسلمى وبثينة، فيزعم أنها الذات تجلت في صور ليلى وبثينة وعزة، وهي عبارة عن أسماء تلوح لمقصد واحد هي صورة الذات، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، ويفصل هذا الكلام السخيف والكفر الواضح ابن الفارض بقوله:

**فكل مليح حسنه من جمالها ... معار له أو حسن كل مليحة**
**بها قيس لبنى هام بل كل عاشق ... كمجنون ليلى أو كثيّر عزة**
**فكلٌ صبا منهم إلى وصف لبسها ... لصورة حسن لاح في حسن صورة**
**وما ذاك إلا أن بدت بمظاهر ... فظنوا سواها وهي فيها تجلت**
**بدت باحتجاب واختفت بمظاهر ... على صبغ التلوين في كل برزة**

**سابعاً**: يزعم أنه اكتشف في هذه الوحدة قدمه وظهوره مع الأنبياء، وأنه كان منذ القدم هو الله، وظهور الحق في صورة أنبيائه فلم يكن إلا ومضة من نور محمد، وكان هو عيسى وإسماعيل وداود ونوح بل هو إبراهيم! فالذات الإلهية باعتبار التجرد والابتداء تكون مرسلاً وباعتبار تلبسها بلباس النفس تكون مرسلاً إليه أي: أنه منذ القدم كان ظهور الحق في

بعض صورة المخلوقات هو تلبسه به، ولهذا قال القاشاني في شرح بعض أبيات ابن الفارض: أي: عاينت في نفسي الملائكة الساجدين لمظهري؛ فعلمت أني كنت حقيقة كنت في سجدتي آدم تلك السجدة، فالساجد صفة مني يسجد لذاتي، فالجمع واقع:

**ومن عهد عهدي قبل عصر عناصري إلى دار بعث قبل إنذار بعثة**

وعقيدة الحلول والتناسخ التي زعمتها فرق من الشيعة بأن أئمتهم ظهروا في مختلف الصور في الأزمنة المتعددة، وظهروا بصورة آدم ونوح، وأنهم نجوه من الغرق.. إلى آخر الحديث، ولفقوا مثله ونسبوه إلى علي بن أبي طالب ا ، وهو عين ما نطقت به غلاة الصوفية في قولهم بالنور المحمدي وانتقاله عبر الأزمان.

**ثامناً**: ورد في الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية ما يتفق مع القول بانتقال هذا النور أو التناسخ لا سيما في القصيدة التائية، بأنه كان في العلياء بنور محمد، وكان مع نوح في الطوفان، وإبراهيم في النيران، والذبيح ويعقوب وإدريس وموسى وأيوب وعيسى ‡ ! وهذا يدل على الاصرار على تبني هذه العقيدة، وليست هفوة من الدسوقي انفرد بها فشذ عن الطريق، كما نسبت أبيات لغيره من أقطاب الطرق الأخرى تحاكي هذا المضمون[1].

وإنني بعد هذه الجولة وما فيها من رعونة الكلام أستسمحكم عذراً أيها القراء، فما سقته إلا مضطراً لأبين ضلالاته، وهو ما فهمناه في سياقه، وللشعراني اعتذار أورده بعد أبيات الدسوقي السابقة: بأن لا يعرف معناها إلا الكامل المحمدي، وأما نحن فقد عرفناه من

(١) الفيوضات الربانية جمع الحاج إسماعيل ابن السيد محمد سعيد القادري، ولا تنسجم مع ترجمة عبد القادر الجيلاني ألبتة.

معطيات سالفة تقود إلى نتيجة صحيحة، وقال في اعتذاره أيضاً: وجميع ما فيه من استطالة من هذه الأبيات إنما هو بلسان الأرواح، ولا يعرفه إلا من شهد صدور الأرواح من أين جاءت؟ وإلى أين تذهب؟ وكونها كالعضو الواحد من المؤمن إذا اشتكى فيه ألماً تداعى له سائر الجسد وذلك خاص بالكامل المحمدي لا يعرفه غيره، انتهى كلامه.

والمتأمل لهذا النوع من الشطحات لا يستطيع أن يوافق الشعراني على أنها من الكمال المحمدي؛ بل يقف في الصف الآخر الذي يراها من حيلة إبليس في صياغته، ودهائه في صناعته، وحكاية صاحب فك الأزرار عن أعناق الأسرار تفيد غلبة هؤلاء المتنطعين لإبليس في قعر داره، وإتيانهم بما لا يقدر عليه، فقد قال الراوي بأنه جرت له مخاطبة مع إبليس فقال: إنكم قد غلبتموني وقهرتموني، فقد جرت قصة تعجبت منها مع شيخ منكم، فإني تجليت له فقلت: أنا لا إله إلا أنا؛ فسجد لي؛ فتعجبت كيف سجد لي؟! قال هذا الراوي: ذاك أفضلنا وأعلمنا ما رأى في الوجود اثنين[1].

وهكذا كان هذا الراوي امراً من جند إبليس يعلمه الضلالة حتى غدا إبليس بعد فترة من جنوده لما فاق عليه في الأساليب الماكرة أجارنا الله من شرهم وفتنتهم!

وللرد على هذه الشطحات نقف وقفات:

١- ينبغي علينا أن لا نكون في أمر الشاطحين فئتين لاعتقاداتهم المردية الكاسدة، وخيالاتهم الردية الفاسدة التي يطلقون عليه شطحات، ويسمونها حقائق بغير اسمها وما هي إلا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان تضم بين طياتها الكفر، ومشاركة خصائص الربوبية التي

(١) الفرقان (ص:١٥٤).

تفرد الله بها، قال تعالى: * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ & [الإسراء:١١١].

٢- حقيق بمن ينتسب للتصوف - ظناً أنه رديف الزهد على ما فيه من الشوائب العملية - أن ينضم إلى فئتنا، بل ويطيل البكاء على قواعد طريقته حين تسربت إليها هذه العقائد الزائغة التي بينها وبين الزهد من المفاوز التي تنقطع دونها أعناق الإبل، وعليه أن ينوح كما ناح الأخضري قائلاً:

**يا حسرتا على الطريق المستقيم قد ادعاه كل أفاك أثيم**
**قد أشرفوا على كهوف الكفر وستروا بدعتهم بالفقر**
**واتخذوا مشايخاً جهالاً لم يعرفوا الحرام والحلالا**

٣- لابن القيم كلام قيم في هذا المقام ونصه: (ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والخلوات، وأبرزه لهم في قالب الكشف والكشف، عند الصوفية: الزعم بالإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية وجوداً وشهوداً، وعندما أبرزه في قالب الكشف من الخيالات أوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات..... فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات وأنواع الهذيان، وكلما ازدادوا بعداً وإعراضاً عن القرآن وما جاء به الرسول ﷺ كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم)[1].

(١) إغاثة اللهفان، وتتمة كلامه: (وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقاً إن هم سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن، فزين لهم رياضة النفوس وتهذيبها، وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا وأهل الرئاسة، والفقهاء وأرباب العلوم والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء؛ حتى يتنفس فيه الحق بلا واسطة، علم فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول =

وقد فسر أبو طالب المكي المراد بالجاهلين الذين ينفي العدول من كل خلف تأويلهم فقال: (هم الشاطحون من المتصوفة الضلال، وعدول كل خلف من اتبع سنة صالح من سلف، ولم يبتدع في الدين، ولا اتخذ وليجة دون طريق المؤمنين، وهم رواة الأخبار وحملة الآثار وفقهاء المسلمين، قال علي بن أبي طالب I : عليك بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه الغالي ويرتفع عنه القالي)[1].

## جولة أخرى مع شطحات الشيوخ:

والصيال على العقيدة الصحيحة لم يتوقف في أمر الشطحات هنا، ونحن لم نضع السلاح بعد، ونسوق الآن جملة منها لكي نرى ما حل بالأمة من مصائب في المعتقد، ونعرف زيف من يحاول إعادة دور التصوف في الريادة، ونبصر زيغه الذي يخفيه وراء الحديث عن التصوف السلوكي، فإن الفكر الصوفي قد بات جملة من المفاهيم التي تندرج فيها الشطحات ولم يتوقف عند الزهد والخرق من الصوف، وهيهات أن تنطلي مثل هذه الأطروحات على الناس وقد أشرقت شمس العلم بنورها، وبددت ظلمات الجهل والخرافة التي أرخت سدولها فترة من الزمن، فمن دائرة الشطحات:

---

= نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم الظاهر ولنا الباطن، ولكم الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل والنهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريف، فلا تعرض على السنة والقرآن، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان..).

(١) قوت القلوب، الفصل الخامس والثلاثون في تفصيل الإيمان والإسلام.

- إن إبراهيم الدسوقي كان يقول: أنا موسى في مناجاته! أنا علي في حملاته! أنا كل ولي في الأرض خلعته بيدي ألبس منهم من شئت، أنا في السماء شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس!!![1]

ومعاذ الله أن نوافق الشعراني بأن هذا الهراء من مقام الاستطالة، وهي الرتبة التي تعطي صاحبها أن ينطق بما ينطق، و ميزان الكتاب والسنة يقضي ببطلانها، وقد خالفت النصوص وعقائد المسلمين مما يفقهه صغار الطلاب، والشعراني مع ذلك مصر على أنه لا ينبغي مخالفتها إلا بنص صريح، وهل كلامه الذي يمر بنا وتقشعر منها الجلود الآن مشكل أيضاً؟! وهو قول الدسوقي: أشهدني الله تعالى ما في العلى وأنا ابن ست سنين؛ ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين! وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين؛ ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجماً حار فيه الجن والإنس ففهمته وحمدت الله على معرفته! وحركت ما سكن وسكنت ما تحرك بإذن الله تعالى وأن ابن أربع عشرة سنة[2]!!

- ومنهم أبو الحسن الشاذلي في قوله: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت! ومما نسب له أيضاً قوله: طوبى لمن رآني أو رأى من رآني أو رأى من رأى من رآني[3]!!

---

(١) (ص:٣٠٦).

(٢) (ص:٣٠٩).

(٣) (ص: ٣٨٧)، ومنهم علي بن محمد وفا يقول في قوله: ((وسارعوا إلى مغفرة من ربكم)) قال قائل: لا مغفرة إلا من حيث الذنب فالأمر بالمسارعة إليها أمر به! وهذه الغصة قد شرق بها حتى الشعراني نفسه فتلطف في اعتراض وتأويل بقوله: هذا لا يقوله إمام هدى رباني إلا على معنى أنه أمر بأن يرى العبد نفسه مذنباً وإن أطاع جهده.

**ازدراء أسلافهم:**

ولم يقف الغرور بهؤلاء بالاستعلاء على الفقهاء، بل بلغ بهم أن ينظروا إلى سلفهم بازدراء ونقيصة، ويرون أنفسهم أكثر أحوالاً ممن سبق:

- فمحمد الحنفي ذكروا له يوماً عبد القادر الجيلاني فقال: لو حضر عندنا عبد القادر هنا لكان تأدب معنا[١].

- ومحمد العجمي كان يقول: لو أدرك الجنيد سيدي أبا العباس الغمري لأخذ عنه الطرق[٢].

- وأبو العباس المرسي كان يقول: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف إلا حتى يلتقوا مع واحد مثلنا! والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات - وأمسك على لحيته - لأتوها ولو حبواً على وجوههم[٣]!!

- وإبراهيم المتبولي قيل له: مثل سلطان العاشقين يُتكلم فيه؟ فقال ومن سلطان العاشقين؟! قيل له: عمر الفارض فقال: هذا وأمثاله ممن ملأ الأرض عياطاً ما أعطي أحدهم من سر الله ﷻ ما يغطي شارب ناموسة[٤]!

---

- ومنهم أبو الحسن ابن الصائغ كان يخرج على أصحابه ويقول لهم: أفيكم من إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم حدثاً أعلمه به قبل حدوثه؟ فيقولون: لا فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله ﷻ!!!

- ومنهم محمد بن عنان قيل: إنه يعرف السماء طاقةً طاقة.

(١) (ص:٥٢٣).

(٢) (ص:٥٦٠).

(٣) (ص:٣٧٩).

(٤) (ص:٥٠١)، ومن ذلك ما نقل عن الجنيد في قوله: أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله تعالى على ظن ووهم، حتى أخي أبا يزيد لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه.

ولا ينبغي أن يجادل الشعراني ولا غيره عن مثل هذه الأقاويل ويكونون عليهم وكلاء؛ لأنها ظاهرة البطلان، وهنا ننتهي بالقارئ الكريم عند ثلاثة أمور:

١- صفاء عقيدة التوحيد القائمة على ساق النصوص، ووضوح المنهج الذي أتى به النبي ﷺ وتربى عليه الصحابة، فأخرج جيلاً فريداً قبل أن تسدد نحوه سهام المبطلين، فليشد المسلم بيديه على كتاب ربه وسنة نبيه؛ ففيهما السلامة؛ ومن تزود بهما فلا يخشى الضيعة، كضالة الإبل دعها ما لك وما لها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها.

٢- ارتكاس التصوف في هذه المعاني التي شكلت بمجموعها مفهومه، وهي مقتبسة من منهج الفلاسفة، وعقائد الشيعة وغيرها من الموبقات، ولم يعد من الزهد وإصلاح القلوب أو تزكية النفوس في شيء، فليحذر المرء من تلبيس الملبسين في هذه النقطة، وإذا وجب على المسلم رد ما خالف هدي النبي ﷺ في السلوك من محدثات فكيف إذا كانت مسائل من لوازم علم الكلام في معارضة النص؟! وكيف إذا كانت من أغلوطات المنطق وأقاويل الفلاسفة؟ وكيف إذا كانت من زندقة الاتحادية وطاغوتها ابن عربي؟! فوا غربة الإسلام!

٣- لا شك أن مثل هذه المفاهيم تلقى ترويجاً لدى المناوئين للإسلام؛ فينبغي علينا كشف عوارها، وتقديم المنهج الإسلامي الرشيد بالعلم الصحيح والعمل الصالح، والدعوة إليهما، والصبر عليهما، فإنه سبيل أهل الفوز في الدنيا والآخرة، وأرجو أنني قد أوضحت سبيل هؤلاء لتستبين للقارئ فيحذرها ويحذر منها.

# المبحث الثالث
# التربية الصوفية واستسلام المريد للشيخ

لقد أدرك الصوفية أن طريقتهم التي اختطوها لأنفسهم غير مقبولة، لا سيما ما تضمنته من دعاوى عريضة في الحقائق فيها مخالفات شرعية واضحة، وما ذكر من خوارق في باب السلوك والرقائق بها مخاز فاضحة، تصل أحياناً في هذين الأمرين إلى قول الكفر وفعل كبائر الذنوب والمعاصي والفجور، و أيقنوا أنه سيبادر أهل الإسلام بالإنكار عليهم، والوقوف ضدهم مما سيقطع سيرهم نحو الهدف، فاخترعوا أصولاً فاسدةً لتربية مريديهم تلتقي عند القول بحفظ الشيخ عن الخطأ لإطلاعه على علوم في الباطن، وبالتالي الخضوع التام له، حيث يستحيل المريد إلى جماد يتصرف فيه الشيخ، وبهيمة آخذاً برسنها فينقاد له بلا اعتراض، ويسلم له في جميع أحواله ولو كان يرتكب المعاصي علانية، وجعلوا هذا التسليم ركناً ركيناً، وعقداً مكيناً بينهم وبين المريدين، يترتب عليه آثاره، ويسري بين الطرفين، وأخذوا عليهم فيه الأيمان المؤكدة، والمواثيق الغليظة.

والنكتة في هذا العقد أنه لا سبيل إلى ذوقه ومشاهدته، ولا سبيل إلى معرفة كنهه إلا لمن ارتاض الرياضة نفسها، حيث يقف ليشاهد الواقع كما هو، وبعد التسليم بالعقد يدخل المريد في حكم شيخه، وتكون الخرقة الصوفية شعاراً لهذا النوع من التربية، وعلامة للقبول في الطريقة، وبمجرد العقد يسلم المريد نفسه للشيخ، ويدخل الزاويا أو الخوانق التي بنيت لتجمع شمل هؤلاء القادمين ويتخرجوا من عتباتها.

وتلقى المريدون هذه الأصول فجعلوا يقدمون للشيخ كل ألوان التبجيل والخضوع بين يديه، حتى صار الشيخ يتدخل في أخص خصائصهم دون أن يعترضوا عليه، بل ويعدون ذلك تدينا بحجة التدريب على السلوك والسعي نحو الهدف، وقاد هذا النوع من التربية الصوفية إلى واقعٍ يتسم بالتبعية، وكان من ثماره أرتال من الطلبة يتخرجون من الزوايا لا يغيرون ساكناً، وإنما يبثون التعاليم ذاتها، وينشرونها في الآفاق، وهو منهج في التربية يسير بشرق الأرض، والتعاليم التي حملها الصحابة تسير بمغربها، كمراجعة الصحابة العلم ومدارسته، ومناقشة المسائل العلمية، وسنستطرد لاحقاً لتوضيح سلامة منهجهم.

والتربية الصوفية من خلال دراسة العقد السابق الذي يكون بين المريد والشيخ تعتبر المدخل الأساسي للدخول في أودية التصوف وشعابه، فإن المريد إذا مضى منفرداً أدركه العطب، فلا بد من شيخ ذي خبرة يأخذ بيديه، ويرشده لكي لا ينقطع به السير، وينقله عبر المقامات، ويقوّم اعوجاجه، ويبين له ما يحتاج إليه في كل مقام؛ ليستقر على قمة الفناء، ويفتح الفكر الصوفي الأبواب مشرعة للشيخ في اختيار الطريقة التي يسير عليها، وترتيب المقامات، وتسليك الطلاب المريدين دون أن يضبطه بضابط معين، ولكن أمراً مهمًّا قد يطرأ على المريد في سلوكه ينقله مباشرة إلى الغاية؛ فيستغني عن الشيخ لتحقق المقصود، يطلقون عليه الجذب، وللمجاذيب قصص لا نضيعها إن شاء الله.

## أهمية الشيخ المربي في الفكر الصوفي

تظهر أهمية الشيخ في الوصية به كونه حجر الزاوية في التربية، ومن لم يكن له شيخ فليس بشيء، فيرى علي محمد وفا أن المريد كالعورة التي لا حرج أن تبدو للطبيب في علاجه المرض، لكي يطلع الشيخ على كل ما يتعلق بالمريد فيقول: من ليس له أستاذ ليس له مولى،

ومن ليس له مولى فالشيطان به أولى، وكان يقول: ينبغي للمشايخ تفقد حال المريدين، ويجوز إخبار الأستاذ بما في بواطنهم، إذ الأستاذ كالطبيب، وحال المريد كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي، وفي الحقيقة كل مريد رأى له عورة مع شيخه فهو أجنبي عنه لم يتحد به[١].

ويبعد أبو المواهب الشاذلي في الوصية إلى الغلو في الشيوخ فيقول: ما ثقل على الأشياخ خدمة أحد من الفقراء إلا لعلة في قلب الخادم كتمها عنهم، وهذه علة لا يسلم منها إلا من أتى الله بقلب سليم، ولو أن الخادم كان أظهر لهم تلك العلة لربما وصفوا له دواءها أو شفعوا له فمحاها الله تعالى عنه من اللوح! أو سألوا النبي ﷺ في الشفاعة فيه فيشفع إلا إذا كان قضاءً مبرماً لا مرد له!! وقد رأى السيد عبد القادر الجيلاني لمريده أنه لا بد له أن يزني بامرأة سبعين مرة فقال: يا رب! اجعلها في النوم فكان كذلك[٢]

فأما كون الشيخ يداوي العلل التي رانت على قلب المريد فقد نسلم بها على سبيل التنزل، وإلا فإنه لا يزيده إلا مرضاً إذا كانت الاعتقادات سيئة، ولكن الذي لا يستقر عندنا السؤال بمحوها أو سؤال النبي ﷺ ذلك، فأين الدليل؟ وبأي كتاب أم بأية سنة يقررونه؟!

وأبعد من ذلك شوطاً ويستعصي على الفهم أيضاً هو التطاول المنسوب للجيلاني – ونربأ به عن أن يأمر بالمعصية بحجة اختبار المريدين – وملامح التخريف بادية على الوصف، ولذا لم يكتف الواصف بأمره بالزنا مرة واحدة، بل جعلها سبعين مرة، وماذا عليه في كمية العدد إذا كان الكيل جزافاً، والبيع بالجملة؟!

---

(١) (ص:٣٨٣)، وله وصايا من هذا النوع أكثر من نقلها الشعراني في ترجمته.

(٢) (ص:٤٧٨).

**المريد كالميت عند مغسله:**

هكذا اختار الصوفية هذا التشبيه لتصوير المريد بين يدي شيخه، واستحسنوا إيراده كثيراً دون نكير، وهو يوحي بالموت الكامن وراء هذه التربية، فيصير المريد كالميت بين يدي مغسله، وهو الشرط اللازم وجوده، فإذا فقد هذا الشرط ذهب العقد برمته، فليستصحب المريد إذاً هذا الشرط القوي، ويحرم عليه السؤال بكيف؟ ولم؟ وقد صاغه بعضهم بالشعر قائلاً:

**وكن عنده كالميت عند مغسل يقلبه ما شاء وهو مطاوع**

**وفي قصة الخضر الكريم كفاية لقتل الغلام والكليم يدافع**

ويزيده إبراهيم الدسوقي تفصيلاً فيقول: المريد مع شيخه على صورة الميت لا حركة ولا كلام، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة في الزاوية أو غير ذلك، وهكذا كانت طريق السلف والخلف مع أشياخهم، فإن الشيخ هو والد السر، ويجب على الولد عدم العقوق لوالده، ولا نعرف للعقوق ضابطاً نضبطه به إنما الأمر عام في سائر الأحوال، وما جعلوه - أي: المريد - إلا كالميت بين يدي الغاسل، وكان يقول: يجب على المريد أن لا يتكلم قط إلا بدستور شيخه، إن كان جسمه حاضراً وإن كان غائباً يستأذنه بالقلب[1]!!

ويعد أبو المواهب الشاذلي السؤال بلم؟ ذنب عند الصوفية، فيقول: ربما منع المريد من أجل قوله لشيخه لم؟ فإنه ذنب عند أهل الطريق لا يشعر به كل أحد[2].

---

(١) (ص:٣٠٥).

(٢) (ص:٤٨٨)، ومنها ما نظمه صاحب الرائية التي شرحها السلجماسي في قوله:

ويزيد الطين بلة نور الدين المرصفي فيزعم أنه ليس للمريد أن يسأل شيخه عن سبب غيظه وهجره له، بل ذلك من سوء الأدب، ولا يجوز للمريد عند أهل الطريق أن يجيب عن نفسه أبدا إذا لطخه شيخه بذنب لأنه يرى ما لا يرى المريد[1].

ومن هنا ظهرت الامتحانات الصعبة لدى بعضهم، فأبو السعود الجارحي كان يعامل أصحابه بالامتحان، فلا يكاد يقرب منهم أحد إلا بعد سنة كاملة، وكان يلقي حاله على الفقير فيتمزق لقوته، وأحمد بن سليمان الزاهد كان يمتحن المريد قبل أن يأخذ عليه العهد سنة وأكثر، ومقابل ذلك فالطلبة يرون أنفسهم ملكاً للشيخ يفعل فيهم ما يشاء، فهذا نموذج منهم يسمى محمد الغمري خدم عند أحمد الزاهد فقال: وكان قد قسم الفقراء ثلاثة أقسام: كهول، وشباب، وأطفال، وقد أخذ العهد عليهم أن لا يجيب أحد عن نفسه قط، بل يعفو عن الظالم أو يشكوه للشيخ يفعل فيه ما شاء، من حيث إنهم كانوا يرون نفوسهم ملكاً للشيخ يفعل فيهم ما يشاء، وهم أوصياء على أجسامهم فينتصرون لها من حيث أنها مضافة إلى الحق، وما كان أحد منهم يتكدر مما يفعله الشيخ معه من هجر أو إخراج أو ضرب أو جوع أو نحو ذلك، بل كانوا يرون الفضل للشيخ[2].

ولا شك أن تربية من هذا الجنس تقود إلى الخنوع والذل والتسليم المطلق للشيوخ بما

---

**ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ولا تجهروا كجهر الذي هو في قفر**
**ولا تنطقن يوماً لديه فإن دعا إليه فلا تعدل إلى الكلام النزر**
**ولا يقعدن قدامه متربعاً ولا بادياً رجلاً فبادر إلى الستر**
**سوى الشيخ لا تكتمه سراً فإنه بساحة كشف السر يجري على بحر**

(١) (ص:٢٨١).

(٢) (ص:٥٠٤).

يتعارض مع التربية التي كان عليها الرعيل الأول، الذين خرجوا فاتحين البلاد ناشرين الدين؛ فكان ثمرة جهادهم انتشار الإسلام حتى بلغ ما بلغ، وأما فساد التربية الصوفية فأقل ما يبدو منه تعطيل طاقات الشباب الذين هم عماد الأمة، واللهث وراء سراب الفناء؛ فلا يقومون بواجبهم في حمل اللواء، وأنى لمن كان كالميت بين يدي مغسله نشوراً؟! بل قيادة الأمة المرجوة منه، وأين المسابقة على الخيل بالرهان، والنضال بالرمي، وتعلم الفروسية التي شجع عليها رسول الله ؟!

ما أبعدها عن من يرى نفسه ملكاً للشيخ!

**الاستغناء عن الشيط:**

قد يصل المريد الغاية بالجذب فيستغني عن الشيخ، قالوا: وقد يستغني المريد أيضاً عن شيخه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مباشرة وأخذ عنه! مثل إبراهيم المتبولي الذي وصف بأنه لم يكن له شيخ إلا رسول الله، وأحياناً تكون التربية بنظرة فقط من الشيخ تحيل المريد شيئاً آخر، وتلحق الظالم لنفسه إلى مقام السابقين فضلاً عن القاصدين في مراتبهم، كمحمد الشناوي الذي كان أكثر تربيته بالنظر! فكان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار عليه فيتبعه في الحال لا يستطيع رد نفسه عن الشيخ! وكان أبو الحسن شيخ أبي العباس يوصي التلاميذ به، ويقول: فوا الله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه فلا يمشي إلا وقد أوصله إلى الله، وهكذا يقرر أبو العباس المرسي بعض ما ورد، فيقول: إنما يلزم الإنسان تعيين المشايخ الذين استند إليهم إذا كان طريقه لبس الخرقة؛ لأنها رواية والرواية يتعين رجال سندها، وطريقنا هذه هداية وقد يجذب الله تعالى العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله فيكون آخذاً عنه، وكفى بهذا منّة[1].

(١) (ص:٣٧٩-٤٩٧).

ومما يثير العجب في أمر النظرة ما كان من خبر البدوي الذي لم يزل على السطوح اثني عشرة سنة! وكان عبد العال يأتي إليه بالرجل أو الطفل فيطأطئ من السطوح فينظر إليه نظرة واحدة فيملأ مدداً، ويقول لعبد العال: اذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا فكانوا يسمون أصحاب السطوح(١).

وما يكتسبه أصحاب السطوح بنظرة واحدة فحسب لا يحصله الطالب عند الفقهاء في سنوات ذوات عدد، فهم عن طريق نظرة من علوٍ يمتلئون مدداً وعلماً حتى يفيض مددهم من كثرته! فيتأهلون لنشره، ويخرجون للبلاد ناشرين للطريقة والعلم، وهذا ليس خاصاً بالرجال بل الأطفال يشاركونهم في هذا بفعل النظرة نفسها! فلا حاجة للطلبة في المضي إلى العلماء الذين يشددون في التلقي، ويكلفونهم دراسة المتون وحفظها ما دام البدوي لا يزيد على نظرة! وهذا عندي وعنقاء مغرب سيان، فعلى عقول تستجيزه العفاء!

**معرفة المريد من زمن بعيد:**

يتم اختيار المريدين لدى بعض الشيوخ بعناية فائقة، وترجع معرفته بهم إلى زمن بعيد جداً، نقله ابن عربي في الفتوحات، وعنه الشعراني في الطبقات، عن سهل بن عبد الله التستري في قوله: أعرف تلامذتي من يوم: ألست بربكم؟! وأعرف من كان في ذلك الوقت عن يميني ومن كان عن شمالي، ولم أزل من ذلك اليوم أربي تلامذتي وهم في الأصلاب لم يحجبوا عني إلى وقتي ذا!!(٢)

والعهدة عليهما في نقل هذه الشطحات في سيرة سهل الذي تتنزه عن مثل ذلك، وأتى

(١) (ص:٣١١).

(٢) (ص:٣١٤).

عن جاكير - أحد الصوفية - أنه زعم قائلاً: ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت اسمه مكتوباً في اللوح المحفوظ وأنه من أولادي!![1].

وربما انحدر الوصف درجة إلى معرفة المريد من يوم ولادته وهو بأرض بعيدة غير أرض الشيخ، ومع ذلك يجدها الشيخ فرصة في عمل العقيقة له، وارتقاب وصوله حين يشتد عوده، ويتأهل لأخذ الطريق، كخبر أبي العباس المرسي حين عمل عصيدة في يوم حار، فقالوا له: العصيدة لا تعمل إلا في أيام الشتاء؟! فقال: هذه عصيدة ولدنا ياقوت ولد اليوم ببلاد الحبشة! فلم يزل ياقوت يباع من سيد.. حتى جاء إلى أبي العباس، وحسبوا عمره فوجدوا عمره كما قال![2]

وقد يهبط التنزل في الخبر إلى درجتين، وتتم معرفته بمريده وهو في سن الرضاعة، والقيام بحفظه وإن كانت بينهما مسافة تنقطع دونها أعناق المطي، فقصة البدوي شاهد لذلك وهو الذي ادعى أنه رعى مريده عبد العال، وخلصه من قرن الثور، وكانت أم عبد العال قد وضعته في معلف الثور وهو رضيع، فطأطأ الثور ليأكل فدخل قرنه في القماط فشال عبد العال على قرنيه؛ فهاج الثور، فلم يقدر أحد على تخليصه منه، فمد البدوي يده وهو بالعراق فخلصه من القرن![3]

---

(١) (ص:٣٥٣).

(٢) (ص:٣٨١).

(٣) (ص:٣٦٢)، والغريب من أمر عبد الوهاب الجوهري اختراعه طريقة جديدة في معرفة مريديه، فكان إذا جاءه شخص يريد الصحبة يقول له: دق الوتد في هذا الحائط، فإن ثبت الوتد في الحائط أخذ العهد، وإن خار ولم يثبت يقول له: اذهب ليس لك عندنا نصيب. قال الشعراني: وقد دخلت الخلوة ورأيت الحائط غالبها شقوق وما ثبت فيها إلا بعض أوتاد، وكان الشيخ يعلم من هو من أولاده بالكشف! وإنما يفعل ذلك إقامة حجة على المريد ليقضي بذلك على نفسه ولا تقوم نفسه من الشيخ.

قلت: لا يعلم الغيب أحد إلا الله ـ ، وتصوير ما سبق يقضي بتأليه الشيوخ وغرس تقديسهم في قلوب الأتباع، والاستغاثة بهم، وهذا من مكر إبليس، ويكفي للرد عليه ما أمر الله به نبيه بقوله تعالى: ((قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)).

**المريد البعيد:**

ويمتد مجلس الشيخ إلى خارج أسوار الزاوية التي يتلقى فيها المريدون السلوك، فليس هنالك حدود تحول بين الشيخ ومريده، بل يستحيل الفضاء كله مجلساً للعلم قبل الوصول إلى أجهزة العلم الحديث في الاتصالات، فيكون لهؤلاء سبق الكشف والوصول إلى ذلك، فشمس الدين الحنفي كان إذا نادى مريداً له من أقصى بلاد الريف من القاهرة يجيبه، فإن قال مسرعاً: تعال سافر إليه أو افعل كذا فعله، ونادى يوماً أبا طاقية من بلد قطور بالغربية فسمع نداء الشيخ فجاء إلى القاهرة[1].

وكان إبراهيم الجعبري أيضاً له مريدة تسمع وعظه، وهو بمصر وهي بأسوان من أقصى الصعيد، فبينما هو يعظ الناس وهم يبكون أنشد:

**قاعدة في الطاقة والكلب يأكل العجين**

**يا كلب كل وتهنى ما للعجين أصحاب**

فالتفتت المريدة فإذا الكلب يأكل عجينها، وأرَّخوا الحكاية فجاء الخبر بذلك[2].

---

(١) (ص:٥١٤).

(٢) (ص:٣٤٣).

**دعوى رعاية الشيط المقبور لمريده:**

لا ينتهي العقد في بعض التراجم بين الشيخ ومريده بالموت، وانتقال الشيخ إلى قبره يواريه التراب، بل تصور لنا الطبقات استمرار الرعاية وأحياناً القراءة والإطلاع على أحوال المريدين وهم في الأجداث، ولا يفسد الموت العلاقة بينهما، فأبو المواهب الشاذلي يجرعنا سماع هذه الغصص المتتالية في سياق واحد لا يدعنا نتجرع الأولى إلا ويأتي بأكبر منها في قوله:

- من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته أكثر ما ينفعه حال حياته! فهذه واحدة.

- ومن العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة! وهذه ثانية.

- ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتاً في قبره، ويسمع مريده صوته من القبر! وهذه ثالثة.

- ولله عباد يتولى تربيتهم النبي ﷺ بنفسه من غير واسطة بكثرة صلاتهم عليه، وهذه أخراهن[1].

والحكاية تضمنت الشرك الصراح والكفر البواح: * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ & [الأعراف:١٩١] * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ & [الأعراف:١٩٧] * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ & [الأعراف:١٩٣] * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ & [الأعراف:١٩٤].

---

(١) (ص:٤٧٩).

ومن الترهات أيضاً مصافحته المريد من القبر، ونترك الحديث للشعراني نفسه يقصه بقوله: وسبب حضوري مولده - البدوي - كل سنة أن شيخي محمد الشناوي قد كان أخذ علي العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد، وسلمني إليه بيده، فخرجت اليد الشريفة من الضريح! وقبضت على يدي! وقال: يكون خاطرك عليه، واجعله تحت نظرك، فسمعت سيدي أحمد من القبر يقول: نعم[1]!!

وتظل غيرة الشيوخ على مريديهم مستمرة بعد الموت، فقد قدم شخص من مريدي الشيخ أبي العباس البصير على عبد الرحيم القناوي بعد وفاة الشيخ أبي العباس، وكان القناوي يأخذ العهد على جماعة من الحاضرين، فمد يده ليد فقير أبي العباس وهو في المحراب، فخرجت يد أبي العباس من الحائط فمنعت الشيخ عبد الرحيم، فقال: رحم الله أخي أبا العباس يغير على أولاده حياً وميتاً[2]!!

وما دام الشيخ قد مات وأفضى إلى ما قدم فإن اليد التي مدت إنما هي بقصد الإضلال من قبل الشيطان؛ فتلقي في قلوب الأتباع أنه ما زال يعتني بهم بعد موته.

**التربية عند الصحابة:**

لم تزل تفعل الحكايات الصوفية فعلها في تربية المريدين حتى استكانوا لشيوخهم فلا ينكرون عليهم ولو فعلوا المنكر الذي لا مرية فيه، والقصص في هذا المجال كثيرة تمرّن المريد على الخضوع، ويرتضع من لبانها منذ وضع قدمه في الطريق، ولأن معرفة منهج السلف في

---

(١) (ص:٣١٤)، ذكر ذلك في ترجمة البدوي، ولما وصل إلى ذكر شيخه الشناوي قال: وكان عنده جماعة أحمد البدوي بمكان سمعته مرة يحدثه في القبر وسيدي أحمد يجيبه.

(٢) (ص:٣٦٢-٥٧٩).

التربية يفضح مسلك التصوف الذي سبق تقريره فإننا نعرج على مواقف رائعة تكشف سلامة التربية، و في الوقت ذاته تدين المنهج المخالف، وبضدها تتميز الأشياء.

وقد استوقفني من أمرهم موقفان حدثا في الكوفة التي وليها كلٌ من ابن مسعود وأبي موسى الأشعري ب وبينما هما في أحد المجالس الطيبة:

قال أبو موسى لابن مسعود: أرأيت يا أبا عبد الرحمن إذا أجنب فلم يجد الماء كيف يصنع؟ فقال أبو عبد الرحمن: لا يصلي حتى يجد الماء.

فقال أبو موسى: فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي ﷺ: كان يكفيك؟!

فقال ابن مسعود: ألم تر أن عمر لم يقنع بذلك.

فقال أبو موسى: فدعنا من قول عمر كيف تصنع بهذه الآية: * فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا & [النساء:٤٣] فما درى عبد الله ما يقول، فقال: إنا لو رخصنا لهم في هذا لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه ويتيمم. اهـ(١).

وما أجمله من حوار! يكفينا دليلاً على السبق والفضل، ولئن ثبتت الحجة لأبي موسى الأشعري هنا وصال بها في انتقاله من دليل إلى ما هو أوضح منه حتى ما درى ابن مسعود ما يقول، فإن الموقف الآخر يفوز ابن مسعود فيه بالحجة وهو في الكوفة أيضاً، وكأني بأبي موسى وقد وردت عليه مسألة في الفرائض فيها: بنت وبنت ابن وأخت، فقضى للبنت النصف، وللأخت النصف، وأسقط بنت الابن، ثم استدرك قائلاً للسائل: وائت ابن مسعود فسيتابعني. فسئل ابن مسعود وأخبر باستدراك أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من

(١) رواه البخاري (٣٤٦).

المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ: للبنت النصف، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتى السائل أبا موسى وأخبره بالجواب فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم [(١)].

فانظر - يا رعاك الله - إلى هذا المنهج السديد في مدارسة العلم والإنصاف، والاعتراف بالحق والرجوع إليه، وغيرها من الفوائد التي أوردها ابن حجر العسقلاني في شرحه هذين الحديثين في فتح الباري، وشتان بين النظر في الحجة والرجوع إليها وبين منهج الجمود على رأي الشيخ، ولئن خرجت قليلاً عن الموضوع فالحاجة اقتضت إلى ذلك.

ولا ندع ذكر عمر بن الخطاب ا يمر بنا دون أن نقضي منه وطرنا، ونطرب عنده بصوت آخر، فالسبب في قول ابن مسعود ا بأن عمر ا لم يقنع بذلك يرجع لكونه أخبره عمار أنه كان معه في تلك الحال، فقال: اتق الله يا عمار. قال: إن شئت لم أحدث به. فقال عمر: نوليك ما توليت[(٢)]. وقد فسر ابن حجر الجملة الأخيرة بقوله: (أي: لا يلزم من كوني لا أتذكره أن لا يكون حقاً في نفس الأمر، فليس لي منعك من التحديث به) [(٣)] اهـ.

والملمح المهم في ذلك إعلام عمار لعمر بحديث النبي ﷺ، وعدم حمل عمار على رأيه مع أنه - أعني عمر ا - رأس الملهمين وليس في الملهمين أفضل منه؛ لقوله × في الحديث الصحيح: (قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم)[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٣٦).

(٢) رواه مسلم (٣٦٨).

(٣) فتح الباري (١/ ٤٥٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨) واللفظ له.

ومع ذلك تأمل مراجعة عمار له في المسألة السابقة تجد أنه لم يدع العصمة، مع أنه قد وافق ربه في بعض أشياء، وناقشه الصحابة في أمور ورجع إلى قولهم، كمناظرة أبي بكر ا له في مانعي الزكاة وغيرها، فماذا يقول هؤلاء الصوفية الذين يحتجون بالإلهام ويأخذون الأثر بخلاف مأخذه الصحيح؟!

**وخاتمة الفصل:**

يورد الصوفية شبهات في باب التربية الذليلة التي ابتدعوها نقف عند اثنتين:

الأولى: القول بحفظ الشيخ، والثانية: الاستدلال بقصة موسى والخضر إ ، فأما ما كان من حفظ الشيخ فإنهم يضاهئون به عصمة الأئمة عند الرافضة، وقد أثبت القول بالحفظ للأولياء القشيري بقوله: (ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً كما أن من شرط النبي ﷺ أن يكون معصوماً)، والسبب يعود عندهم كون الحق يتولى تصرفه (فيصرفه في وظائفه وموافقاته فيكون محفوظاً فيما لله عليه، مأخوذاً عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل وهو العصمة)[1].

وقد وضح شيخ الإسلام هذا الغلو الذي يقضي بالعصمة فقال في منهاج السنة: (وكثيراً من الغلاة في المشايخ يعتقد أحدهم في الشيخ نحو ذلك، ويقولون: الشيخ محفوظ ويأمرون باتباع الشيخ في كل ما يفعل لا يخالف في شيء أصلاً، وهذا من جنس غلو الرافضة والنصارى والإسماعيلية تدعي في أئمتها أنهم كانوا معصومين) وأضاف في موضع آخر قوله: (بل كثيراً من الناس من عبادهم وصوفيتهم وجندهم وعامتهم يعتقدون من شيوخهم العصمة من جنس ما يعتقده الرافضة في الاثني عشر، وربما عبروا عن ذلك بقولهم: الشيخ

(١) الرسالة للقشيري (٢/ ٥٢١) والتعرف للكلاباذي (ص:١٤٧).

محفوظ)، وقال في الفتاوى (أما الشرك فغالب عليهم أن يحبوا مشايخهم أو غيره مثل ما يحبون الله ويتواجدون على حبه)[1].

وأما الاستدلال بقصة موسى والخضر | الذي يبتغون من ورائه القول بامتلاك العلوم اللدنية فإنه مردود، وتنحل أول عقدة منه بالقول بنبوة الخضر لقوله: (وما فعلته عن أمري)، وتنحل الثانية بالقول بوفاته، وسيأتي الحديث عن ذلك.

(١) منهاج السنة: (٦/ ١٧٥-٤٣٠)، مجموع الفتاوى (١٠/ ٤١٧).

# المبحث الرابع
# العلم ووسائل التلقي عند الصوفية

أعظم الطرق التي يدخل على العبد الفساد من خلالها الجهل، وخطورته كبيرة، وآفاته وظلماته كثيرة، وعلى قدر إشراق نور الوحي فإن هذه الظلمات تتبدد، ويكون حظ العالم من النور دليل منزلته وفضله على غيره، كما رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[1].

وقد أمر الله تعالى بالعلم والتفقه في الدين فقال: * فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ & [التوبة:١٢٢]، وأمر نبيه بطلب الزيادة من العلم بقوله تعالى: * وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ & [طه:١١٤] فطريق العلم هو طريق الأنبياء وإرثهم الذي تركوه لنا، فينبغي حيازة النصيب الوافر منه، وهو يعصم من الفتن، وبه تصح العقائد، وعليه تبنى الأعمال، ومن وفق للعلم فقد هدي إلى الخير والرشاد، فما أجمل حليته، وما أعظم نشره:

أفد العلم ولا تبخل به وإلى علمك علما فاستفد

استفد ما اسطعت من علم وكن عاملا بالعلم والناسَ أفد

والحديث في العلم ذو شجون، وقد فاخر الهدهد بحجته على سيدنا سليمان × بقوله: * أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ &، والميل عن العلم خطر

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

على المرء، والسائر بدونه ماض إلى السراب والتيه، والجهل مفتاح لباب البدع، مضر بالعبد أيما ضرر.

**مسلك التصوف:**

يدلف الصوفية في الوصول إلى التوحيد المتمثل في الفناء عبر الرياضة التي قرروها ولا يلتفتون إلى العلم، بل يعد عند رهط منهم أنه قاطع للطريق؛ لأن رياضتهم منابذة لطريق العلم، بل ومحاربة له في بعض الأقوال، فالرياضة عندهم هي السبيل للغاية، كما قال محمد الثقفي: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبالغ الرجال إلا بالرياضة من شيخٍ أو إمامٍ مؤدبٍ ناصحٍ[(١)].

وقال علي الخواص: لا يسمى عالماً عندنا إلا من كان علمه غير مستفاد من نقل أو صدر بأن يكون خضري المقام، وأما غير هذا فإنما هو حاك لعلم غيره فقط[(٢)].

وخضري المقام يشير إلى ما يدندنون حوله من امتلاك العلوم اللدنية وهي ليست بعقيدة ولا فقه أو حديث أو علوم الشريعة، ولكنها شيء آخر وراء العقل تدق عن المدارك السليمة، فحديثهم إنما هو في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، والأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك والمقربين، وشأن القبضة ورجال القبضة، والعلوم المكتوبة في ألواح المعاني، وفهم رموزها، ومعرفة كنوزها، وفك طلسماتها، وعلم اسمها ورسمها، والعلوم المودعة في النقط، وكذلك لهم في معاني الحروف والقطع والهمز والشكل والنصب والرفع ما لا يحصر ولا يطلع عليه

(١) (ص:١٨٤).

(٢) (ص:٦١١).

إلا هم كما يراه إبراهيم الدسوقي[١].

**الهجوم على حملة العلم:**

ولم يعد ترك العلم والتعلم منهجاً يرتضونه فحسب، بل نرى بعضهم قد سدد السهام لحملة العلم لا سيما الفقهاء منهم، ونظر إلى علومهم بالازدراء والنقيصة في مقابل علوم التصوف التي هي فيض أو لقاء بالنبي ﷺ يقظة أو الخضر أو النظر إلى المريد، وربما عن طريق التفلة أيضاً، وسبب حملتهم المضادة للفقهاء تعود إلى أن العلم الشرعي قد يحكم بفساد أمرهم فاتخذوه عدواً، ولنذكر أولاً شن حملاتهم على العلم وأهله، ونبدأ بما نقلوا عن السابقين ونسبوه إليهم حتى يتوكأوا عليه في تزيين باطلهم فمنهم:

- الجنيد: المريد الصادق غني عن علم العلماء، وإذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء[٢].

- أبو يزيد: كان يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وقال أيضاً: لقد عملت ثلاثين سنة في المجاهدة، فما وجدت شيئاً أشقى على العبد من العلم ومتابعته[٣].

---

(١) (ص:٣٨١)، واستطرد قائلاً: وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء، وما في جباه الإنس والجان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق، وما تحت التحت، ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم! فإن مواهب السر اللدني قد ظهر بعضها في قصة موسى والخضر إ ،وبعض علومه مطلسمة لا يهتدي أحد إلى فك رموزها، وبعضها لا يعرفها إلا الذي يسمونه ختم الأولياء.

(٢)) (ص:١٤٧).

(٣) (ص:١٠-١٣٢).

السري السقطي: إن القراء تلعب بهم الدنيا كما يلعب الصبيان بالكرة[١].

ونحن نقول: إن العلم المزموم بأعنة الكتاب والسنة والذي يثمر الخوف من الله طلبه واجب، ومتابعته متعينة، قال تعالى: * إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ & [فاطر:٢٨]، وقال: * فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ & [النحل:٤٣]، وأما المسائل المحالة وتتبع القضايا المولدة فقد حذر السلف منها، ومراد الصوفية يسير بطريق آخر، حيث إن سبيل المجاهدة هو الموصل للغاية، والعلم ربما شغل المريد عن غايته.

وما زال التحذير من العلوم يتطور عندهم حتى برزت لغة جديدة في هذا الخطاب عبّر داود بن ماخلاّ عنها بقوله: عليك باستماع الأخبار الطرية التي لم تحدث عن وجود فكر وروية![٢]

وصاغها أبو المواهب الشاذلي بأسلوب آخر فقال: الفقيه من ارتضع بلبن حي الصدور دون قديد ميت السطور![٣]

ويقصدون بالأخبار التي تحدث عن روية بأنها التي يتلقاه طالب العلم من الشيوخ الذين تلقوها عن شيوخهم المعبر عن علمهم بأنه قديد ميت السطور، ويقصدون بالأخبار الطرية التي يتلقونها كما يزعمون من الله أو يأخذونها من اللقاء برسوله أو الخضر وهو لبن

---

(١) (ص:١٢٩).

(٢) (ص:٣٢٥).

(٣) (ص:٤٧١)، وقال أيضاً: إذا رأيت من رزق العلوم وفتح له خزائن الفهوم فلا تحاجه بنقل الطروس، ولا تجادله بعزة النفوس، وتقول: هذا لم نجده في الأسفار عن أحد من الأغيار، فإن المواهب تفوق الكاسب.

حي الصدور، وما ذاك إلا أنهم لم يذوقوا طعم العلوم الشرعية فذموها، ولو اقتدوا بالصحابة لما عابوا طريق التلقي:

أتانا أن سهلاً ذم جهلاً علوماً ليس يدريهن سهل

علوماً لو دراها ما قلاها ولكن الرضا بالجهل سهل

ويعترف أبو الحسن الشاذلي بجلالة العلوم ولكنه يستدرك فيصفها بأنها ظلمة في جانب علوم القوم الذين غرقوا في تيار بحر الذات، وغموض الصفات، فكانوا هناك بلا هم! وكان يقول: إننا لننظر إلى الله تعالى ببصائر الإيمان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان وصرنا نستدل به تعالى على الخلق[1].

## دعوى التلقي بلا واسطة:

لقد استعاض الصوفية عن العلم ووسائله بطريق مختصرة لا عنت فيها، وزعم بعضهم أن العلوم تكون بالتلقي بلا واسطة؛ فيفتح لهم باب المخاطبات خاصة أهل التحقيق منهم، واعتبروا أنفسهم مختصين بعلوم دون غيرهم، واستعملوا في التعبير عنها الرمز والإشارة، وقد جاروا في ذلك الرافضة حين خصوا الأئمة بالأسرار والعلوم الخاصة، وكل هذا لا يصح؛ لأن دون الغيب أقفال؛ لقوله تعالى: * قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ & [الجن:٢٧].

---

(١) (ص:٣٦٣)، ويعوض المريد عن الاشتغال بالعلوم بقراءة تراجم الصوفية التي تشوقه للمضي في الطريق فأما إذا اشتغل بالفصاحة فقد تودع منه، قال الدسوقي: ما اشتغل أحد بذلك إلا وقطع به، وأما حكايات الصالحين وصفاتهم فمطالعتها للمريد جند من أجناد ما لم يقنع بها في الطريق.

وقد ذكر الشعراني في مقدمة طبقاته رسالة لابن عربي بعثها إلى الفخر الرازي الذي انتهت إليه رئاسة العلوم في زمنه، تعبر هذه الرسالة بكل وضوحٍ عن مسلك الصوفية في أخذ العلم، فقد قال له: (إن الرجل لا يكمل عندهم في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاد من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله ﷻ؛ لأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفنى الرجل عمره فيها ولا يبلغ إلى حقيقتها، ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله ﷻ لأوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى، فتأخذ عنه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر، كما أخذه الخضر × ، فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين!)[1].

وهذه العبارة جديرة بالوقوف عندها؛ لما حوته من ملامح التلقي ممن يعد من أقطاب الفكر الصوفي وفيها:

- ذم طريق العلم المستفاد من نقل أو شيخ، وهو السبيل الذي عليه السلف الصالح من مدارسة العلم ومجالسة أهله أخذاً بوصية الله ﷻ، وما ورد في سنة النبي ﷺ، فهذا طريقنا أخذناه عن الصحابة عن هذين المصدرين، وهي طريقة معلولة عند ابن عربي، فمن أين أخذوا طريق التلقي بلا واسطة؟!

- التسليك عن شيخ - في العبارة السابقة - لا ينافي ما قرره من ذم الأخذ عن شيخ؛ لأن المريد عندهم يسلم نفسه لشيخ ينقله عبر الرياضة إلى مرحلة الفناء، وهي غاية اختطوها لأنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، لا المراد به شيخ علم، فلينتبه لهذا، وهذه المحجة التي

(١) (ص:١٠).

تركنا عليها رسولنا الكريم عارية عن هذه الأوهام فأي الفريقين أحق بالاتباع طريق وعرة وفيافي مهلكة تصل إلى ما يسمونه الشهود أم طريق علم وهدى سهلة ميسرة تقود إلى التوحيد الصحيح اقتفاها الصحابة الكرام؟!

ما ذكره من الاستدلال بقصة الخضر لا يسلم له فيها؛ لأن الخضر × كان على علم من عند الله يوحى إليه لأنه نبي لقوله لموسى × : * وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى & [الكهف:٨٢]، وسيأتي رد هذه الشبهة.

لقد صدق ابن مسعود I إذ قال: (من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد- ﷺ- ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[(١)].

**من دعاوى القوم:**

قال إبراهيم الدسوقي: إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة، وقد سبق عن أبي المواهب الشاذلي قوله: إن من العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة على جهة العموم[(٢)].

وأما أبو العباس المرسي فيشطح قائلاً: لو أردت عدد الأنفاس أن أقول: قال الله! لقلت، ولو أردت عدد الأنفاس أن أقول: قال رسول الله! لقلت[(٣)].

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٨١٠) عن ابن مسعود. وروى نحوه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٥-٣٠٦) عن ابن عمر.

(٢) (ص:٣٩٤-٣٧٤).

(٣) (ص:٣٧٩).

ومنهم محمد الفرغل الذي يقول: كنت أمشي بين يدي الله تعالى تحت العرش! وقال لي كذا! وقلت كذا! وسيأتي أن قاض كذبه في ذلك فدعا عليه بالخرس[١].

ومنهم علي محمد وفا في قوله: قال روح الله علمي وأنا كالقائم لما أكل من عهدنا إليه، نسي أين كان من تقربه فلا تنس، قلت يا مولاي! في حوصلة الروح الأمين؟ فصوب لي ربي عندي ما ألهمني كما أشهدني وأوجدني[٢]!

وربما عبر بعضهم بالعبارة المشهورة حدثني قلبي عن ربي! قال بعضهم: لا إنكار على من قال ذلك؛ لأن المراد: أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء وهو دون وحي الأنبياء[٣].

وهذه الدعاوى العريضة التي تجرأوا فيها وزعموا مخاطبات ومحادثات لا رائحة للصحة يمكن حصرها في أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أنها خيالات فاسدة ناتجة عن الجوع المفرط والسهر المتواصل أياماً، بل شهوراً بل سنوات كما سيأتي في أركان الرياضة، فربما نشأت هذه المخاطبات من تلك المجاهدات فسببت جفاف دماغ؛ فأنشأ السالك يتحدث بما لم يبلغه عقله.

---

(١) (ص:٥٣٢).

(٢) (ص:٤١٤)، وكان أبوه محمد وفا يقول: قال لي الحق: أيها المخصوص، لك عند كل شيء مقدار، ولا مقدار لك عندي؛ فإنه يسعني غيرك، وليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي وكل شيء مجازك! وأنا وجود في الحقيقة معدوم في المجاز! يا عين مطلعي أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتي، إليك يرجع الأمر كله وإلى مرجعك؛ لأنك منتهى كل شيء ولا تنتهي إلى شيء طويت لك الأرضين السبع في سبع من حب النوى.. (٣٩٤).

(٣) (ص:٤٧٣).

الثاني: الخلوة التي تأوي إليها الجن تدل على صحة ما ادعوه في سماعهم مخاطبات ولكنها من الشيطان، فيرون أن الله يخاطبهم ويحدثهم وليس الأمر كذلك، وقد سبق أمر النور الذي رآه الجيلاني يخاطبه بقوله: أنا ربك، فعلم أنه شيطان واستعاذ منه، وذكر أنه أضل سبعين من القوم، قال شيخ الإسلام: (هذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا؛ لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما هو الشيطان)[1].

وينقل الحافظ ابن حجر ما يتفق مع هذا بقوله: (فمن ظن أنه يكتفي بما يقع في خاطره بما جاء به الرسول ﷺ فقد ارتكب أعظم الخطأ، وأما من بالغ منهم فقال: حدثني قلبي عن ربي. فإنه أشد خطأً، فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدثه عن الشيطان، والله المستعان)[2].

وعلى كلا الأمرين: فقد ظهرت الإصابة بداء عضال، فعلاجه في الأول الالتفات إلى النفس بالأكل والنوم وطلب الراحة، وعدم المضارة بما لا تطيق، وأما الثاني فبرؤه قراءة آية الكرسي؛ فإنها مطردة للشيطان، وبهما يذهب عن السالك ما يجد من رؤى ويفيء إلى عقله.

## دعوى التلقي عن رسول الله × والاجتماع به يقظة:

ومن مصادر العلوم أيضاً ما كثر الحديث عنه من اللقاء برسول الله يقظة، وهو يعد من الضلالات التي ما فتئوا يستمدون من خلالها العلوم حين يلقاهم في الخلوة أو الحضرة، ويتعلمون منه أذكارهم وصلواتهم، بل وأحياناً الأوامر التي قد وصد دونها الباب، وما لهم في ذلك من برهان، وقد أعيتهم النصوص أن يستدلوا بها فتعلقوا بما لا حجة لهم فيه، وهو

(١) الفتاوى: (١/ ١٧٢).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٤٥).

حديث أبي هريرة مرفوعاً: (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي)[١].

ويتضح من الرواية أنه على سبيل التمثيل والتشبيه، وقد أنكر القرطبي من زعم رؤيته في اليقظة، وألزمه بأن يقول: إنه يخرج من قبره، ويمشي في الأسواق، ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى قبره فيه شيء، فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب؛ لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل[٢]!!

وما طمع الشيطان في الصحابة في هذا الأمر الذي هو من فعل الشياطين، كما قال شيخ الإسلام: (والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه إما النبي ﷺ وإما غيره من الأنبياء يقظة، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد يستفتونه ويسألونه عن أحاديث فيجيبهم)[٣].

ودعوى الرؤيا يقظة والاجتماع به محالة؛ إذ إنه عليه الصلاة والسلام في قبره الشريف ولم يقل السلف بشيء من هذا، ولو كان خيراً لسبقونا إليه مع قيام المقتضى لذلك في الفتن التي حاقت بهم، وقد وقف بعض الفقهاء لمن زعم أنه يلتقي بالرسول ﷺ يقظة بالمرصاد، ومن هنا عد الشعراني أن عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي ابتلي بالإنكار عليه حين قال: إنه يرى رسول الله يقظة ويشافهه، ومحمد بن أبي جمرة أنكروا عليه في دعواه رؤية رسول الله يقظة[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦).

(٢) انظر فتح الباري (١٢/ ٣٨٥)

(٣) الفتاوى (٢٧/ ٣٩٢).

(٤) (ص:٢٧٠-٣٤٢).

قال ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٣٢٠) في ترجمة أحمد الحساني الصوفي: إنه من زنادقة الوقت زعم أنه يجتمع بالأنبياء كلهم في اليقظة، وأن الملائكة تخاطبه في اليقظة، وأنه عرج به إلى السموات.

وقد اضطرب القائلون بالرؤية من الصوفية وغلوا في ذلك غلواً شديداً حتى رتبوا على ذلك خرافات كثيرة، وما زال بهم الوهم حتى قال أبو العباس المرسي: لي أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله! ولو حجبت طرفة عين ما عددت نفسي من جملة المسلمين![1]

وقد زعم إبراهيم المتبولي بأنه لم يكن له شيخ إلا رسول الله، وكان يجتمع بالنبي ﷺ يقظة ويشاوره في أموره! وقد سبق النقل عن الأنوار القدسية وفيها: أن علياً الخواص - شيخ الشعراني - أخذ عن إبراهيم المتبولي، فيكون بين الشعراني والرسول ﷺ رجلين، ثم عليا الخواص لم يمت حتى أخذ عن النبي ﷺ من غير واسطة كما أخذ شيخه المتبولي، فبين الشعراني وبين رسول الله واحد فقط![2]

ولا ندري هل نقل عن الشعراني نفسه بإطلاق دعوى الأخذ من النبي ﷺ حتى يعلو سنده - بإسقاط شيخه - أم لا؟!

**نماذج من دعاوى أبي المواهب الشاذلي في هذا المقام:**

وقد ذكر الشعراني في الطبقات جملة من حال هذا الصوفي في دعواه الاجتماع بالنبي ﷺ يقظة، وأنه كثيراً ما يراه ويحدثه بأشياء، ويأمره بأخرى، ولكي يرغّب الناس في حضور مجالسه كان يقول: رأيت رسول الله فقال لي: ما أحسن مجلسك! قد غفر الله لكل من حضره بذكركم لله تعالى عقب فراغه! وقد زاد حديثه عن تلك الرؤى وأفرط حتى ضاق به جالسوه ذرعاً فكذبوه في دعواه الدعية.

---

(١) (ص:٣٨٠)، وأما محمد الشاذلي فعنده المراد برؤيته كذلك يقظة القلب لا يقظة الحواس الجسمانية، فلا يرى إلا بروحه المتشكلة بتشكل الأشباح من غير انتقال بانتقال ذاته الشريفة ومجيئها من البرزخ.

(٢) سبق في مقدمة البحث.

فمنها: أنه ألبسه خرقة التصوف!

ومنها: أنه قال له: أنت تشفع لمائة ألف بسبب ثواب الصلاة عليه!

والحقيقة أن امتلاك هذه الشفاعة لم تشفع له عند خصومه الذين تأكد لهم كذبه، ولعله زعم ذلك حتى يستجدوا منه المن عليهم بها ويدخلهم في المائة ألف!

ومنها أيضاً للسيطرة عليهم أنه تفل رسول الله في فمه فقال: ما فائدة هذا التفل؟ فقال: لا تتفل بعدها على مريض إلا ويبرأ!

ولما رأى أن حيلته لا تصل إليهم بشيء، وأنهم لا زالوا على موقفهم من التكذيب ألقى أقصى ما يزعمه لإرهابهم وتخويفهم بأن قال: قلت لرسول الله: إن الناس يكذبونني في صحة رؤيتي لك، فقال له رسول الله: وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها أو كذبك فيها لا يموت إلا يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً!

والمكذب له لم يهدم ركناً من أركان الدين! بل على العكس فقد فعل واجباً من الواجبات التي يأثم تاركها.

وفي بعض الأحيان يسأل عن صحة الأحاديث كالحديث المشهور: (اذكروا الله ذكراً كثيراً حتى يقولوا: مجنون) [(١)]، وفي رواية ابن حبان: (أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون) [(٢)]،

---

(١) رواه أبو يعلى (١٣٧٦).

(٢) رواه أحمد (١١٦٧١)، وابن حبان (٨١٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٧)، وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٠-٤١)(٢٦٧٠) عند ذكر مناكير دراج أبي السمح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٥): رواه أحمد وأبو يعلى وفيه دراج وقد ضعفه جماعة وضعفه غير واحد وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات. وهو في السلسلة الضعيفة للألباني (٥١٧).

فيزعم بأن الجواب من النبي ﷺ قوله: صدق ابن حبان في روايته، وصدق راوي (اذكروا الله..) فإني قلتهما معاً، قلت: هذا مرة وهذا مرة!

وهذه طريقة لو فتحت لأبطلت علم الرواية والدراية معاً، بل لأبطلت الشريعة فتخضع لأهواء أصحاب المنامات، وما أحوجنا إلى درة عمر ا لتأديب أصحاب الخيالات والمنامات التي تكون شراكاً لأخذ المال، واكتساب حطام الدنيا!!

وهو لا يستنكف أن يصرح بأن من أوامر رسول الله له أن يأخذ من مال السلطان جقمق، ويطلع فعلاً إلى السلطان عملاً بهذه الرؤيا فيعطيه السلطان مائة دينار، وهو مبلغ لا يرضى به، فيقول للناس: خذوا من مال السلطان دون حواشيه، فإن رسول الله أمرني أن أطلع إلى السلطان جقمق وأسأله الدنيا، فطلعت فأعطاني مائة دينار واعتذر إلي بأن ما عنده غيرها.

ولا يستحيي هذا الشاذلي في حديثه حين يضلل أتباعه أن الرسول ﷺ يأمر بما يضاد التوحيد - حاشاه - وهو الذي سد ذرائع الإشراك فكان مما قاله: رأيت النبي ﷺ فقال: إذا كان لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فلساً؛ فإن حاجتك تقضى.

والنذر لغير الله شرك لا مرية فيه، ولا يقضي الحاجات إلا الله، ومن حاد عن ذلك فقد أبان لنا جهله بدين الله.

وإذا أردنا عين الحقيقة وراء هذه الأخبار فإن الشاذلي نفسه ينبئنا بتأويلها فيصرح بأن حنشاً - ثعباناً - مرة دخلت ثيابه - والحنش هذا هو الجني الذي يقترن به - وقد بدا له فيه أمر! فربما الأمر هو الوقوف وراء هذه المصائب المذكورة، قال: فرأيت رسول الله فسألته عن ذلك فقال: الحنش هو صاحبك فلان قد بدا له فيك ورجع يؤذيك، ولولا خوفه منك لعمل

جهده في إيذائك فكان الأمر كما قال[١].

ونحن نقبل منه التصريح بإيذاء صاحبه فلان له، ونحمل ما خلط فيه على هذا الإجمال، ونرد ما زعمه من رؤية رسول الله، ولا تخفى خطورة الكذب على النبي ﷺ، وقد عرفنا تأويل رؤياه هذه التي ظهر له فيها جنيه كما سبق.

وما ورد من تلفيقات تضمنت مخالفات صريحة منها النذر لغير الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والشفاعة المزعومة، والأمر بلبس الصوف تناقض هدي الرسول، وتكشف لعب القرين به، وهو قرين يشبه ما ذكره شيخ الإسلام بأن شخصاً في عصره قتل بسيف الشرع سنة (٧١٥ هـ) أنه كان له قرين يأتيه ويكاشفه، فيصدق تارة ويكذب تارة، وانقاد له طائفة من المنسوبين إلى أهل العلم والرئاسة فيكاشفهم، حتى كشفه الله لهم قال معللاً ما سبق: (وذلك أن القرين كان تارة يقول له: أنا رسول الله ويذكر أشياء تنافي حال رسول الله فشهد عليه أنه قال: إن الرسول ﷺ يأتيني ويقول لي كذا وكذا من الأمور التي يكفر من أضافها إلى الرسول ﷺ)[٢].

**دعوى التلقي عن الخضر:**

يعد الاجتماع بالخضر من أهم الوسائل التي يعرج عليها الصوفية في طريقتهم؛ لأنه البوابة التي من خلالها يتلقون العلوم اللدنية بعد أن قرروا أن الخضر من الأولياء، وأنه لا يزال حياً يجتمع بهم في الفلوات والخلوات، ويجعلون قصته أصلاً في صحة مخالفتهم لظاهر الشرع، وأول ما تنحل به عقدة قولهم هذا القول بنبوته، وهو الصحيح المعتمد عند السلف، كما قال ابن كثير في البداية والنهاية: (الخضر أقدم على قتل الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه

---

(١) (ص:٤٧٩-٤٨١).

(٢) الفتاوى: (٣٥/ ١١٦).

من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة إذ يجوز عليه الخطأ باتفاق)[١].

وقال ابن حجر في فتح الباري: (قوله: (هو أعلم منك) ظاهر في أن الخضر نبي بل نبي مرسل) [٢] اهـ .

ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: (وما فعلته عن أمري)، قال ابن حجر أيضاً: (ومن استدل بقصة الخضر على أن الولي يجوز أن يطلع من خفايا الأمور على ما يخالف الشريعة ويجوز له فعله فقد ضل)[٣] اهـ.

وقال في الزهر النضر: (وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبياً؛ لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي)[٤].

والعقدة الثانية تنحل بالقول بوفاة الخضر × وهو الذي خاض في تقريره، وأطال في تحريره ابن حجر في رسالة الزهر النضر، ومما قاله في خاتمة بحثه: (والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام في استمرار حياته)[٥].

والاحتجاج بقصة الخضر مع موسى على قولهم في امتلاك العلوم اللدنية نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً من جهتين:

---

(١) البداية والنهاية: (١/ ٣٣٤).

(٢) فتح الباري: (١/ ٢١٩).

(٣) فتح الباري: (١/ ٢٢٢).

(٤) الزهر النضر في أخبار الخضر: (ص:٢٩).

(٥) الزهر النضر في أخبار الخضر: (ص:١٦٢).

إحداهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، لقوله: (إني على علم من الله علمنيه الله لا تعلمه) والثانية: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى، بل كان موافقاً، لكن موسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك).

وقال أيضاً: الذين رأوا من قال: أنا الخضر هم كثيرون صادقون، والحكايات في ذلك متواترات، لكن أخطئوا في ظنهم أنه الخضر، وإنما كان جنياً، ولهذا يجري لليهود والنصارى، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر، ولكنه غلط في ظنه أنه الخضر وإنما كان جنياً[(١)].

**حيازة علوم الخضر:**

الحديث عن الخضر واللقاء به، وحيازة العلم اللدني منه حديث طويل الذيل في أخبار الطبقات، ويعد من القواعد التي يبنى عليها كثير من الأحاديث، فالرجل - عندهم - ليس من تلقى العلم من صدرٍ ونقل، بل يكون خضري المقام؛ إشارة إلى الاطلاع على خفايا العلوم اللدنية، فمنهم من يجتمع به في الفلوات والبرية كعلي السنجاري الذي قال: إن الخضر جاءه بعد أن ألبسه أبو بكر في المنام الطاقية وقال له: يا علي! اخرج إلى الناس لينتفعوا بك[(٢)].

وزعموا أن أبا العباس الآدمي حين عطش في بادية في طريق الحجاز أتاه الخضر على دابة شهباء وسقاه الماء، وأردفه خلفه، وأوصاه بالسلام على النبي ﷺ، وربما اعتذر من صحبته بعد أن يعرض نفسه عليه لأمر يخصه، فذات مرة قال: لقيته في بادية فسألني الصحبة

---

(١) الفرقان (ص:٢٢٦)، وقال في الفتاوى: (٢٧/ ٣٩٣) في فعل الشياطين التي يظن أن الخضر التقى به: (ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة إن الخضر أتاه، ولا موسى ولا عيسى، وأنه سمع رد النبي عليه).

(٢) (ص:٢٣٦).

فخشيت أن يفسد علي توكلي بالسكون إليه ففارقته[١].

وممن ذكروا لقاءه بالخضر أحد شيوخ أبي الحجاج الأقصري يسمى عبد الرزاق، ودار بينهما حوار في شأن أبي مدين، وقد أجابه الخضر عن أبي مدين بأنه إمام الصديقين في هذا الوقت، وسره من الإرادة ذلك أتاه الله مفتاحاً من السر المصون بحجاب القدس، ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه![٢]

وممن ذكر اجتماعه بالخضر علي النبتيتي، وأبو عبد الله التستري، وإبراهيم المتبولي كان يجتمع به كثيراً، وأبو سعيد القلوري يأتيه كثيراً، أما عبد الله القرشي فقد زاد على هؤلاء المجتمعين حيث قال: إن الخضر زارني ليلة فقال: اطبخ لي شوربة قمح! فلم أزل أحبها لمحبة الخضر، وكان يطبخ طعام القمح كثيراً لهذا الخبر![٣].

وهذه حكايات غريبة يمكن أن نقف عندها حتى لا تكون معطلة عن التعليق في ثلاثة مقامات:

- فالعجيب منها التصريح بإتيان الخضر × إلى هؤلاء القوم - وقد مات كما سبق ذكره - فيوافيهم في مجالسهم، ويكثر من زيارتهم، ويشبه أن يكون الذي يرونه جاناً يبتغي إضلالهم في صورة الخضر أو غيره، وهو ما عناه شيخ الإسلام من قوله في الفتاوى: (ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم: أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لي وأصير شيخك، وأنت تتوب الناس لي ويلبسه، فيصبح وعلى رأسه ما لبسه فلا

(١) (ص:١٦٧-١٦٨).

(٢) (ص:٢٦١).

(٣) (ص:٢٥٠-٢٦٩-٤٩٨).

يشك أن الصديق هو الذي جاءه، ولا يعلم أنه الشيطان، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام)[1].

- والأعجب أن يتلقوا منه ما يذلل لهم الطريق، ويلقون بين يديه ما يشكل عليهم فيحل الإشكال، ويظهر ما خفي من الأحوال - كحال أبي مدين مثلاً - مما يقنعهم بأنهم على الحق، وقد أتعبهم أن يجدوا ما يؤيد مذهبهم من النصوص فلاذوا على هذا الحديث، وهذا باب لو فتح لخرجت منه دعاوى كثيرة ودخل به الفساد العظيم.

- الأشد عجباً في هذا المقام الوصية بشربة القمح، وهي من الهالة التي تضفيها زيارة الخضر على المزور وما يرافقها من تعظيم له، كما أن فيها ترويج لهذه البضاعة بالفضل، حيث طلبها الخضر من مطبخ هذا الولي، ولا ندري أي خضر هذا يرتاد بيوت مصر ويسأل عن شوربة القمح، ولم يفصح السياق أيضاً عن المائدة التي قدمت له، وعلينا أن نبحث في أبواب طعام الجن وهل يرغبون في هذا اللون من الطعام أم لا؟ كما أن علينا أن لا نغفل المشابهة بين قول القرشي: لم أزل أحبها لمحبة الخضر، وبين قول أنس ا لم أزل أحب الدباء؛ لأنه رأى رسول الله يتتبعها كما في صحيح البخاري، نجد المحاكاة في التعبير وبالله التوفيق.

## دعوى التلقي عن جبريل والملائكة والصحابة والأولياء:

وكل ذلك قد جاءت نسبته في الطبقات، فعبد الرحيم القناوي كان إذا شاوره إنسان في شيء يقول أمهلني حتى أستأذن لك فيه جبريل × ، فيمهله ساعة ثم يقول له: افعل أو

(١) الفتاوى: (١٣/ ٩١)، وقال في كتابه الفرقان (ص:٢٠٧): (ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر إما الصديق أو غيره قد قص شعره أو حلقه، أو ألبسه طاقيته، فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصوص، وإنما الجن قد حلقوا شعره وقصوه).

لا تفعل على حسب ما يقول جبريل[١]!!

وأبو الحسن الشاذلي قيل له مرة: من شيخك؟ فقال كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر: محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح الأكبر[٢]!!

وفي رواية محمد الحنفي فائدة زائدة في هذا الموضوع، جاءت في ترجمته بقوله: وجدت مقام سيدي أبي الحسن الشاذلي أعلى من مقام سيدي عبد القادر الجيلاني، وسبب ذلك أن سيدي عبد القادر سئل يوماً عن شيخه؟ فقال: أما فيما مضى فكان شيخي حماد الدباس، وأما الآن فإني أسقى من بين بحرين: بحر النبوة وبحر الفتوة! ويعني ببحر الفتوة: علي بن أبي طالب وأما سيدي أبو الحسن فقيل له: من شيخك؟ فقال: أما فيما مضى فكان عبد السلام بن مشيش وأما الآن فإني أسقى من عشرة أبحر خمسة سماوية وخمسة أرضية[٣]. ولقد مرد هؤلاء على الغلو فيتوهمون أن هذا الشخص بسبب ولايته وصل مكانة لا يأتي الملك جبريل إليه ويحدثه، بل إنه هو الذي يذهب إليه، وكذلك الرواية عن الشاذلي بطريقيها تعد من الغرائب، ولعل الشيطان حين عزلهم عن العلم الصحيح وملازمة القرآن والسنة طمع فيهم، وصار الجن يظهرون لهم بصور مختلفة، وما لبث يزهدهم في طريق العلم حتى ناصبوا أهله العداء، فظنوا أن الذي يرونه هم ملائكة وصحابة وأولياء وأنوار وتجليات، وأسروها بضاعة واتخذوها وليجة دون طريق السلف، وقالوا: إن الخضر يأوي إلى بيوتهم، واستغرقوا في ما

(١) (ص:٢٦٥).

(٢) (ص:٣٦٧).

(٣) (ص:٥١٠).

زين لهم حين اجتالتهم جنوده، والتبس أمره عليهم، ولو أنهم استمسكوا بالكتاب والسنة وقراءة آية الكرسي لذهب عنهم ما يجدون.

**دعوى التلقي عن اللوح المحفوظ:**

يستحيل النظر إلى اللوح المحفوظ، ولا يسلم لهم فيما ادعوه في ذلك، قال تعالى: * قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ &، ولكن التسليم هو شرط للمريد يجب مراعاته مع هؤلاء، ولو كان القول ظاهراً في البطلان! وحديث هذا مجاله قد نزه الله عنه السلف الصالح، فكان أشد غربة عن منهجهم، وما زال الانحراف بالتصوف حتى دخل عليهم الباطل بحذافيره، ولم يبق في سرادق الزوايا، وإنما عد من طرق التلقي، فكيف لا يتصدى لهم الفقهاء والقضاة؟! فإسماعيل بن يوسف يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ! فأنكر عليه شخص، فبلغ ذلك إسماعيل، فقال: ومما رأيته في اللوح المحفوظ أن هذا القاضي يغرق في بحر الفرات، ولكي يتم إخراج الحكاية إخراجاً جيداً ورد أنه أرسله ملك مصر إلى ملك الإفرنج ليجادل القسيسين فغرق في بحر الفرات![1]

واسمع محمد الحنفي وهو يجيب على مسائل المنكرين إذا تعنتوا في السؤال، حتى يكون المنكر هو التارك للسؤال، فيقول الشيخ لذلك الشخص: إما تسأل فلو سألتني شيئاً لم يكن عندي أجبتك من اللوح المحفوظ[2]!

قلت: وقد أحسن الشخص الذي أنكر على إسماعيل حين تجرأ على القول بما لم يحط به

(١) (ص:٢٦٨).

(٢) (ص:٥١٩).

علماً، وجزاه الله خيراً وتقبله شهيداً حيث ذهب لمجادلة القساوسة، فهو لم يزل في القيام بالحق لا يلوي على غيره، فما أن انتهى من دحض باطل هذا الصوفي حتى يمم وجهه لمجادلة النصارى، فلله دره ما أشجعه في الحالين! ولا يضيره ما حاق به من مكر إن صحت الرواية! أما المنكر على الحنفي فقد نفذ فيه سحره ولم يكن في حصن العقيدة الصحيحة، وإلا لما آل حاله إلى الاستسلام والتصديق برؤية اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه المقادير، فإنه من الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله - لا ملك مقرب ولا نبي مرسل - إلا من أوحى الله إليه.

ويرد دعواهم ما ورد عن ابن عمر ب قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي البقاع خير؟! قال: لا أدري. قال: فأي البقاع شر؟! قال: لا أدري. قال: فأتاه جبريل × فقال له النبي ﷺ: يا جبريل! أي البقاع خير؟! قال: لا أدري. قال: أي البقاع شر؟! فقال: لا أدري. فقال: سل ربك. قال: فانتفض جبريل انتفاضة كاد يصعق منها محمد ﷺ. فقال: ما أسأله عن شيء. فقال الله ﷻ لجبريل: سألك محمد: أي البقاع خير؟ فقلت: لا أدري، وسألك: أي البقاع شر؟ فقلت: لا أدري، فأخبره أن خير البقاع المسجد، وأن شر البقاع الأسواق)[1].

وعن أبي هريرة ا أن رسول الله ﷺ قال: (ما أدري تبع أنبياً كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياً كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟)[2].

أفبعد هذا البيان من النصوص نصغي لهؤلاء الصوفية؟! كلا، ثم كلا، فشتان ما بين

---

(١) رواه ابن حبان (١٥٩٩)، والبيهقي (٣/ ٦٥) واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧١).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٢٩)(١٧٣٧٣)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٩٢) واللفظ له، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢١٧).

الطريقين في الهدى طريق النبوة وما خالفها، ونحن إذ نقر بوجود من انتحل طريق الزهاد فإن حديثنا هنا عن الذين يعارضون النص بكشف وذوق وخيالات فلا بد من كشف تلبيسهم وبالله التوفيق.

**الأولياء الأميون:**

إن وجود الأمية بين صفوف من يدعون بأهل الله أمر لا غرابة فيه، إذ ليس من شروط القبول والتأهل معاً وفرة العلم بل ولا قلامة منه، فمناط الطريقة التسليم والرياضة والظفر بالمحبوب، وهي ما دامت كذلك فقد أمّها الجهلة والأميون وطمعوا فيها:

**لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس**

ويذكر الصوفية أثراً لم يصح ولكنه جاء على طريقتهم، ونصه: (ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذه لعلمه). وحين مر ابن حجر الهيتمي يوماً على محمد الفرغل بمصر فقال في سره هذا الأثر على وجه الإنكار عليه، فقال الفرغل: قف يا قاضي! فوقف فأمسكه وصار يضربه ويصفعه على وجهه ويقول: بل اتخذني وعلمني[1].

وممن وقفنا على جهله وولايته معاً:

- عيسى الضرير، كان أمياً وكان مدين الأشموني إذا سئل عن مسألة في الفقه يحيل عليه وهو مقيم في الزاوية[2].

- ومنهم داود بن ماخلّا، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وله كلام عال في الطريق في كتاب عيون الحقائق، وله طريقة اخترعها في معرفة المتهم تغني عن الأحكام التي قررت في

(١) (ص:٥٣١).

(٢) (ص:٥٢٩).

كتب الفقه في سير الدعوى، والبدء بالمدعي، ووجود البينة من شاهدين أو شاهد، ويمين المدعي، ثم تأتي يمين الإنكار من المدعى عليه، وبعدها يمين الرد، كل ذلك لا داعي لتوفره في مجلس القاضي، حين يحضر هذا الأمي داود بن ماخلّا وما هو إلا أن يجلس تجاه الوالي وبينهما إشارة يعرف منها وقوع المتهم أو براءته، فإن أشار إليه أنه بريء عمل بإشارته أو أنه فعل ما اتهم به عمل بذلك، وكانت إشارته أنه إن قبض على لحيته وجذبها إلى صدره علم أنه وقع، وإن جذبها إلى فوق علم أنه بريء[(١)].

- ومنهم علي البرلسي، كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء، وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات[(٢)].

ونحن إذ نصغي إلى حكايات عجاف كهذه ولا نردها لقوم مضيعين للأمانة، بل إننا نقبل قوله في إقراره بالجهل والأمية، وما أثبته بعده من دعوى الكشف من اللوح المحفوظ فترده شهادة العدلين وهما: الكتاب والسنة، ودعوى علم الغيب كفر، قال تعالى: * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ & [النمل:٦٥].

**معرفة الألسن واللغات:**

ومما قذفه بحر الطبقات المتلاطم في باب التعلم معرفة الأولياء بجميع اللغات والألسن، ومنطق الطير والحيوان، ولهم الحق في إعطائها للمريدين الذين يتلقونها منهم بكل يسر، ولا يبذلون الجهود المضنية في الطلب ومكابدة العلم ومشقته، لا سيما وعلم اللغات

(١) (ص:٣١٨)، ونقل عن أبي الفضل الذي يعرف من أنف الإنسان جميع ما يفعله في داره، ويقول: هذا ما هو باختياري، وسألت الله الحجاب فلم يحجبني.

(٢) (ص:٦٠٨).

يحتاج إلى طالب شديد المراس، يصبر عليه حتى يستقيم لسانه، وتعد من علوم الجامعات التي تعنى بها بأساليب حديثة، ويختصر كل ذلك عند أبي الحسن الشاذلي بكمال الإنسان في الطريق، فإنه إن فعل ذلك نطق بجميع اللغات وعرف جميع الألسن إلهاماً[(١)].

وممن تكلم باللغات المختلفة من أصحاب الطبقات:

- إبراهيم الدسوقي، الذي لم يكن يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي فحسب، بل زاد من علمه التكلم بسائر لغات الطيور والوحوش[(٢)].

- ومنهم محمد السروى، الذي كان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية، وشهادته في العلم أقل من الدسوقي لفقدان اللغة الزنجية وعدم نطقه بها، قال: وتارة يزغرد في الأفراح والأعراس كما تزغرد النساء![(٣)].

- ومنهم أبو عمرو القرشي، واختراعه في توصيل العلم جد غريب وعجيب، جمع الغرابة كلها، فلا يكلف نفسه مقررات دراسية يلقيها، ولا سنوات يمضيها، وما هو إلا أن يفتح المريد فاه أمامه فيتفل فيه، فلا يتعلم ذلكم الطالب المسكين لغة واحدة ويتلكأ فيها، بل يجيدها كلغته الأصلية جراء التفلة ذاتها، والآن أنقلك إلى تصوير هذا المشهد كما ورد بحروفه ونصه: (كان الرجل العربي إذا اشتهى أن يتكلم بالعجمية أو العجمي أن يتكلم بالعربية **يتفل في فمه**، فيصير يعرف تلك اللغة كأنها لغته الأصلية)[(٤)].

وهذا حديث جدير بالاهتمام حتى لا يمر مرور الكرام دون الالتفات إليه، وهو وإن

---

(١) (ص:٣٨٠).

(٢) (ص:٢٨٣).

(٣) (ص:٥٦٨).

(٤) (ص:٢٥٧).

ضم في فحواه ما يدعو للتعجب، فإننا نلخص ما فيه كما يلي:

- لقد برأت طبقات السلف وربأت بنفسها عن الولوغ في مثل هذه الحكايات، ولم ينقل عن صحابي واحد أنه ادعى ذلك؛ لسيرتهم التي كانوا عليها، وإنما هذا من كيس الرافضة، وقد هالني ما رأيته من عقائدهم الزائغة في أئمتهم بأنهم يعرفون جميع الألسن واللغات حتى الطيور والوحوش، فيذكر الصفار في بصائر الدرجات الكبرى ما يبين علوم أئمتهم في أبواب منها: (باب في الأئمة أنهم يعرفون الألسن كلها، وأنهم يتكلمون بها) (١)، و(باب في الأئمة أنهم يعرفون منطق الطير) (٢)، و(باب في الأئمة أنهم يعرفون منطق البهائم) (٣).

وقال المجلسي في بيان معجزات موسى الكاظم: (إنه يعلم منطق الطير ومنطق كل ذي روح خلقه الله، وما يخفى على الإمام شيء)(٤).

فمن تأمل أقوال الفريقين وجده يخرج من كوة واحدة، وعلم أن هؤلاء الصوفية قد أصابهم شر بعد رغبتهم عن متابعة الهدي النبوي، واقتباس العقائد المضلة.

- إن الله ـ قد جعل لكل شيء سبباً، وعلى المسلم أن يطلب الأسباب ولا يركن إليها وقد أمر الله ﷻ مريم بهز جذع النخلة بذلاً للسبب، قال تعالى: ((وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً)) والنصوص متواترة على الأخذ بالأسباب، ولا يخالف في ذلك إلا

(١) بصائر الدرجات الكبرى للصفار (ص٣٥٨).
(٢) بصائر الدرجات الكبرى للصفار (ص٣٦١).
(٣) بصائر الدرجات الكبرى للصفار (ص٣٦٧).
(٤) بحار الأنوار للمجلسي (٤٨/ ٧١).

من طمس عقله، فالعقيدة الإسلامية واضحة في باب القدر وضوح الشمس في رابعة النهار.

قال شيخ الإسلام في كتاب القدر: (فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم)[1].

إذا تقرر هذا علمنا أن المسلم لا بد عليه من تعاطي الأسباب، وأن هذا لا ينافي التوكل على الله، وعليه: فإن ما سبق من طرق التعلم عند الصوفية نقص في العقل وقدح في الشرع.

- ماذا يقول طلبة اللغات الذين أمضوا أعمارهم في تحصيلها عندما يقرأون التعلم بالتفل في فم المتلقين؟! أليست عبارة تزري بمن قالها واعتقدها؟!

**تعليم العوام والأطفال والأطرش والأصم:**

وهذه حلقة أيضاً من سلسلة طويلة في أخبار العلم والتعلم عند الصوفية تضمنته الطبقات، وقد سبق أن أصحاب السطوح الذين يمتلئون علماً ومدداً بسبب نظرة واحدة من السطح يلقيها عليهم البدوي ومنهم الأطفال، فقد كان مريده عبد العال يؤتى إليه بالرجل أو الطفل فيطأطئ من السطوح - ومكث على السطوح اثنتي عشرة سنة - فينظر إليه نظرة

(١) كتاب القدر (ص:٥٢٨).

واحدة فيملأ مدداً ويقول: اذهب به إلى بلد كذا أو موضع كذا[١].

وهذا موسى الزولي يقول للصبي الذي عمره أربعة شهور فأقل: اقرأ سورة كذا فيقرؤها الصبي بلسان فصيح، ولا يزال يتكلم من ذلك الوقت[٢].

وأما عبد الرحيم القناوي فكان إذا قال لعامي: تكلم على العلماء، فيتكلم عليهم في معاني الآيات والأحاديث حتى لو كان هناك عشرة آلاف محبرة لكلت، ثم يقول للعامي: اسكت فلا يجد ذلك العامي معه كلمة واحدة من العلوم[٣].

وأما الرفاعي فقد كانوا يعرفون جميع ما يتحدث به حتى كان الأطرش والأصم إذا حضروا يفتح الله أسماعهم لكلامه[٤].

وهذا أيضاً كلام من لا يلتفت إلى الأسباب في تعليم العوام والأطفال بسبب نظرة واحدة فأين العقل والشرع؟! ونحن لا نعرف أي طريقة هذه ساروا عليها حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، ولكن هؤلاء العوام والأطفال فلينظروا إليهم لكي نرى تعليمهم!

**علم الكيمياء:**

من العلوم التي ما فتئت تتردد في مواضع من الطبقات علم الكيمياء، ويعرف بأنه علم لقلب حقائق الأشياء إلى أعيان أخرى، كتحويل الحصى ذهباً مثلاً، ولم يكن سلف الأمة يتعاطون مثل هذه الحيل، ولابن كثير في تفسيره كلام نفيس في بيان أمر الكيمياء في آية

---

(١) (ص:٣١١).

(٢) (ص:٢٣٨).

(٣) (ص:٢٦٥).

(٤) (ص:٢٤٢).

القصص في شأن قارون، في قوله تعالى: * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ & [القصص:٧٨]، ننقله برمته ونصه، قال / : (علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ، قال الله تعالى: * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ & [الحج:٧٣]، وفي الصحيح أن رسول الله قال: (يقول الله: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو فليخلقوا شعيرة) (١)، وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة والشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية الذات إلى ماهية ذات أخرى؟! هذا زور ومحال، وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصور الظاهرة، وهي كذب وزغل وتمويه، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة..)(٢).

ونحن إنما نتناول الفكر الصوفي من خلال القراءة في طبقات الأولياء وما تقدمه لنا من بيان لهذه العلوم، وتحليل وافٍ لا يأتي مقرراً في موضع واحد، ولكنه جاء مبثوثاً في التراجم يلقاه الناظر فيها، ويلتقطه من ثناياها، وربما استنكف بعض الصوفية من امتلاكهم هذا

(١) رواه البخاري (٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٠). وتتمة كلامه: (ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون، فأما ما يجريه الله ـ من خرق العوائد على يدي بعض أوليائه من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات، وإنما هذا على مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله، كما روي عن حيوة بن شريح المصري / أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته فأخذ حصاة فأجالها في كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر، والآثار في ذلك كثيرة جداً يطول ذكرها).

العلم؛ لأن قدراتهم التي يصورونها تقصر الكيمياء عن بلوغ معشارها، وينأوا بأنفسهم أن تحصرهم كيمياء قلب أعيان بعينها، وهذه الخوارق بين أيديهم يأخذون منها ويدعون، فحينما جاء رجل مغربي وكان ذا عيال إلى محمد ابن أخت مدين ليعلمه الكيمياء؛ فأخذ الحوائج، ودخل الخلوة وقال للفقراء: هذا الرجل ما يعرف من أحوال الفقراء شيئاً، إنما كيمياء الفقراء أن يعطيهم الله قلب الأعيان بلفظ كن، ثم قال: هذا الوقت يخرج محروق الوجه واللحية، فخرج كذلك[١].

وجاء رجل آخر إلى محمد الحنفي فقال: يا سيدي! أنا ذو عيال فقير الحال فعلمني الكيمياء، فقال: أقم عندنا سنة كاملة بشرط أنك كلما أحدثت توضأت وصليت ركعتين، فأقام على ذلك، فلما بقي من المدة يوم جاء إلى الشيخ فقال له: غداً تقضى حاجتك، فلما جاءه قال: قم فاملأ البئر من ماءٍ للوضوء، فملأ دلواً من البئر فإذا هو مملوء ذهباً فقال: يا سيدي! ما بقي في الآن شعرة واحدة تشتهيه![٢]

وممن ذكر تعامله مع الكيمياء:

- أحمد بن سليمان، وقد صنع مرة بالكيمياء نحو خمسة قناطير ذهباً ثم نظر إليها وقال: أفٍ للدنيا، ثم أمر بطرحها في سرداب جامعه فاشتهر بالزاهد!

- ومنهم حسين أبو علي، كان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة، وكان من لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوي سيماوي، وعرف بالكيمياء.

- ومنهم علي الشربيني، يقول للعصا التي معه: كوني إنساناً فتكون...

---

(١) (ص:٥٣٨).

(٢) (ص:٥١٩).

- ومنهم علي المحلي، يحول الرصاص ذهباً، ويغرف من البحر جواهر[1].

ونحن قد عرفنا علم الكيمياء، فما مراد الناس بقولهم لحسين أبي علي بأنه سيماوي؟ وهو إشارة إلى السحر - السيمياء من علوم السحر - وحين يقول محمد الشربيني للعصا التي كانت معه: كوني إنساناً، فتكون إنساناً، ويرسلها تقضي الحوائج، ثم تعود كما كانت، فهل تكون من الكيمياء أوالسيمياء أو تتردد بينهما؟!

## حقيقة الكيمياء:

وحقيقة الكيمياء إنما هي تشبيه المخلوق بالمصنوع من المعادن كالذهب والفضة مثلاً، وقصد أهلها أن تكون مثلها، وهذا باطل عقلاً، ومحرم شرعاً، وهي من الغش ولم تكن من فعل السلف، ولذا قال بعضهم: من طلب المال بالكيمياء أفلس.

قال شيخ الإسلام: (وما يذكره بعض الناس من أن أولياء الله يعملون بها فهذا كذب لا يعدو ما يقوله أحد أمرين: إما أن يكون كاذباً، وإما أن يكون قد ظن من يعملها أنه من أولياء الله المخصوصين بمثل هذه الكرامة، فهذا جهل، فإن الكيمياء يعملها المشرك واليهودي والنصراني والفاجر والمبتدع، لا يختص بها أولياء الله، بل لا يعرف ولي ثابت الولاية يعملها، ومن ذكرها ممن يدعي أنه من الأولياء مثل صاحب الفصوص وأمثال هؤلاء

---

(١) (ص:٤٩٦-٥٠٣-٥٣٩-٥٨٣).

- ومنهم أبو بكر الدقدوسي يحول الحصى ذهباً (ص:٥٣٣).

- ومنهم بركات الخياط إذا قدموا له لحم الضأن واشتهى لحم حمام ينقلب في الحال حماماً.

- ومنها قلب مرقعة امرأة أبي السعود إلى حرير مزركش مفصص بفصوص من المعادن لا توجد في ذخائر الملوك، حين دعيت إلى الحضور في عرس ببيت أمير كبير، فكان الخوندات يتعجبن منها وطلبت واحدة منهن فصاً بألف دينار فأبت (ص:٣٦٢).

فهؤلاء في كلامهم في الدين من الخطأ والضلال العظيم أعظم مما في كلامهم في الكيمياء، نعم خرق العادة للأولياء جائز مثل أن يصير النبات ذهباً.

وأيضاً: فإن فضلاء أهل الكيمياء يضمون إليها الذي يسمونه السيمياء كما كان يصنع ابن سبعين والسهروردي المقتول والحلاج وأمثالهم، وقد علم أنه محرم بكتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة، بل أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله)[١].

**أخبار الجن مع العلم:**

وللجن حظ في مقام العلم هنا يتضح بجلاء في غشيانهم مجالس الشيوخ يتلقون عنهم، ويكونون في خدمتهم، فعبد القادر الجيلاني مثلاً في بداية أمره كانوا يأتونه وهو مقيم في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً لا يعرف الخلق ولا يعرفونه، فيعلمهم الطريق إلى الله ﷻ، وقد سقطت عليه حية من السقف وهو بحضرة جماعة من الفقراء والفقهاء في مدرسة النظامية يتكلم عليهم في القضاء والقدر؛ ففر منها كل من كان حاضراً عنده ولم يبق إلا هو، فدخلت الحية تحت ثيابه ومرت على جسده، وخرجت من طوقه، والتوت على عنقه وهو مع ذلك لا يقطع كلامه ولا غير جلسته، ثم نزلت على الأرض وقامت على ذنبها بين يديه فصوتت، ثم كلمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين ثم ذهبت[٢]!!

---

(١) الفتاوى: (٢٩/ ٣٨٤)

وقال أيضاً: وإنما المقصود أنك تجد السيمياء التي هي من السحر كثيراً ما تقترن بالكيمياء، ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن السحر أعظم المحرمات، فإذا كانت الكيمياء تقترن به كثيراً ولا تقترن بأهل العلم والإيمان علم أنها ليست من أعمال أهل العلم والإيمان، بل هي من أعمال أهل الكفر والفسوق والعصيان.

(٢) (ص:٢٢٩) وتتمة خبره: (ثم جاءته بعد ذلك وهو يصلي ففتحت فمها موضع سجوده، فلما أراد

ومن المتقدمين المشهورين أحمد الرفاعي الذي كانت أشباح الطريق يحضرونه ويسمعون كلامه، وكان أحدهم يبسط حجره فإذا فرغ ضموا حجورهم إلى صدورهم! وقصوا الحديث إذا رجعوا إلى أصحابهم على جليته[١].

وأما محمد الحنفي فكان يقرئهم مذهب أبي حنيفة وكان سكان البحر يطلعون لزيارته وهو في داره بالروضة والحاضرون ينظرون، وكان يقرئ الجن على مذهب الإمام أبي حنيفة وربما امتنعوا من الحضور بسبب أترجة صفراء، وكان إذا صلى يصلي عن يمينه دائماً أربعة روحانية وأربعة جسمانية لا يراهم إلا هو وخواص أصحابه[٢].

**رسائل الجن:**

وإما إبراهيم الدسوقي فإن رسائله التي كتبها إلى بعض مريديه تدل على حظه الوافر من معاملة الجن، وقد سبق أنه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش، ومما ورد في الطبقات من رسائل الدسوقي إلى بعض مريديه: ولا بباطن شذا.. ولا سطاريس ولا عيطافيس ولا هطامرش ولا سطا مريش ولا شوش أيش ولا ركاش قوش ولا سملا دونس ولا كتاب سمطلول الروس ولا بوس عكمسوس!

وكتب إلى بعض مريديه أيضاً: شذا يغذي الروح تبدو له أنوار وعلوم مختلفة فائقة

---

السجود دفعها بيديه وسجد؛ فالتفت على عنقه ثم دخلت من كمه وخرجت من الكم الآخر، ثم دخلت من طوقيه ثم خرجت، قال: فلما كان الغد دخلت خربة فرأيت شخصاً عيناه مشقوقتان طولاً فعلمت أنه جني، فقال: أنا الحية التي رأيتها البارحة، ولقد اختبرت كثيراً من الأولياء بما اختبرتك به فلم يثبت أحد كثباتك، وسألني أن يتوب علي فتوبته).

(١) (ص:٢٤٢).

(٢) (ص:٥١٦).

طعم رائحة وسم يم محل راب علوب نفط نبوط هوبط مهبط جرموا غميطا غلب عمن عسب علب عرماد علمود على عروس علماس مرود[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في حديثه عن مجيء الجن في صورة المشايخ: (وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله، فرأيته بخط الجن، وقد رأيت خط الجن غير مرة، وفيه كلام من كلام الجن، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي) اهـ.[٢]

وهذه البضاعة لا تشترى إلا من الجهلة الذين يسخرون الجن لخدمتهم، ويستعينون بهم في التلبيس على الناس؛ لإجراء الخوارق على أيديهم، وسيأتي زيادة توضيح في باب نماذج من الخوارق، ولنخرج الآن من أسوار هذا الفصل وندلف إلى منازعة الفقهاء لهم، ومقابلة ذلك بالتصرف فيهم.

---

(١) (ص:٢٨٣)، وكتب إلى بعض مريديه: سلام إن هب الجنوب المفتق.. والمفقودج والفتوح والسنبابول والسريابور والشوشاند والشربو ساسع والبقوا شاند تفهد يا ولدي فإن كلام المغرب يشاكل المعرب، وما ليس من لغة العرب لا يفهمه إلا من له قلب أو فهمه الرب، ولا إنكار على علماء الحقيقة هم يتكلمون بكل لسان ولهم لسن عجام!

وكتب سلاماً لرسول الله وأرسله مع الحجاج: سلام على أمير المحيا قيدوح النماطة ليدوح النباطة سرسامع الوحب بهدياني الوعب بهساني الحداقة سمبري النساقة لاموز الرموز عموز النهور سلاحان افق فردفانية أمق شوامق اليرامق حيد وفرقيد وفرغاط الأسباط ومبيط السباط الكرقولية والقدد القيلولية!

(٢) الفتاوى: (١٣/ ٩٤).

# المبحث الخامس
# الفقهاء والصوفية

إن للفقهاء شرطهم المعروف في تقرير منهجهم العلمي، قائم هذا الشرط على النظر والاستدلال والغوص في مضامين النصوص، واستنباط الأحكام منها، وعرض أدلة المسألة والعلة التي تسري في أفرادها وبيانها تفريعاً و تأصيلاً، ثم النظر في حجة المخالف دليلاً وتعليلاً، وتخصيص العام، وتفصيل المجمل، وتقييد المطلق، حتى غدا الفقه عند المجتهد علماً ذا عنت من خلال إفراغ الجهد في طلب الحكم، ولم يقف عند ذلك في بعض أطواره حتى انحدر في الغلو في استخدام المقاييس، والإمعان في توليد المسائل وتصوير المحال، وعلى كلا الأمرين فالفقه لا بد فيه من النظر والاستدلال، ولا يسلم فيه لمجرد إيراد القول، ولذلك قال القائل:

**وليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر**

وأما شرط الصوفية فإن كل كلام من الأولياء يعتبر مقبولاً قولاً واحداً بإجماع أهل الطريق، ولا يقال لما يصدر عن الشيوخ: لم؟ وكيف؟ بل طريقه التسليم والإذعان، وقد سبق الملمح وراء صورة الميت بين يدي مغسله، لتكون مشابهة لانطراح المريد بين يدي شيخه، والأمر ليس مقصوراً على ما خفي فيه النظر، وغاب مدركه على المريد، بل يشمل هذا ما كان صريحاً في المخالفة، واضحاً ومصادماً للنصوص في ظهورها، فمهما قال الشيخ قولاً، أو فعل فعلاً مخالفاً للنص فلا يسع المريد إلا السكوت وحسن الظن، ولكي يستقيم لهم هذا الشرط

قرروا أصولاً فاسدة تتجلى في النقاط التالية:

- الأولياء يمتلكون علوماً لدنية وحقائق ليس سبيلها العلم، وإنما بالذوق والكشف مما لا يطلع عليه أحد، إلا من ولج بحر المجاهدات مثلهم فعلى غيرهم مسدود.

- التسليم لهم في كل ما يصدر؛ لأن هذه العلوم الخفية هي من الواردات والفيوضات.

- قصة الخضر في حيازة هذه العلوم، وعدم الإنكار عليهم فتصيب المنكر معرة بغير علم.

- القول بحفظ الأولياء، وهو قول موازٍ لعصمة أئمة الشيعة اتفاقاً في المضمون وافتراقاً في اللفظ.

وهكذا بعد افتراق هذين الشرطين، فإن من مشى من الفقهاء على شرط الصوفية ووضع شرطه عند عتبة الزاوية سلّم وسلِم، ومن استصحب شرطه فتصدى لأحوالهم عملاً بالدليل فحظرهم عن الضلال والفسق بفتاويه مقت من جانبهم، ويعدون ذلك الصوفي مبتلىً بأولئك الفقهاء أعداء الطريق، ولذلك فإن الصوفية لا ينازلون الفقهاء الحجة بالحجة، ولا يرون حاجة لإضاعة الوقت معهم، بل يشهرون سلاح البرهان ليمضي في عمله معهم، ويلوحون بعصا التصرف في المنكر لتخويفه وتشريد من خلفه، وتصور لنا بطولات هؤلاء المتصوفة في قصص كثيرة في التصدي لمن بادرهم بالإنكار باستخدام كل أسلحتهم وإعمالها فيهم، ولا يهزمون في عقر دارهم وبين أتباعهم أبداً، فنراهم لا يهادنون في هذه المسألة أدنى مسامحة ليصل التصرف الذي يدندنون حوله في الفقهاء إلى تلف خصومهم.

ممن ابتلي بالإنكار عليه جماعة من الصوفية نذكر ممن نص على تعرضهم لهذه الفتنة التي يعنون بها اعتراض الفقهاء عليهم فمنهم:

- محمد بن أبي جمرة، أنكروا عليه دعواه رؤية رسول الله يقظة[١].

- عبد الله الأندلسي، ابتلي بالإنكار عليه حين قال: إنه يرى رسول الله يقظة ويشافهه![٢].

- محمد القونوي، كان مبتلىً بالإنكار عليه إلى أن مات[٣].

- وإبراهيم المتبولي، كان مبتلىً بالإنكار عليه كونه لم يتزوج[٤].

**ابتلاء أبي الفتح الواسطي:**

ومنهم أبو الفتح الواسطي، وكان مبتلىً بالإنكار عليه، وعقدوا له المجالس بالإسكندرية وهو يقطعهم بالحجة، وكان خطيب جامع العطارين من أشدهم عليه، فما هي حكايته؟ وما نتيجة إنكاره؟

قال الشعراني: فبينما هو يوماً فوق المنبر والأذان بين يديه أي: الخطيب تذكر أنه جنب فمد له الشيخ أبو الفتح كمه فوجده زقاقاً! فدخله فرأى فيه ماءً ومطهرةً!! فاغتسل وخرج فجلس على المنبر، فلما ستره الشيخ هذه السترة اعتقده وصار من أجل أصحابه[٥].

---

(١) (ص:٢٧٠).

(٢) (ص:٣٤٢).

(٣) (ص:٣٤٣).

(٤) (ص:٤٩٨).

(٥) (ص:٣٤١).

وهكذا يتم إسقاط الحجج القاطعة التي يمتلكها الصوفي ضد خصمه دون إيضاحها لنقف على صدق دعواه، وينقلنا مباشرة إلى عجز الفقيه عن مقارعته؛ لأن المراد هو تصوير التصدي للفقهاء المنكرين بالهزيمة الماحقة التي تنتهي بإتلاف الفقيه أو انتظامه في سلك الطريقة في الخطوة اللاحقة، لينقلب من منكرٍ لباطل إلى ذيلٍ تابعٍ عاطلٍ.

وفي الحكاية من الغرائب: الجنابة التي تذّكرها الخطيب وهي من الشيطان، وفيها استحالة كمّ الصوفي إلى زقاق! وهنا نطلب زيادة إيضاح هل هو زقاق حقيقي أم إنه في خيال الخطيب وقد سحر فخيل إليه ذلك؟ ومن أين الماء والمطهرة؟ وكم مدة الغسل؟ وما هو حال الناس وقد رأوا خطيبهم وهو يؤخذ على حين غرة من بين أيديهم؟ كل ذلك جاء مبتوراً من النص ربما ليفتح للخيال أبواباً أخرى، ونحن حين نقول: إن ذلك من عالم الأساطير فمن أصرّ على مجاراة هؤلاء فليمد كمه لنرى الزقاق، وكما قيل لمن زعم أن جملاً من كوة بيته دخل، لا نعرف كوة بيته لكن: هذه الكوة فادخل يا جمل! ألا فلينته هؤلاء الصوفية بإيراد حديث كهذا، وبئس صنيع من لم يقل لهم دعوا ذلك!

**لحى الله قوماً لم يقولوا لعاثرٍ ولا لابن عم كبه الدهر دعْ دعِ**

**الإنكار في مسائل العلم:**

ومن تصرف الصوفية في الفقهاء اعتراضهم عليهم في مسائل العلم، ولنأخذ هنا ثلاثة مشاهد تتعلق باللحن في الكلام الذي ينم عن جهالة صاحبه بمبادئ العلوم فضلاً عن الغوص في مسائلها، وهو من الخطأ بوضوح، ولذا فإن الفقهاء يقومون بتصحيح هذا الخطأ، ولا يسكتون تجاهه كما قال الأول: (لن تقطعوا بطن وادٍ دونه مضر) ولأن راوي هذه الحكايات في الطبقات متحيز إلى فئة فإن النتيجة تكون دائماً في جانب الصوفية:

- فبقاء بن بطو هو أحد أولئك الصوفية، وكان لا يجيد القراءة في الصلاة، وحين زاره ثلاثة من الفقهاء فصلوا خلفه العشاء، ولم يقم القراءة - كما قررها الفقهاء في كتب الفقه - ساء ظنهم به، والنتيجة التي ترتبت على سوء الظن فقط - دون إنكارهم باللسان - أنهم باتوا في زاويته فأجنب ثلاثتهم، وخرجوا إلى نهر على باب الزاوية فنزلوا فيه يغتسلون، فجاء أسد عظيم الخلقة، وبرك على ثيابهم، وكانت ليلة شديدة البرد؛ فأيقنوا بالهلاك، فخرج الشيخ من الزاوية فجاء الأسد وتمرغ على رجلي ابن بطو، فاستغفروا وتابوا(١).

- والثاني إبراهيم الجعبري، فقد كان يلحن في القرآن والحديث معاً، فعقدوا له مجلساً في منعه من الوعظ، وأفتى الفقيه المالكي بمنعه من ذلك في حين امتنع القضاة الثلاثة لخوفهم من النتيجة، ولم يكتف هؤلاء الثلاثة بذلك بل قبّلوا رجل الجعبري كما في القصة، فعقد العلماء له مجلساً وأفتوا بتعزيره؛ فكانت النتيجة التي تصورها الطبقات بأن حبس الجعبري بولهم وبول السلطان الذي أمر بعقد المجلس، فعجزوا عن إطلاقه بكل حيلة، فنزلوا عليه واستغفروا، فأمرهم بالاستنجاء من إبريقه فأطلق بولهم(٢).

- ويقترب من التصرف بحبس البول هذه القصة التي لم تغادر بيت الخلاء بعد، فحسين الجاكي إمام جامع الجاكي وخطيبه عقدوا له مجلساً عند السلطان أيضاً ليمنعوه من الوعظ، وقالوا: إنه يلحن؛ فرسم السلطان بمنعه، فشكا ذلك لشيخه أيوب الكناس، فبينما السلطان في بيت الخلاء إذ خرج عليه أسد عظيم، وفتح فمه يريد أن يبلع السلطان، فارتعد ووقع مغشياً عليه، فلما أفاق قال له: أرسل إلى الشيخ حسين يعظ وإلا أهلكتك، ثم دخل

---

(١) (ص:٢٤٩).

(٢) (ص:٣٤٤).

الحائط، فنزل السلطان إلى الشيخ حسين وأراد الاجتماع بالشيخ أيوب فلم يأذن له[١].

وهذه الحكايات تستوجب الوقوف عندها بالنظر في نقاط كما يلي:

أولاً: اتفاق هذه الثلاث القصص على جهل أولئك الصوفية بالواجبات الشرعية وعدم إجادة القرآن والحديث والوعظ، وهذا دليل مفارقة العلم ومنابذة الفقهاء، والإنسان خلق جهولاً فالواجب على المسلم أن يرفع من جهله عن طريق الوسائل التي أنعم الله عليه بها، قال تعالى: * وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ & [النحل:٧٨] وقد سبق أهمية العلم ووصية الله به، قال تعالى لنبيه: * وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ & [طه:١١٤].

ثانياً: ترمي هذه الحكايات إلى إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من شعائر الإسلام، وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد مرفوعاً: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [٢]، وقد قام الفقهاء هنا بواجبهم في النصيحة وما عليهم من صدود من خالف.

ثالثاً: إظهار الخوارق المشوبة بالمستقذرات والنجاسات، كالجنابة، وحبس البول، ودخول الخلاء فإنها تكشف دور الشياطين التي تحضرها، ودليل ذلك الرابط الذي يربطها ببعضها وقد أركسوا في حبس البول تارة وإطلاق الغائط تارة أخرى، والجنابة عند ثالث وتظل الخوارق هنا تفيض بهذه القاذورات.

رابعاً: الأسد حاضر هنا مرتين، فقد برك على ثياب المنكرين على ابن بطو في الأولى،

---

(١) (ص:٣٥٩).

(٢) رواه مسلم (٤٩).

ودخل على الخطيب المنكر على الجاكي في الثانية، وهذا إنما يكون من عمل الجن ليرهبوا به الناس، ومن هنا نستطيع أن نفهم دخول هذا الأسد الحائط.

خامساً: المبالغة الشديدة في التصوير بما يناقض باب الأسباب، وينكشف سر المسألة في الوضوء من إبريق الشيخ، فإنه ليس عبارة عن سبب لإطلاق البول كالعقاقير، وإنما وراء الأكمة ما وراءها.

سادساً: السلطان موجود أيضاً في القصة الثانية والثالثة، والنكتة في هذا الفعل عدم الاقتراب من حمى الصوفية، فهذا فعلهم في السلطان فكيف بمن هو دونه من الرعية؟!

سابعاً: تظل الدعوى قائمة على هؤلاء الصوفية التي وجهت ضدهم من عدم إقامة القراءة في الصلاة، والتلبس باللحن في القرآن والحديث والوعظ، حيث لم يبدو أي رد أو محاجة، وإنما عدوا بالتصرف على المخالفين وهذا لا يدفع الجهل ولا يرفع الدعوى، فعليهم أن يتعلموا ما يقيم لسانهم، ويجلسوا لمن يصلح قراءتهم ويا ليتهم فعلوا! إذن صلح أمرهم وبالله التوفيق!

**الإنكار على المتصوفة في صحبة المردان والنساء:**

إن من نافلة القول: أن صحبة النساء دحضة مزلة، وأن النجاة منها فرار كالفرار من الأسد، ومن تعرض لذلك فقد ارتكب النهي الوارد في النهي عن الخلوة بالنساء، والدخول عليهن، ووجب على الواقف على من اقترف هذا الفعل الإنكار عليه، وتحذيره من المخالفة، ولكن يبدو أن الأمر حينما يكون مع أولياء الله يختلف عن غيرهم، فأحمد الملثم كان أهل مصر لا يمنعون حريمهم منه في الرؤية والخلوة! فأنكر عليه بعض الفقهاء فقال: يا فقيه! اشتغل بنفسك فإنه بقي من عمرك سبعة أيام وتموت، فكان كما قال![1].

---

(١) (ص:٢٦٦).

وشبيه بصحبة النساء الخلوة مع المردان فإبراهيم المتبولي نام عنده جماعة من فقهاء الأزهر في بركة الحاج، فوجدوا عنده مملوكين أمردين من أولاد الأمراء ينامان معه في الخلوة فأنكروا عليه، ثم رفعوا أمره إلى الشرع بالصالحية، فأرسل القاضي وراءه فحضر فدخل الصالحية فقال: مالكم؟ فقال القاضي: يدعون عليك أنك تختلي بالشباب، وهذا حرام في الشرع، فقال: ما هو إلا هكذا وقبض على لحيته بأسنانه وصاح فيهم، فخرجوا صائحين فلم يعرف لهم خبر بعد ذلك الوقت، ثم جاء الخبر أنهم أسروا وتنصروا في بلاد الإفرنج، فشفعوا فيهم فلم يقبل شفاعة أحد(١).

قلت: والغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: * وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ & [لقمان:٣٤] وقد أبى هؤلاء القوم إلا مخالفة ذلك، وغلوا غلواً كبيراً، وكيف لا يشتغل الفقيه بإنكار المنكر وهو من باب الاشتغال بالنفس أيضاً كما سبق؟ حيث قام بأمر الله ﷻ المتمثل في النصيحة لقوم صدفوا عن الهدى، ولم ينعم عيناً حتى أسمعهم ما يكرهون، وأما التلويح بسيف التصرف فلن يضير الفقهاء ولا يضرهم إلا ما شاء الله تعالى، وإن استعان هؤلاء بالجن فإن كيدهم ضعيف، قال هود × في رده على قومه: * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ & [هود:٥٦].

(١) (ص:٤٩٩).

**الإنكار في الحقائق:**

ومن ذلك: إنكار الفقهاء على الصوفية في دائرة الحقائق والشطح، ولكن النتيجة دائماً واحدة في عدم الإصغاء لهم، ودعوى التصرف فيهم، فالزعم بالنظر إلى اللوح المحفوظ باطل كل البطلان، ومثله دعوى من ادعى بأن الله يكلمه، وقد ورد في الطبقات على النحو التالي:

- كان إسماعيل بن يوسف يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ! فأنكر عليه شخص من القضاة، فبلغ ذلك إسماعيل؛ فقال ومما رأيته في اللوح المحفوظ أن هذا القاضي يغرق في بحر الفرات، فأرسله ملك مصر إلى ملك الإفرنج ليجادل القسيسين فغرق في بحر الفرات[1].

- ومحمد الفرغل، وقال: كنت أمشي بين يدي الله تعالى تحت العرش، وقال لي كذا وقلت: كذا فكذبه شخص من القضاة فدعا عليه بالخرس فخرس حتى مات[2].

وقد سبق استحالة ما ادعوه من النظر إلى اللوح المحفوظ ونقض قولهم هذا، وإنما أوردناه هنا لمناسبته في منازعتهم للفقهاء، فجزى الله العالم المالكي خيراً على قيامه بالحق، كما أحسن ذلكم القاضي في تكذيبه ما يتنافى مع الكتاب والسنة، ورده على من تمادى في غيه، وهكذا تتعاقب على الفقهاء النكبات من أجل قيامهم بشعيرة من شعائر الدين التي امتدح الله أهلها القائمين بها، وذم التاركين لها، قال تعالى: * لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

(١) (ص:٢٦٨).

(٢) (ص:٥٣٢)، وقد يتمادى بعضهم في الشطح، كمحمد القونوي-صاحب ابن عربي- له تفسير الفاتحة فيقام عليه بالإنكار من قبل الفقهاء، وقد أججوا النار على إبراهيم المواهبي في تقريره قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) وعقدوا له مجلساً في الجامع الأزهر، ولم يخلصه إلا محمد المغربي الذي قال: نحن أحق بتنزيه الحق منكم أيها الفقهاء.

عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ & [المائدة:٧٩].

**الإنكار في الأحوال:**

ومن تصدي الفقهاء للصوفية أيضاً: الأخذ على أيديهم في ما يرون من أحوال منافية للشرع تصدر منهم ولا يبالون بعد ذلك بالنتيجة، فمحمد الحنفي رآه كاتب السر ابن البارزي يوماً وهو راكب ومعه جماعة من الأمراء، فأنكر عليه وقال: ما هذه طريقة الأولياء! فقال له: ناظر الخاص: لا تعترض فإن للأولياء أحوالاً، فقال لابد أن أرسل له أقول له ذلك، فلما دخل القاصد وأخبر محمداً قال له: قل لأستاذك أنت معزول عزلاً مؤبداً، فأرسل له السلطان المؤيد وقال له: الزم بيتك، فما زال معزولاً حتى قتله السلطان، قال الشعراني: نعوذ بالله من النكران(١).

ويبدي أبو المواهب الشاذلي عجباً من إنكار الفقهاء ما أجمع عليه الأولياء، قال: ويصدقون ما وصل إليهم على لسان فقيه واحد، وربما يكون استناده في ذلك القول إلى دليل قياسي ضعيف، أو إلى شذوذ من القول، ويضيف قائلاً: ما ذاك والله إلا لغلبة الحرمان، ثم يأتي بقاصمة الظهر فيقول: ومع إنكاره - أي: الفقيه - إذا أصابه همّ أو مصيبة يأتي إلى قبورهم، فيحملهم الحملة دون الفقيه الذي صدق قوله وقدمه عليهم، وكان الأمر بالعكس(٢).

وتأمل هذه الدعوة الصريحة للشرك ودعوة الأموات والتعلق بهم! والفقيه الذي يفعل

---

(١) (ص:٥١٦).

(٢) (ص: ٤٨٩).

هذا لا يفقه التوحيد أصلاً، إذ هو الفقه الأكبر كما نقل عن أبي حنيفة، ولا ينبغي الرجوع في تكفير الذنوب وإلقاء الحملات على أحد من الناس لا الفقهاء ولا الصوفية ولا غيرهم، ومن فعل ذلك فقد وقع في الشرك، وقد خاضوا في ما لم يؤمروا به فزينوا عبادة غير الله تعالى، ولم يعدوا أولياءهم شفعاء فقط بل جعلوهم يتحملون التبعات رأساً، قال تعالى: * وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ & [الرعد:١٤].

فأي مصيبة حلت بالقوم فمالت بهم إلى الإشراك؟! ونعوذ بالله من ذلك لا من إنكار المنكر الذي غمز إليه الشعراني آنفاً فتعوذ منه.

## صور متفرقة:

ومن الصور المتفرقة التي فيها إنكار الفقهاء على الصوفية كما عرضتها الطبقات:

- إنكار أحد الفقهاء على أحد الفقراء في عمل السحر، فمحمد بن أبي جمرة كان يقول: إياكم والإنكار على الناس فيما يحتمل التأويل! فإني رأيت فقيهاً أنكر على فقير صنعة الخيال مع المخبطين فأخرج الفقير للفقيه باباً في الخيال، وأجلس الفقيه على مكان، وجاء الفيل فلفه بزلومته وضرب به في الأرض فمات، فأصبح الفقيه وقع له ذلك ودفنوه آخر النهار[1].

ولا شك أن صنعة الخيال ظاهرة في أفعال السحرة، ومثله لا يحتاج إلى تأويل، وبما أن الفقير قد أقر بقتل الفقيه باعتراف الطبقات فإن الحكم الشرعي هو القصاص والقود جزاء فعله، ولنا في هذه البضاعة تصديق الراوي في الإقرار، وتكذيبه في باقي الإخبار عملاً بتفريق الصفقة والله أعلم.

---

(١) (ص:٢٧١).

- ومن الصور إنكارهم على الصوفية في أكل الحشيش، فأبو بكر الدقدوسي كان له صاحب يصنع الحشيش بباب اللوق، فكان الشيخ يرسل إليه أصحاب الحوائج فيقضيها لهم، فسأله عثمان يوماً عن ذلك وقال: المعصية تخالف طريق الولاية! فقال: يا ولدي! ليس هذا من أهل المعاصي، إنما هو جالس يتوب الناس في صورة بيع الحشيش، فكل من اشترى منه لا يعود يبلعها أبداً[1].

- ومن ذلك إنكار قاضٍ في دمياط على علي المحلي، وقال له: ما مذهبك؟ فأجاب: حنشي! ثم نفخ على القاضي فإذا هو ميت[2].

ولا نفهم من هذه الحكاية سوى ذيلها، وما بقي من رأسها فحكمه الجهالة، ولا نفقه أيضاً المذهب المنسوب للحنش - من أسماء الثعبان - إلا إن كان لدى الجن، ولكن النهاية في التخريف بموت المنكر بمجرد النفخ معروفة في السياق غير معقولة في المعنى، ولكنهم يمرونها هكذا كما جاءت والله المستعان!

وخلاصة هذا الفصل: ذم الجهل والتحذير من إسقاط إنكار المنكر، فالأول يقود إلى

---

(١) (ص:٥٣٣).

(٢) (ص:٥٣٩)، ومن الصوفية: أبو خودة الذي كان يتعاطى أسباب الإنكار عليه قصداً، فإذا أنكر عليه أحد عطبه!

- ومنهم الكليباني الذي مر خبره أولاً، وكان من تعلقه بالكلاب أنه يدخلها الجامع!! فأنكر عليه بعض القضاة، فقال: هؤلاء-أي: الكلاب-لا يحكمون باطلاً، ولا يشهدون زوراً، فرمي القاضي بالزور، وجرسوه على ثور بكرش على رأسه، ولم يزل ممقوتاً إلى أن مات.

-وكان يوسف الهمداني يتكلم على الناس، فقال له فقيهان كانا في مجلسه: اسكت فإنما أنت مبتدع، فقال لهما: اسكتا لا عشتما، فماتا مكانهما!

انتشار البدع، والثاني يقضي بتفشي المعاصي، وإن القيام بما أمر الله يزعج من نحن بصدد الحديث عنهم، ويعكر عليهم ما يغشونه من المخالفات؛ ولذا عاجوا على ذكر الحكايات التي تصور المنكرين لهم وقد حاقت بهم المصائب بسبب الإنكار، بينما هم يظلون ساهون في اللذات!

وهكذا أصبحت تعاليم الإسلام مدحورة، وأضحت عروسه غريبة تمشي بطمر بعدما كانت في عهد السلف تتيه بحليها، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهو الارتشاف من زلال الكتاب والسنة، وهجر ما كان من أفكار المبتدعة والله غالب على أمره.

وما أجمل أن نعطر بسيرتهم هذا المقام، وننشر من مسكهم في الختام ما يدل على وقوفهم عند النصوص إذا لاح لهم الصواب، فهذا راوية الإسلام أبو هريرة ا قد ذهب إلى الطور زائراً، وحين عاد من سفره لقيه أبو بصرة الغفاري ا فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور. قال: لو رأيتك لمنعتك، إني سمعت رسول الله يقول: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[1].

والنكتة: أن هذا الحديث عند البخاري من رواية أبي هريرة ا مما يدلنا أنه لم ينته فحسب حين نصحه، أبو بصرة بل تبنى نشر هذا الحديث ورواه لغيره، ولم يتمادى في ما وقع فيه كحال الذين مضى حديثهم فأين الثرى من الثريا والتبر من الترب؟!

---

(١) الحديث الذي في القصة رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧). والقصة رواها أحمد (٢٧٢٧٣)، والنسائي (١٤٣٠)، وصححها الألباني في أحكام الجنائز: (ص٢٢٦)، وانظر: إرواء الغليل (٩٧٠).

# المبحث السادس
# التصوف بين الزهد والقطبانية وخصائص الأولياء

يكتنف الغموض نشأة التصوف على وجه التحديد، ولكن الذي يمكن لمحه من الطبقات وغيرها من الكتب التي تعنى بنشأة التصوف: أنه بدأ كغيره من العلوم التي اختطت لها خطاً توليه الاهتمام والانشغال به دون غيره مع الالتزام بالكتاب والسنة، وقد اتجه التصوف للبحث في أحوال القلوب، ومعالجة النفس، والزهد في الدنيا، وصار علماً يصرف إلى هذا الفن في البداية، وقد أدخل عليه بالتدريج مفاهيم يقررها الشيوخ في سلوكهم، وما زالت تتكاثر حتى مال في الانكفاء على الذات، وكانت هذه المفاهيم إرهاصاً لمدرسة مستقلة تزاحم مدرسة الفقه والحديث واللغة والعلوم العقلية، ولعدم اهتمامه بالنصوص غادر النشأة شيئاً فشيئاً حسب التقرير عند أصحاب السلوك بما تمليه عليهم الاجتهادات، فبين مقلٍ ومستكثر، وقد تميزت صفوف الزهاد عن العارفين فضلاً عن العلوم الأخرى من زمن النشأة، غير أن هذه البداية لم تسلم من شائبة الغلو بل والشطح أيضاً، ووجهت سهاماً نحو المعارضين لها من المحدثين والفقهاء حتى جعل بعضهم العلم متهماً في الطريق قاطعاً له، فدخل عليهم الداخل في الانحراف في الزهد والابتعاد عن العلم.

**الزهد والمعرفة:**

والفرق الذي أشرت إليه بين الزهاد الذين غلّبوا السهر والجوع من ناحية، والعارفين الذين يتحدثون عن المحبة وما يتعلق بالفناء من ناحية أخرى قد ورد عند ذي النون المصري

في قوله للمريدين: من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بإظهار الجهل، والزهاد بإظهار الرغبة، والعارفين بالصمت[١].

فالزهد شيء آخر يختلف عن طريق العارفين الذين مناط طريقهم عدم الاعتراض لمن أراد الاستفادة منهم، خلافاً لمقابلة الزهاد بالرغبة في مجالستهم والسير معهم.

**الزهد والعلم:**

وأبو علي الروباذري يشرك التصوف مع العلوم الأخرى، ويجعل لكل فن أهله، فيذكر أن شيخه في التصوف الجنيد، وفي الفقه أبو العباس بن سريج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي[٢].

وهنا نلمح أنهم لا يرون مفارقة بين هذه الفنون، ولا مصادمة بين الأخذ بالتصوف والحديث والفقه والأدب، فأبو عبد الله الروباذري قال: إن التصوف ينفي عن صاحبه البخل، وكتابة الحديث تنفي عن صاحبها الجهل، فإذا اجتمعا في شخص فناهيك به مقاماً[٣].

ومنهم من يبتعد شيئاً قليلاً فيقدم التصوف على غيره ليكون ممهداً لما بعده، وليس عدواً له كعلي بن بندار الذي كتب الحديث في بدايته ثم قال لمن بدأ بالحديث والعلم قبل التصوف: شغلتك السنة عن الفريضة؛ لأن الصوفية ينظفون محل العلم من قلبك ليصلح لك قلبك لإقامة العلم فيه[٤].

---

(١) (ص:١٢١).

(٢) (ص:١٨٣).

(٣) (ص:٢١٢).

(٤) (ص:٢١٣).

ولا يعني هذا أن البداية لسير التصوف والعلوم كانت تمشي في خطين متوازيين وأنها صافية نقية، كلا، بل إن شائبة الغلو قد اعترتها في هذه البداية، فالدقاق مثلاً الذي يعد من أقران الجنيد يرى أن من آفة المريد كتابة الحديث والتزويج كما سيأتي.

**ربط العلم بالعمل:**

وثمة أمر آخر يؤكد مفارقة الأوائل لخط العلوم: وهو استكثار أصحابها من المسائل وتوليدها، والخوض في تفاصيلها دون ربطها بالجانب العملي، فرأوا أن الزهد كطريق يمكن أن يحقق هذا التوازن مع تغليب العمل في كثير من الأحيان، ومن هنا يمكن أن نفهم ما ينكره بشر الحافي من انحراف العلم عن خطه الأصيل، وعدم مراعاة ربطه بالعمل، في وصيته لطالب العلم بالعمل، ونهيه عن التفكه بالعلم دون العمل! قال: ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم، ويحك إنما يراد بالعلم العمل! فاسمع يا أخي وتعلم، ثم اعمل واهرب، ألا ترى إلى سفيان الثوري كيف طلب العلم وهرب من الدنيا[١].

أما ركون بعض العلماء لأهل الدنيا، ومداراتهم فهو الذي نعاه إبراهيم بن أدهم في قوله: لولا نقصٌ دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس في زمانهم، ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون دنياهم[٢].

**شعار المسلم:**

والذي يظهر لنا من بداية أمر التصوف في إطار التوطئة السابقة: أن السلامة تكون في صحبة العلماء الذين يعملون بعلمهم، ولم يركنوا لأهل الدنيا، ومثله سواء يكون في أهل

---

(١) (ص:١٢٥).

(٢) (ص:١٢٣).

التزكية الذين يبحثون في أعمال القلوب ولم يكونوا في منأى عن العلم، فإذا ما اجتمع العلم والعمل، والزهد والعلم بدين الله فأنعم بهذا من مسلك! ونكاد نتفق مع يحيى بن معاذ الرازي (ت:٢٥٨هـ) في الفكرة وهو يحذر الناس في وقته من صحبة ثلاثة أصناف: العلماء الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين الذين يتعبدون قبل فروض دينهم[1].

وهكذا كان الزهد هو بداية الانطلاقة بعد أن طرأ عليه ما طرأ، والسلف كانوا يعدون الزهد شعاراً لكل مسلم، مقتدين فيه بقدوتهم في عدم الاغترار بفتنة الحياة الدنيا وزينتها، ولم يكن قطعاً بمعنى العزلة عن ميدان الحياة أو الرهبانية التي ابتدعها السابقون ولسان حالهم:

**طريق الزهد أفضل ما طريق وتقوى الله بادية الحقوق**

**فثق بالله يكفك واستعنه يعنك وذر بنيات الطريق**

وكانت مدارة السلف للنفس باللطف وعدم التشديد عليها، والأخذ بها حتى تتقوى قليلاً على العبادة، ولم يأخذوها جملة واحدة فتميل كل الميل، بل القصد سبيلهم، فلم يكونوا يرون التعمق والتشدد في العبادات، وترك المباحات، وحضور السماع، والغموض في المصطلحات، وأما من أراد أن يستدل بأحوالهم، وينتسب إليهم من غير اقتفاء طريقهم فليس له إلا مجرد الصورة أو الخيام دون الحقيقة على حد قول الآخر:

**أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها**

وقد أحببت أن أتقدم بهذه المقدمة المنتقاة من الطبقات لنصل إلى انحراف التصوف عن بدايته.. إلى أمور أخرى ليست من الزهد في شيء، فالرياضة للنفس وتعذيبها بالمجاهدات إنما

---

(١) (ص:١٤٠).

جعلت لفناء الصفات البشرية لتحل محلها الصفات الإلهية، وبرز عالم الأقطاب وخصائصهم التي لا علاقة لها بالزهد ألبتة، وإنما هي من قواعد التصوف، وظهر القول بتقديم الكشف والذوق والمنام على النص، ومن قعد به الحديث عند الزهد ولم يراع ما أضيف عليه فإنه يعيش خارج نطاق عالم التصوف.

**عالم الأقطاب:**

لسنا في حاجة إلى إطالة الحديث عن انحراف مجرى التصوف الذي بدأ بالزهد فعلاً، وكان في داخل أسواره حبيباً إلى النفوس، ويعد مدرسة تميزت وانشغلت بالنفس وإصلاحها، في منافسة لبعض المذاهب الفكرية المختلفة كما سبق، ولكن كيف نتعامل معه بنفس النظرة وقد ألقي في مجراه من أودية الفلاسفة ورهبانية النصارى، وحديث أهل الحقائق، وعقائد الرافضة ما جعل بيننا وبينه سداً؟! وانطلقت المدرسة المنغلقة داخل الزوايا إلى قيام دولة لإدارة الكون من خلال الأقطاب الذين يرشحون لمجلس الإدارة في الديوان الصوفي، ثم يصطف من بعدهم الأبدال والنقباء في توكيلهم ببعض المهام، وقد حددت من قبل التيناتي في تقسيمه النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعين، والأبدال أربعين، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، والنجباء مصر، والأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، والغوث مسكنه بمكة، فإذا عرض حاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته[1].

والقطبانية درجة عالية عندهم يتجاوز صاحبها جميع المقامات المحددة، ويمتلك

(١) (ص:١٧٠).

الخصائص المتعددة، وعدتها عند أبي الحسن الشاذلي خمس عشرة كرامة، وهي أن يمد بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما اتصل عنه إلى منتهاه وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وحكم ما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد له، وعلم البدء، وهو العلم المحيط بكل علم وبكل معلوم بدا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه[1].

وهذه خصائص تضاهي صفات الولاية عند الرافضة، ومن هذه الحيثية صغرت الولاية في جناب القطبانية؛ ولذا فلا غرابة أن يصرح أبو العباس المرسي بقوله: لو كان الحق ـ يرضيه خلاف السنة لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث أولى من التوجه إلى الكعبة![2]

والقطب لا يكون إلا واحداً فقط في كل زمان كما أفاده علي الخواص بقوله: الخلوة بالله وحده لا تكون إلا للقطب الغوث في كل زمان، فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق تعالى بشخص آخر مكانه، لا ينفرد لشخصين قط في زمان واحد، وهي أيضاً مرتبة ذات تكاليف كبيرة ومشقة خطيرة في التبعات التي تلقى على ظهر القطب،

---

(١) (ص:٤٠٩).

(٢) (ص:٣٦٨)، وغالباً ما يجمع الولي صفة الغوثية والقطبية معاً، كما قال ابن محمد الحنفي: أقام الشيخ-الحنفي-في درجة القطبانية ستة وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأياماً وهو القطب الغوث الفرد الجامع هذه المدة، ويبدو أن هذه المدة التي ذكرت هنا كان قد رفضها في شبابه فلم يلتفت إليها دون الله ﷻ، ثم بدا له أمر آخر فقبلها.

بأن يحمل هموم أهل الدنيا كلها[١].

ومع جلالة القطبية عندهم واعتبارها أعلى الهرم الصوفي إلا أن أحمد الرفاعي يزدري مقامها ويتنزه أن يوصف به، فقد قال له شخص من تلامذته: يا سيدي! أنت القطب؟ فرد عليه: نزه شيخك عن القطبية، فقال له: وأنت الغوث؟ فقال: نزه شيخك عن الغوثية، ويجاريه الشعراني على هذا الهراء، ويمد له العذر بأن القطبية والغوثية مقام معلوم ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام، وإن كان له مقام في كل مقام[٢].

قلت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب-: القول بالقطب يدور بين أمرين إما أن يكون مصطلحاً شرعياً له ما يحدده في إطاره المذكور، ووردت به النصوص، وهذا لا يستطيع أن يقول به أحد، فهذه دواوين الإسلام لم تشر إلى كلمة واحدة تتعلق بالصفات التي علقوا بها مقام القطبية، وإما أنه حادث هو والأعمال المنوطة بأصحابه لا يشهد بعدالته الكتاب والسنة فبطلت الدعوى، وهو الصحيح، بل إنه محاد لشرع الله بخصائص القطبية المزعومة مصادم للنصوص، حيث جعلوا لأقطابهم تصرفاً وحكماً ومدداً وغوثاً، وإجارة المستغيث، وتسييراً للعالم قال تعالى: * قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ & [المؤمنون:٨٩].

إذن من أين جلبوه؟! وفي أي واد عثروا عليه؟! لا ريب أنه من قفار فلسفة الأوائل

---

(١) (ص:٦١٨).

(٢) (ص:٢٤٥).

الذي اقتبسه الإسماعيلية منهم، فاستنسخه هؤلاء بصورة غير الأصل في الإمام والنقباء، قال ابن خلدون في مقدمته بعد ما ذكر أصحاب الوحدة: (وكان سلفهم - المتصوفة - مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين...ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قال الشيعة في النقباء حتى إنهم أسندوا خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم ورفعوه إلى علي بن أبي طالب ا ...)[1].

ولكي لا نطلق الكلام على عواهنه فإن خصائص الأولياء كما تصورها الطبقات تبين غربة هذه المصطلحات عن الشرع وكذا الصفات التي ادعوها وهو حديثنا الآتي.

## خصائص الأولياء كما تصورها الطبقات:

إن الخصائص التي نلقي بعصا السفر عندها الآن لتبين لنا افتراق الزهد والتصوف رسماً واسماً، وتبرئ السابقين الذين أدرجت أسماؤهم في أولياء الصوفية وهم في معزل عنها وبريئون من وصمة هذه الترهات، فلقد أنشأ هؤلاء الصوفية شبكة الأولياء الذين يتصفون بخصائص الربوبية، وهم إنما يتوصلون إلى العوام من طريق الخوارق وصناعة مثل هذه الأساليب في تصوير حال الشيوخ؛ لأن له تأثيراً على الغوغاء من الناس، والسيطرة عليهم، وإشاعة هذه القصص التي يستعذبها العامة؛ لما فيها من الغرائب التي يولعون بها، وقد أمضى سحر هؤلاء الصوفية في بعض الفقهاء الذين جاروهم، وكذا السلاطين الذين استسلموا لهم، فلا يملك العامة إلا السير في ركابهم، والقيام بما يستطيعونه في إرضائهم، وقد غلت أسعارها

(١) المقدمة (ص:٨٧٥).

في الواقع المريض، فرابى الصوفية فيها وباعوها بأثمان باهضة من تبعية الواقع برمته لهم، وصوروا ما هو خارج المحسوس في الشفاعة لتمتد إلى الملائكة! وتحمل البلاء والأمراض! وهم الذين يشفقون على الكلاب والحيوانات فكيف لا يحوطون أتباعهم بالعناية كما سيظهر معنا؟! وهكذا يؤدي المجتمع الضريبة طواعية بل تديناً لا يرى نفسه معفياً من مجاراة كل ما يريده الصوفية؛ لأن العاقبة مقت الأولياء وغضبهم وتصرفهم، ومن هنا امتلأت جوانح العامة تعظيماً للشيوخ، ومن ساكني الأضرحة والقباب، ويترجم هذا التعظيم سلوكاً يدفع من أجله الأتباع كل غال ونفيس، ويبذلون قصارى جهدهم لإرضائهم، ويأخذون أحب أموالهم إليهم، فيظلون أسارى هذه الخرافات.

**الخصائص كما وردت في الطبقات:**

**أولا: ادعاء تحمل المصائب والمرض:**

إن الإيغال في تعظيم الشيوخ عند الصوفية لا يقف عند حد معين، وليس هناك أمر مستثنى من إلصاقه بمقامهم حتى لو كان من خصائص الربوبية، طالما أن المقابلة لدى الأتباع الإذعان، والتلهف لسماع أقصى ما تنضح به مخيلتهم، وربما التفاخر به في سوق عرض الكرامات للشيوخ للتباهي بها، وما عليهم في مخالفيهم لأنهم قد حكموا عليهم لا سيما الفقهاء إما بالحسد أو القصور عن مدارك الأقوال.

والطبقات تعرض لنا مشاهد من تحمل الشيوخ لأعباء الأمة، كأمر أبي العباس المرسي الذي ينعي على العامة تعظيمهم الأولياء الوافدين قال: وكم من بدل وولي بين أظهرهم لا يلقون إليه بالاً مع أنه هو الذي يحمل أثقالهم ويدفع الأغيار! ويحتل القطب المكانة الكبرى في حمل الأثقال حسب مقامه الكبير عندهم، فهو يحمل هموم الأمة كلها[1].

(١) (ص: ٣٩٠-٥١٥).

ومن تلك المشاهد المزرية في تحمل المرض كما ورد في هذه الصور:

- أحدهم يدعى محمد الشويمي لا يتحمل المرض عن المريض فحسب، بل يتصدق من عمره على من يرى فيه أهلية التصدق، وكأن عمره بيده! فمثلاً لما مرض مدين - أحد شيوخ التصوف - مرة فأشرف فيها على الموت، وهبه من عمره عشر سنين![1]

ألا ترى أيها القارئ أننا بإزاء صياغة تنم عن فساد في الاعتقاد بل والعقل معاً! فكيف يتقبل امرؤ مسلم مثل هذا التخريف الذي لم نكد معه في ذهول وحيرة من هذا الهراء لا نملك معها إلا التأسي على واقع سادت فيه؟! فأين هذا الكلام من قوله تعالى: * فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ & [الأعراف:٣٤] ؟!

ونكاد نغص بالتلفيق فلم يمهلنا سياق القصة من الإفاقة من الحيرة حتى يفاجئنا بغصة أخرى فنرى مشهداً محزناً وهو موت الشيخ مدين - الذي نجا في المرة الأولى - في غيبة الشويمي، وفات الشويمي هذه المرة استعراض قدراته، فجاءه وهو على المغتسل فقال: كيف مت؟! وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت، ثم شرب ماء غسله كله!

- أما المشهد الآخر فبطله محمد عنان، الذي وصف بأنه إذا حضر عند من أشرف على الموت من شدة الضعف يحمل عنه، فيقوم المريض، وينام الشيخ مريضاً ما شاء الله، قالوا: ولعلها المدة التي كانت بقيت على ذلك المريض.. ولكي لا يخلو المقام من قصور في صورة الإجمال ففي موضع آخر نرى المشهد يكتمل حين ينزل إلى مستوى التفصيل، فيدخل محمد بن عنان على أحد الشيوخ - وهو البلبلي - فيراه مريضاً قد أشرف على التلف، فيرقد الشيخ

(١) (ص:٥٣٠).

مكانه، ويقوم المريض نشطاً في الحال كأن لم يكن به مرض، ويمكث محمد بن عنان مريضاً نحو أربعين يوماً![1].

ولا شك أن عمل مثل هذا يرفع صاحبه في مجتمع يأخذ بزمامه الصوفية، ويرقى درجات عالية، ويكون رقيه مفتاحاً لكل أصناف التبجيل والأرزاق والنذور حياً وميتاً، ولكنه ينزل في المقابل دركات سحيقة حين تغيب معالم العقيدة الحقة، قال تعالى: * قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلاً ﴿٥٦﴾ &.

وأما أحدهم وهو سويدان فقد كان فمه لم يزل فيه نحو الخمسين حبة من الحمص ليلاً ونهاراً، يقال: إنها حملات الناس![2].

ومن العجب هنا حال الرفاعي حين قال له خادمه يعقوب لما مرض مرضَ الموت: تجلت العروس في هذه المرة؟! فأجاب: نعم فقال له: لماذا؟! فرد ثانياً: جرت أمور اشترياها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشريته بما بقي من عمري فباعني[3].

هكذا تنسج الخرافات بلا زمام ولا خطام، وتغدو وهنة كبيت العنكبوت: ضربت عليك العنكبوت بنسجها! وقضى عليك بها الكتاب المنزل.

- وتسلمنا الطبقات إلى مشهد آخر ذي رعونة بالغة في الإساءة للمشاهدين، إذ يرفع

---

(١) (ص:٥٥٨).

(٢) (ص:٥٩٧).

(٣) (ص:٢٤٥).

الستار عن مشهد لولي هذه المرة مكشوف العورة، أشعث أغبر، هو الذي قدر له أن يكون البطل في تحمل البلاء، فمحمد بن هارون كشف له عن صاعقة تنزل على بلد سنهور من السماء تحرقها بأهلها! فأمر بذبح ثلاثين بقرة وطبخها ومدها في زاويته، وقال للنقباء: لا تمنعوا أحداً يأكل أو يحمل، فأكل الناس وحملوا جهدهم، فجاء فقير مكشوف العورة أشعث أغبر فقال: أطعموني فأطعموه، حتى إذا عجزوا فلم يقدروا عليه أن يشبع دفعوه وأخرجوه، فنزلت الصاعقة على البلد، فخرج الشيخ بأهله ومن تبعه، وهلك الناس في أسواقهم وبيوتهم، فقال الشيخ للنقيب: يا ولدي! ما هذا الذي فعلته؟! شخص يريد أن يتحمل البلاء عن بلدنا بأكلة تمنعه فهي خراب إلى الآن![1]

ولكن لا ذنب للنقباء في تحمل هذه التبعة، فالولي الأشعث لا يملأ بطنه طعام، ربما لم يسم الله ولم يكن على هدى، وإنارة العقل مكسوف بطوع هوى، ويا سبحان الله كيف يغبن هذا الأشعث غبناً فاحشاً حين يرضى بأكلة عوضاً بخساً مقابل أن يتحمل صاعقة عن أهل بلد؟! فيبدو أنه فات الراوي تغطية هذه النقطة، ولكن القرآن قد ضرب المثل ببيت العنكبوت في اتخاذ أولياء من دون الله لجلب نفع أو دفع ضر، قال تعالى: * مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ & [العنكبوت:٤٢].

- ورأى محمد بن عنان بلاءً عظيماً نازلاً على مصر، فأرسل للشيخ علي الدميري، فقال: الله لا يبشره بخير، ولكن توافي البركة، فجاء جان بلاط المؤتمر محتسب مصر فأخذ الشيخ علياً

(١) (ص:٣٦٠).

من الدكان وضربه مقارع، وخزمه في كتفه وأنفه، ودار به في مصر وبولاق، فلما صلى الشيخ محمد الظهر ورأى البلاء ارتفع قال: روحوا انظروا أيش جرى للشيخ علي، فراحوا فوجدوه على تلك الحال، فردوا على الشيخ محمد الخبر، فقال: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يتحمل عنها البلايا والمحن ثم خر ساجداً لله تعالى[1]!!

فلينظر المسلم ما آل إليه الغلو، ثم يعيد النظر ثانية ليحمد الله ﷻ الذي عافاه مما ابتلى به هؤلاء من خرافات يقشعر لها البدن! ويلهج بالثبات على الحق، ويرمي بأخبار تزعم أن الدميري يعلم بالبلاء فيشتريه بثمن من صحته، ويتعرض للمصائب كعوض لرفع البلاء عن الناس! ولا يسلمها إلا يداً بيد فيأخذ مقابل ذلك التقديس والتبجيل:

**تخرصاً وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب**

وهكذا نجح الصوفية في استمالة قلوب العامة، والإمساك بمشاعرهم، وتسويغ معرفتهم بنزول البلاء من ناحية، وتصوير تحملهم له عن الأمة من ناحية أخرى، فأي امرئٍ لا يقف عند عتباتهم، وتعد تبعية الدهماء لهم بعد ذلك استفتاء قبولهم وسيطرتهم على زمام الأمور الذي يقود إلى خضوع السلاطين لهم أيضاً.

وهناك مشاهد أخرى تتعلق بما سبق ذكره قادنا إليها قصة ذاك الشيخ مكشوف العورة الذي أراد أن يتحمل البلاء بأكلة، وكان قد اكتشف هذا البلاء محمد هارون، وعلى هذا المنوال تسف أخبار الطبقات في منتهى دركات الإسفاف من خلال النظر إلى ثياب المجاذيب تارة، أو مراقبة النار التي يوقدونها تارة أخرى، للحكم على أنواع البلاء المنزل، وهي من

(١) (ص:٦١٠).

أعظم اكتشافات هؤلاء التي توصل علمهم إليها، والحقيقة أن التخريف لا يلتفت إلى الأسباب مهما كان العمل أصلاً، فقد وردت حكايات منها:

- إبراهيم المجذوب كان كل قميص يخيطه ويحزقه على رقبته، فإن ضيقه جداً حتى ينخنق حصل للناس شدة عظيمة، وإن وسعه حصل للناس الفرج![1]

- وعلي الخواص؛ إذا شك في نزول بلاء على أهل مصر يقول: اذهبوا للشيخ محيسن البرلسي فانظروا النار التي عنده هل هي موقدة أو مطفية؟ فإن كانت مطفية حصل في مصر رخاء ونعمة، وكان الناس في غاية الراحة، فأوقد الشيخ محيسن النار فقال الشيخ: الله لا يبشره بخير، فأصبح الناس في شدة عظيمة في مسكهم لبلاد الهند وحصل لهم غاية الضيق![2]

فالثياب لم تعد وظيفتها اللبس فحسب، كما أن النار لها وظيفة أخرى عند القوم تخرج عن المألوف، وعلى المريد أن يتقبل هذا كله بإذعان، ولا بد لنا من وقفة نلخص فيها هذا الكلام على النحو التالي:

أولاً: إن القرآن العظيم جاء ليدحض الاعتقاد في الشركاء، وإن الشرك ظلم فما بال هؤلاء القوم يدعون أتباعهم للإشراك صراحة، ويطلبون منهم التوجه إليهم، ويخلعون عليهم صفات تحمل المرض وتأخير الموت ودفع البلاء؟! أما قرؤوا قوله تعالى: * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) (ص:٥٩٤).

(٢) (ص:٥٩٥).

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ & [يونس:١٠٧].

ثانياً: ما ورد في الحكايات السابقة يوضح دعوى القوم في معرفة الغيب، قال ابن حجر في فتح الباري: (وفي الآية: * فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ & [الجن:٢٦] رد على المنجمين وعلى كل من يدعي أنه يطلع على ما سيكون من حياة أو موت أو غير ذلك؛ لأنه مكذب للقرآن، وهم أبعد شيء عن الارتضاء مع سلب صفة الرسلية عنهم)[1].

ثالثاً: كيف يستقيم في العقل هذه الخوارق التي تنافي القرآن صراحة؟! وتفيض الطبقات بالحديث عن تحمل هؤلاء البلاء والمرض والشدة، بل وتأخير الموت، ويدعون الناس إلى اعتقاد ذلك، وقد كان المشركون يجأرون إلى الله إذا كانوا في الضر مع إشراكهم في الرخاء، كما قال تعالى: * فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ & [الزمر:٤٩].

## ثانيا: ادعاء التصرف في الكون:

وثانية الخصائص في ما يتعلق بجناب هؤلاء الصوفية أصحاب الصوف والمرقعات هو ما يخلعون على شيوخهم من صفات الربوبية كالتصرف في الكون حتى يصير العالم في قبضة أحدهم، ويا ليت شعري كيف تسللت هذه الخرافة التي يقول بها الرافضة في أئمتهم إليهم فتلقفها هؤلاء الصوفية، ونسبوها لشيوخهم مضاهاة لهم بل وأبعد شوطاً؟! فإنها لدى الرافضة محصورة في الأئمة، وهؤلاء أخرجوها من الحصر ليتملكها الأولياء في أطراف

(١) فتح الباري: (١٣/ ٣٦٤-٣٦٥).

البلاد، فشالت كفة الرافضة ورجح في التخريف ميزان هؤلاء، وكيف يمتلئ قلب بتعظيم البشر الذين لا يملكون من قطمير؟! ولكنها شبكة العنكبوت التي تتصرف في من قعدت بهم التصورات عند عتبات الشيوخ وقبابهم، فيتصورون أن العبد إذا تمكن في الأحوال بلغ محل القرب من الله وصارت همته خارقة للسبع السموات، وصارت الأرضون كالخلخال برجله.

وقد صوروا لنا أن مقاليد الأقاليم قد أسلمت للأقطاب يتصرفون فيها، ومنهم الجيلاني والرفاعي قالا للبدوي: يا أحمد! هذه مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب بأيدينا فاختر أي مفتاح شئت، وطبعاً لم يلتفت البدوي إلى هذا السخاء في العطاء بل جعل يقول لهما: لا حاجة بمفاتيحكما، ما آخذ المفتاح إلا من الفتاح[(١)]!

**وممن نعت بهذه الصفة:**

- سويد السنجاري وصف بأنه أحد من ملكه الله في التصرف في العالم[(٢)].

- وعلي بن وفا قال لمحمد الحنفي: ما تقول في رجل رحى الوجود كلها بيده يدورها كيف شاء؟! فقال له الحنفي: ما تقول في من يضع يده عليها فيمنعها أن تدور؟! فقال علي: كنا نتركها لك ونذهب، فقال الحنفي لجماعة علي: ودعوا صاحبكم فإنه ينتقل قريباً[(٣)].

والمتأمل لتراجم مشاهير الصوفية في الطبقات وغيرها يجد إشكالية في وجود هذه الصفة، ألا وهي تعدد التصرف لدى من عاشوا في عصر واحد، بل وربما زمان واحد

---

(١) (ص:٣١٠).

(٢) (ص:٢٥٧).

(٣) (ص:٤٩٩)، ومحمد الحنفي قيل بأنه أحد من أظهره الله إلى الوجود وصرفه في الكون، ونقل عن إبراهيم المتبولي قوله وهو يقبض على لحيته: يا ما تقاسي مصر بعد هذه اللحية أنا أمان لها!

كالجيلاني والرفاعي مثلاً، فلا شك أنهم متشاكسون وكل واحد يريد أن ينفرد بهذه الصفة، هذا إذا لم ننجر مع غير المشاهير الذين تنسب لهم تلك الصفة في العصر نفسه، ولم نظفر حتى الآن بحل هذا الإشكال مدوناً.

فالحق أحق أن يتبع، والباطل أولى أن يدحض، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم: * قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ & [يونس:٣٢].

**ثالثا: ادعاء إجابة المضطر:**

وأما ثالثة الأثافي فهي مناقضة التوحيد الخالص في صفة إجابة المضطر، فالله ـ قد تفرد بأفعال الربوبية في الخلق والرزق والإحياء والإماتة والملك، فهو الرب وحده، كما تفرد جل جلاله بالألوهية من إفراده بالعبادة من دعاء واستغاثة وذبح ونذر وغير ذلك من سائر أفعال العباد، وبعث أنبياءه ليدعو الناس إلى عبادته وحده ولا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: * وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولاً أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ & [النحل:٣٦]، وقال تعالى: * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ & [الأعراف:١٩٤]، وقوله: * وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ & [الأعراف:١٩٧].

وبين تعالى أن من يدعونهم من ملائكة وأنبياء وصالحين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، قال الله لنبيه: * لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ &[آل عمران:١٢٨].

وعند الشيخين من حديث أبي هريرة ا قال: (قام رسول الله حين أنزل الله تعالى: * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ & [الشعراء:٢١٤]، فقال: يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً)[(١)].

وأما هؤلاء الصوفية فقد خلعوا خصائص الربوبية على شيوخهم، ومن ذلك إجابة الداعين والمضطرين ليس من قبل الأحياء منهم بل ممن واراه التراب أيضاً، وقد أبوا إلا خروجه من الجدث ليعيش مع المعتقدين فيه، تطاولاً على حمى التوحيد، وزعموا أن حياة بن قيس - أحد الشيوخ - هو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم بأرض العراق[(٢)].

وأفسدوا العقائد بهذه الأوهام، وعادت دعوة الناس إلى القبورية تحت لافتة الولاية، وانتهى السوء إلى التنافس على دعوة الناس لعبادتهم بعد موتهم ومنهم:

- محمد الفرغل يقول: أنا من المتصرفين في قبورهم، فمن كانت له حاجة فليأت قبالة وجهي ويذكرها لي أقضها له[(٣)].

- ومحمد الحنفي في مرض موته يقول: من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له، ثم زاد في غيه فقال: فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) (ص:٢٥٩).

(٣) (ص:٥٣٣).

(٤) (ص:٥١٨).

والعجب أن زوجة الحنفي هذا لم تراع وصيته عند الموت، وحادت عنها حين أشرفت على الموت، فكانت تقول يا سيدي أحمد يا بدوي خاطرك معي! وتنقلنا الحكاية مباشرة من فراش مرضها إلى عالم القبور، حيث يبدو في المنام البدوي وهو ضارب لثامين! وعليه جبة واسعة الأكمام، عريض الصدر، أحمر الوجه والعينين، ويقول لها: كم تنادين وتستغيثين؟ وأنت لا تعلمين أنك في حماية رجل من الكبار المتمكنين، ونحن لا نجيب من دعانا وهو في موضع أحد من الرجال!! قولي: يا سيدي محمد يا حنفي يعافك الله تعالى! فقالت ذلك فأصبحت كأن لم يكن بها مرض.

ولنا هنا وقفتان:

الأولى: لقد غاضت ينابيع الهدى، وفاضت منابع الردى بهذه الدعوة الصريحة للتعلق بجثث الموتى التي طهر الله منها سير السلف الصالح، فلم ينقل عن أحد الوصية بإتيان قبره بعد موته، ولا بالرجوع إليه، فارتكس التصوف في حمأة ذلك، وإجابة المضطر مما تفرد الله به في أفعاله، ودليلنا على أن دعواهم هذه من باب الربوبية ما ورد في سورة النمل من خصائص الله ﷻ وتفرده بخلق السموات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات الحدائق، وما جعله في الأرض من رواسي وحاجز بين البحرين، ومنه قوله: * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ & [النمل:٦٢].

الثانية: إن هذا التلبيس هو من مكر الشيطان ليضل الناس، ويردهم على أعقابهم بعد ما أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل لإقامة التوحيد، وهذا جاء صريحاً في قصة الحنفي إذ وقعت له ابنة صغيرة من موضعٍ عالٍ، فظهر شخص وتلقاها على الأرض، فقيل له من تكون؟ قال: من الجن وهذا بنصه من الطبقات، ولله در شيخ الإسلام إذ يقول: (ولهذا أعرف

غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصي مريديه يقول: (إذا كانت لأحدهم حاجة فليستغث بي وليستنجدني وليستوصني ويقول: أنا أفعل بعد موتي ما كنت أفعل في حياتي، وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله وتضل أتباعه، فتحسن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله)[1].

**رابعا: ادعاء الشفاعة:**

الشفاعة مقيدة في العقيدة الصحيحة بأمرين هما: إذنه تعالى للشافع ورضاه عن المشفوع، وبهذا نطقت الآيات وأنها من الخصائص المتعلقة بالله لا يشفع أحد إلا بإذنه، قال تعالى: * مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ & [البقرة:٢٥٥]، وللصوفية دعاوى عريضة في امتلاك الشفاعة للشيوخ من غير النظر إلى قيدها المقرر، بل إن بعض الأولياء يمتلكونها ويقومون بممارستها وفق أهوائهم، ولأن الذين لا علم عندهم بحقيقة الشفاعة يطلبونها ممن يخلصونهم من التبعات التي على ظهورهم، فيهونون لهم الأمر كل التهوين، ولا يكلفونهم سوى الوفادة على عتباتهم، ليلقوا بأوزارهم تحت مسمى الشفاعة، ثم يحصلوا على المقابل.

وهل يعجز - عندهم - ولي من أصحاب الزوايا من الشفاعة في حفنة من التراب على حد قول إبراهيم بن شيبة حين دخل يوماً على أبي يزيد فقال: لو شفعك الله في جميع المخلوقين لم يكن ذلك كثيراً! إنما هم قطعة طين فتحير أبو يزيد من جوابه![2]

---

(١) الفتاوى (١٧/ ٤٥٨)، وقال أيضاً: وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي والميت فيأتونه في صورة ذلك الشيخ، وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه، أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان، لما أشرك بالله أضلته الشياطين، والملائكة لا تجيب مشركاً.

(٢) (ص:١٣٣).

والشفاعة في قاموسهم وطبقاتهم لا تكلف المرء التزاماً بالتوحيد والاستقامة على الطاعة، ومجانبة المعاصي، بل تحصل بمجرد دخول مدرسة الشيوخ أو مساجدهم بل ومقابرهم بعد موتهم وأحياناً رؤية الشيخ فقط، ونصاب الرؤية المطلوب توافرها هنا مرة واحدة لينتهي المطاف والتهريج إلى الفضيحة حين تؤثر الشفاعة في متعلقات العصاة طالبي الشفاعة، فإنه يدخل على سبيل التبع، ولو كان سمكاً يحملونه وإليك التفصيل لما سبق إيجازه:

- فأبو بكر البطائحي كان يقول: أخذت من ربي ﷻ عهداً أن لا تحرق النار جسداً دخل تربتي، ويقال: إنها ما دخلها سمك ولا لحم قط فأنضجته النار أبداً[(١)]!!

- والجيلاني نسبوا له أنه كان يقول: أيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفف الله عنه العذاب يوم القيامة، وكان رجل يصرخ في قبره ويصيح حتى آذى الناس؛ فأخبروه به فقال: إنه رآني مرة ولابد أن الله تعالى يرحمه لأجل ذلك، فمن ذلك الوقت ما سمع له أحد صراخاً[(٢)].

- وأحمد سليمان الزاهد، كان يقول: ما دخل أحد مسجدي ذا ثم صلى ركعتين إلا أخذت بيده في عرصات القيامة، فإن الله شفعني في جميع أهل عصري[(٣)].

فمن الذي لا يفد على باب هؤلاء ليأخذ البركة نقداً؟! وأما الفقهاء فحديثهم في ذلك إلى نظرة فلا حاجة إلى التعلق بهم!

---

(١) (ص:٢٢٦).

(٢) (ص:٢١٧).

(٣) (ص:٤٩٤).

والقول الذي وردت به النصوص أن الشفاعة لله وحده، قال تعالى: * أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ & [الزمر:٤٤]، ولا بد في الشفاعة من الاستقامة على التوحيد، ورضا الله عن المشفوع، وإذنه للشافع، لا أن تقسم بأهواء القوم، قال تعالى: * لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ & [مريم:٨٧]، وقال تعالى: * يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ & [طه:١٠٩]، وقد قام النبي ﷺ حين أنزل الله ﷻ: * وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ & [الشعراء:٢١٤]، قال: يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[1].

فبأبي هو وأمي نفى منفعته لقرابته هؤلاء لكونه لا يملك الشفاعة لأحد حتى يأذن الله له جل جلاله، ويرضى عن المشفوع، فماذا نقول لمن حاد عن هديه، وتنكب طريقه، ورام التناوش للشفاعة من مكان بعيد؟!

## مراجعة ملك الموت والشفاعة في ملك آخر:

وهنا أمسك فؤداك أيها المشاهد لا يطير فرقاً من هذا الموقف المهيب بسبب الجراءة البالغة، وإنا إذ نذكر ما في هذا الجانب نذكر عجره وبجره، فالطبقات تقف بك عند محمد الشربيني لما ضعف ولده أحمد وأشرف على الموت، وحضر عزرائيل لقبض روحه قال له

(١) تقدم تخريجه.

الشربيني: ارجع إلى ربك فراجعه؛ فإن الأمر قد نسخ، فرجع عزرائيل وشفي أحمد من تلك الضعفة وعاش ثلاثين سنة[١]!!

ومشهد آخر بالغ في الرعونة ينطلق من مجلس عبد الرحيم القماوي، حين نزل يوماً في حلقته شبح من الجو لا يدري الحاضرون ما هو، فأطرق ساعة، ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه؟ فقال: هذا ملك وقعت به هفوة فسقط علينا يستشفع بنا؛ فقبل الله شفاعتنا فيه[٢].

وهذه زلة كافية بإتلاف الكتاب برمته، لأنه مما تقشعر من ذكره الأبدان، وما أبعد الصدق عن ذلك! فلا حاجة لنا في التصوف بهذا الصنيع، وعندنا الكتاب والسنة، قال تعالى: * وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ & [الأنبياء:٢٠]، وقال تعالى: * وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ & [الأنبياء:٢٨].

وهذه شياطين تصورت لهؤلاء لتضلهم وتضل من اتبعهم، حيث جاءت بصورة ملائكة إمعاناً في إفسادهم، فيرون أنواراً وأمواتاً يأتونهم وغير ذلك من الصور وربما أخبروه ببعض الأمور، وما ذاك إلا من مكر إبليس، وإذا اقتبسنا من أفكار الصوفية ما يقولونه فقد أصبحنا في فقر وذل، فعلى عقول تتقبل هذا الهراء العفاء:

**لئن أصبحت في بكر بن جشم إذاً أصبحت في ذل وفقر**

---

(١) (ص:٥٨٣)، واسم ملك الموت عزرائيل لم يثبت بنص صريح فلينتبه لذلك.

(٢) (ص:٢٦٥).

**خامسا: الجنة والنار في فكر هؤلاء القوم:**

عجبٌ أمر هؤلاء الدراويش الذين صوروا للعامة ارتفاعهم من البشرية! ولذلك يحرم من نظر إليهم من زاوية البشرية من الانتفاع بهم، بل على الأتباع أن يرونهم بعين أخرى، ولا تتوقف عجلة المشاهد عند الأمور الدنيوية بل تمضي بنا لتنقلنا إلى العالم الآخر لتطلعنا على أحوال هؤلاء الدراويش، فإذا بهم لا زالوا في منصة الخيال والتلفيق.

- الحلفاوي قال له الشويمي بعد أن هجره وكان يمشي بحلفايته في الزاوية: رأيت الحق يغضب لغضبك يا أخي! وقال مدين: أنا رأيته يمشي بحلفايته هذه في الجنة[1].

- أبو الحسن الشاذلي: طوبى لمن رآني أو رأى من رآني، أو رأى من رأى من رآني!!

- وجاءته امرأة فقالت: هذه ثلاثون ديناراً وتضمن لي على الله دخول الجنة! فماتت فبلغ ورثتها ذلك، فجاءوا يطلبون الثلاثين من الشيخ وقالوا: هذا الضمان لا يصح، فجاءتهم في المنام وقالت: اشكروا لي فضل الشيخ فإني دخلت الجنة؛ فرجعوا عن الشيخ[2].

وأما النار ففي الحديث عنها استخفاف نسأل الله العافية! وأن لا يؤاخذنا بسفاهة السفهاء:

- فأحمد بن سليمان لا يقشعر له بدن لما كشف لمريده مرة أنه من أهل النار، ولما توجه هذا المريد الجاهل بحال شيخه إلى الله أن يمحو اسم شقاوته دق عليه الشيخ وقال: يا ولدي! أنا لي منذ ثلاثين سنة أرى ذلك ولا اعترضت ولا سألت التغيير، فأنت في ساعة واحدة تلقلقت! ثم توجه الفقير فوجد الشيخ قد حول اسمه في السعداء[3]!

---

(١) (ص:٥٣١).

(٢) (ص:٣٣٩).

(٣) (ص:٤٩٤).

- ومنهم عمر الكردي ذكروا من خبره أنهم لما دفنوه قال إبراهيم المتبولي: وعزة ربي ما رأيت منه نازلاً في قطعة من جهنم وما فيه من شعرة تتغير!![1]

- ومنهم شمس الدين الحنفي دخل الحمام يوماً مع الفقراء، فأخذ ماءً من الحوض ورشه على أصحابه وقال: النار التي يعذب الله بها العصاة من أمة محمد مثل هذا الماء في سخونته ففرح الفقراء بذلك[2].

فاللهم سلّم سلم من هذه الأحوال والجراءة التي تجرئ العصاة على المعاصي والذنوب! وهل هؤلاء الفقراء من العلم يتلون كتاب الله ويقفون عند صفة النار فيه، وأهوالها وجحيمها وسمومها، وطعام أهلها وشرابهم، والمقامع من الحديد، وأحوال أهل النار - أجارنا الله من عذابها - أم أنهم يقدمون هراء شيخهم ويفرحون به؟!

أما بلغهم ما رواه مسلم في صحيحه أن ربيعة بن مالك الأسلمي قال للنبي وكان قد خدمه بضع سنين: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال له عليه الصلاة والسلام: (أو غير ذلك؟) قال: هو ذاك. قال: ( فأعني على نفسك بكثرة السجود) [3]؟! ولكن لو سلكوا طريق الاستقامة على كتاب الله وسنة نبيه، وأمضوا أوقاتهم في العلم والعمل والدعوة إليهما لسلك الشيطان فجاً آخر ولم يكن له عليهم سبيلاً، ولكن أتوا مكره يمشون فأتاهم يسعى في إضلالهم والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

---

(١) (ص:٤٩٧)، ومنهم عثمان الخطاب إذا قال له شخص: المدد يقول عثمان: حطبة من حطب جهنم فماذا ينفعكم خاطره؟!

(٢) (ص:٥٢٢).

(٣) رواه مسلم (٤٨٩).

**سادسا: الطيران في الهواء والمشي على الماء:**

بدعة القول بطيران الأولياء في الهواء ومشيهم على الماء ترجع إلى عهد قديم لم يكن المتأخرون إلا محاكين لأقوال السابقين فيه، وربما اخترعوا أسماء أخرى جديدة كطي الأرض للأولياء، ويقسم هذا الطي عند أبي العباس المرسي إلى نوعين: طي أصغر، وطي أكبر، فالطي الأصغر لعامة هذه الطائفة، أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد، والطي الأكبر طي أوصاف النفوس[(١)].

ولذلك فقد اشتد نكير السلف على قولهم الأول وهو الطيران في الهواء، ومنهم الشافعي حين قال له يونس بن عبد الأعلى: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث/ بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، ولا ندري ماذا سيقول الإمام الشافعي إذا سمع ما اخترعوه من قدراتهم على طي الأرض في نفس واحد[(٢)].

ومنهم من ذهب إلى خلف جبل قاف من أجل إحضار أمر بسيط، كالفرغل حين دخل عليه بعض الرهبان فاشتهى عليه بطيخاً أصفر في غير أوانه؛ فأتاه به وقال: وعزة ربي لم أجده إلا خلف جبل قاف![(٣)].

وهذه صور من طيران الشيوخ في الهواء ومشيهم على الماء، وبعضها صريح في دور الجن بأخذهم حيث يريدون:

---

(١) (ص:٣٧٩).

(٢)) سبقت الإشارة إليه.

(٣) (ص:٥٣١)وجبل قاف يزعمون أنه محيط بالكرة الأرضية.

- أبو عمرو القرشي صلى العشاء مرة بمنزله بمصر، ثم خرج هو وخادمه أبو العباس المقري يتمشيان، فدخلا مكة فصليا في الحجر ساعة طويلة، ثم خرجا إلى المدينة فدخلاها فزارا رسول الله، ثم خرجا إلى بيت المقدس فصليا فيه ساعة، ثم رجعا إلى مصر قبل الفجر، قال أبو العباس: ولم أحس تلك الليلة بتعب[١].

ولم يحس بتعب لأنه لم يذهب أي مكان أصلاً، أو أنه حمله الجن!

- ومنهم محمد السروي كان كثيراً يكون جالساً عند زوجته، فيمر عليه الفقراء في الهواء فينادونه، فيجيبهم ويطير معهم فلا تنظره إلى الصباح، قال: بينما أنا ذات يوم في منارة جامع فارسكور ليلة من الليالي إذ مر علي جماعة طيارة فدعوني إلى مكة، فطرت معهم فحصل عندي عجب بحالي؛ فسقطت في بحر دمياط فلولا كنت قريباً من البر وإلا كنت غرقت وساروا وتركوني[٢].

- ومنهم محمد الحنفي، كانت رجال الطيران تأتي في الهواء إليه فيعلمهم الأدب، ثم يطيرون في الهواء والناس ينظرون إليهم حتى يغيبوا، وكان يزور سكان البحر بثيابه فيمكث ساعة طويلة ثم يخرج ولم تبتل ثيابه[٣].

- وأما أحمد السطيحة فقد وقف على باب زاوية الشعراني وهو في شفاعة عند الباشا فقال للشعراني: يكون خاطركم معنا في هذه الشفاعة، قال الشعراني: فأخذتني حالة فرأيت نفسي واقفاً على باب الكعبة، فقلت: يا هو أبعدت عنا[٤].

---

(١) (ص:٢٥٧).

(٢) (ص:٥٦٨).

(٣) (ص:٥١٤).

(٤) ومنهم محمد عنان قيل: إنه يعرف السماء طاقة طاقة! (ص:٥٥٤).

- وعلي أبو خودة نزل يوسف الحريشي معه في مركب، فمر عليها الريح فضربها بعكازه فلم تتزحزح، فنزل هو وعبيده يمشون على الماء إلى أن وصلوا شربين[١].

وليس حاله مع العبيد بمرضي عنه - وقد سبق - عند أهل الطريق، وقد قيل فيه ما قيل، فكيف يعد مشيهم على الماء من الكرامات؟!

- ومنهم علي الدويب كان يمشي على الماء في البحر، وما رآه أحد قط نزل في مركب[٢].

ولا يستقر هذا الحديث مع أحوال ليست مع الشرع منسجمة، وقد يروم بعضهم التبجيل والعطاء من وراء هذه الدعاوى الكبيرة، قال شاعر في وصف حال من كان هكذا:

**إذا أتوا منزلاً قالوا لصاحبه — قبل يد الشيخ ذي الإكرام والأدب**

**هذا له نظر هذا له همم — له الكرامات بين العجم والعرب**

**يمشي على الماء يطوي الأرض قاطبة — وفاتح كل باب مغلق أشب**

كما أن الطيران لا يدل على فضيلة فالذباب يطير، ويرجع بعض هذا الطيران إلى التعامل مع الجن والشياطين، قال شيخ الإسلام يصف بعض خوارق المبطلين تاركين الصلاة: (وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها...)[٣].

---

(١) سبق ذكره.

(٢) (ص: ٥٨٤)

(٣) الفتاوى: (١/ ٣٦٣).

وهذه قصة تدل على أن الجن والشياطين هي التي تلعب دوراً كبيراً في ما سبق، حيث تحمل هؤلاء إلى أماكن بعيدة وتطير بهم، فعمر صهر محمد الحنفي أرسله الحنفي يوماً حين اشتغل عن الجن ليقرئهم فأقرأهم في بيت الشيخ ذلك اليوم، وكان يقول عمر هذا: طلبت مني جنية أن أتزوجها، فشاورت سيدي محمداً فقال: هذا لا يجوز في مذهبنا، فعرضت ذلك على ملكهم حين نزلت معها تحت الأرض فقال: لا أعترض على سيدي محمد فيما قال، ثم قال الملك للوزير: صافح صهر الشيخ باليد التي صافحت بها النبي ﷺ؛ ليصافح بها سيدي محمد فيكون بينه وبين النبي ﷺ في المصافحة رجلان، وأخبرني أن بينه وبين وقت المصافحة ٨٠٠ سنة ثم قال للجنية: رديه إلى الموضع الذي جئت به منه[١].

قلت: وليس في الطيران بهذه الكيفية دليل على الكرامة، فإن السحرة الذين يعبدون الجن يفعلون ذلك كما في تذكرة داود الأنطاكي بسنده - المظلم - عن ذي النون المصري عن البهلول عن الحلاج عن ابن هلال في العزيمة: بحج هلمنج بوه ياه يدح لوهجج محلفا يا شمخنا يا جحفشا يا قطروش يا بطيطيش يا ملطيوس آل شداي هو مسنحينا الذي لا يحول ولا يزول، العجل العجل! الساعة الساعة! بحق هذه الأسماء ارفعوني من هذا المكان وفي هذه الساعة، ثم يضرب المقرعة قال: فإنك ترفع عن الأرض وتطير في الهواء، وكان قد ذكر الأسماء تكتب بدم نسر[٢]!

---

(١) (ص:٥١٥).

(٢) انظر كتاب: تعلم السحر بين المسلمين وأهل الكتاب، تأليف أحمد حجازي السقا، أجارنا الله من طريق أهل الكفر والضلال.

**سابعا: ادعاء العلم بما في الأرحام:**

يعد العلم بما في الأرحام من الغيبيات الخمس التي لا يعلمهن إلا الله كما قال تعالى: * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ & [الأنعام:٥٩]، ولكن هؤلاء الصوفية يريدون أن يقولوا لنا: إن الرياضة التي سلكوها قد أذهبت صفاتهم البشرية، وحلت محلها الصفات الإلهية، وما هذا إلا حيلة من وساوس إبليس، وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، ونسوق ما ورد في الطبقات كشاهد على هذه المصيبة:

- خبر منصور البطائحي الذي كانت أمه تدخل على شيخه محمد الشنبكي فينهض لها قائماً، وتكرر منه ذلك فسألوه عن ذلك؟ فقال: أنا أقوم للجنين الذي في بطنها، فإنه أحد المقربين إلى الله تعالى أصحاب المقامات، وسيصير له شأن عظيم[(١)]!!

- وخبر آخر في قيام محمد هارون لوالد إبراهيم الدسوقي إذا مر عليه يقول: في ظهره ولي يبلغ صيته المشرق والمغرب[(٢)]!!

وهنا تشابه في القصتين واضح إلى حد التطابق مع تباعد الموضعين، يفهمه القارئ عند إرجاع البصر مرة أخرى، ومن العجب في هذا المقام أمر إبراهيم المتبولي - وكان مبتلىً بالإنكار لعدم زواجه - كان يقول: ما في ظهري أولاد حتى أتزوج بقصدهم، وأعجب من العجب قوله لمن جاءه من الشباب وشهوته ثائرة عليه: تطلب لك مدة وإلا دائماً؟ فإن قال: أريد مدة حتى أقدر على مؤونة التزويج يقول له: خذ هذا الخيط فشد به وسطك، فما دام معك لا تتحرك شهوة، وإن قال: أريد عدم تحرك الشهوة طول عمري يمسح على ظهره فلا

---

(١) (ص:٢٢٨).

(٢) (ص:٤٩٨).

تتحرك له شهوة ولا ينتشر إلى أن يموت[١].

فيا سبحان الله أي علم اكتشفه هذا الذي لا يراه أحد يصلي الظهر في مصر أبداً وسيرته شاهدة على المخالفات؟! وهي سيرة تكفي للحكم بفساد الطبقات فكيف إذا ضمت إلى ما هو فوقها ودونها؟!

**أقل ما في سقوط الذئب في غنم إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنم**

**ثامنا: ادعاء علم الغيب:**

ومن الضلالات المزعومة ادعاء علم الغيب، والنظر في اللوح المحفوظ، ومن وصف بها شيخه لم يقرأ قوله تعالى: * وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ & [هود:١٢٣]، وقوله تعالى: ((قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله)) فلا يعلم الغيب أحد سواه إلا من خصه من أنبيائه ورسله بالوحي قال تعالى: * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ & [الجن:٢٧].

وللشيطان دور في وحيه للكاهن بما يقذفه الأجنبي على لسانه، فربما صدق ووافق الحق، وربما كذب. قال الرسول ﷺ لابن صياد: (ماذا ترى؟) قال: يأتيني صادق وكاذب. فقال: (خلط عليك الأمر)[٢].

أما ما تدعيه الصوفية فلا شك في بطلانه، ويشترط ابن خلدون للرياضة على الطريقة

---

(١) (ص:٢٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣٠).

الصوفية التي يقصد منها الإقبال على الله بالكلية شرطين هما: الذكر، وأن لا يقصد من ورائها معرفة الغيب، فإن لم تراع هذين الشرطين كانت رياضة سحرية شيطانية، فقال: يصف رياضة الصوفية: (فإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر، لكنه إذا قصد ذلك الأمر كانت الوجهة لغير الله، ويسمون ما يقع لهم من الغيب فراسة وكشفاً، وما يحصل من تصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير)[1].

فتأمل ما قيده بأن قصدهم هو الإطلاع على الغيب، وكذلك افتقارهم إلى الذكر فإنه مهم:

**الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال**

ونذكر طرفاً من أحاديث القوم في الطبقات حتى لا يخلو المقام من شواهد:

- فأبو العباس المرسي يدعي أنه علم بياقوت الذي يكون مريداً له حين عمل عصيدة في يومٍ حارٍ فقالوا له: العصيدة لا تعمل إلا في أيام الشتاء! فقال: هذه عصيدة ولدنا ياقوت

(١) المقدمة، ونص كلامه: (ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة، فيحاولون بالمجاهدة موتاً صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها، ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع، ومن المعلوم أن الموت إذا نزل بالبدن ذهب الحس وحجابه، واطلعت النفس على المغيبات، ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الإطلاع على المغيبات، والتصرفات في العوالم، وأما المتصوفة فرياضتهم دينية عرية عن هذه المقاصد المذمومة، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر، فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة فإذا عريت عن الذكر....

ولد اليوم ببلاد الحبشة، فلم يزل ياقوت يباع من سيدٍ.. حتى جاء إلى أبي العباس، وحسبوا عمره فوجدوا عمره كما قال[١].

- وللفرغل نصرانية تعتقده في بلاد الإفرنج، فنذرت إن عافى الله تعالى ولدها أن تصنع للفرغل بساطاً، فكان يقول: ها هم غزلوا صوف البساط! ها هم دوروا الغزل على المواسير! هاهم شرعوا في نسجه! هاهم أرسلوه! هاهم نزلوه المركب! هاهم وصلوا إلى المحل الفلاني ثم الفلاني! فقال يوماً: واحد يخرج يأخذ البساط فإنه قد وصل على الباب، فخرجوا فوجدوا البساط على الباب كما قال، وأرسل مع القاصد الذي جاء بالبساط بعضاً من الهدية، وقال له: غمض عينك، فغمض عينه فوجد نفسه في بلده طينات[٢].

والكافر لا يفي بنذره إلا بعد إسلامه، وفي صحة نذره خلاف بين العلماء، ولكن الأمر هنا تجاوز قنطرة الخلاف، ولم يعد محلاً قابلاً له، إذ إن الشياطين قد تدخلت لتحمل القاصد الذي جاء بالبساط وتعيده للنصرانية فلا غرابة أن يأمره بغمض عينيه!

- أما علي السدار فاعجب بخبره! كان يبيع السدر فجاءه شخص مرة وطلب حناء فأعطاه سدراً فرده إليه وقال: هذا سدر ونحن ما حاجتنا إلا بالحناء للعريس، فقال: آخر

---

(١) (ص:٣٨١).

(٢) (ص:٥٣٢)، يتولى أحمد الرفاعي شرح هذا العلم فاسمعه يقول: إذا أراد الله برجلٍ أن يرقى كلفه بنفسه.. ثم بأهله.. وأهل محلته ثم كلفه ما بين السموات والأرض، ثم لا يزال يرقى من سماءٍ إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث! ثم ترتفع صفته إلى أن يصير صفة من صفات الحق تعالى، وأطلعه الله على غيبه حتى لا تثمر شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره، وهناك يتكلم عن الله بكلام لا يسعه عقول الخلائق؛ لأنه بحر عميق غرق في ساحله خلق كثير، وذهب به إيمان جماعة من العلماء والصلحاء فضلاً عن غيرهم.

النهار تحتاجون إلى السدر ولا حاجة لكم بالحناء، فمات العريس آخر الليل فغسلوه به[1]!

وإذا كان الرسل ‡ - وهم خيرة الله من خلقه - لا يعلمون الغيب فكيف بغيرهم؟! قال نوح × لقومه: * وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ & [هود:٣١]، ومكث رسول الله زمناً وعصبة الإفك تشيع الحديث حتى نزلت براءة أم المؤمنين عائشة ل من فوق سبع سموات فكيف يقذف هؤلاء الصوفية بالغيب من مكان بعيد، وبأي حق يشيعون بين أتباعهم هذه الضلالات؟!

ولا نزعم أننا حصرنا الخصائص التي خلعوها على الأولياء في الطبقات، ولو رمنا ذلك لخرجنا عن المقصود في هذا التأليف، ولكن بقي لدينا من ضلالات هؤلاء ما يكون على سبيل الإشارة فمن ذلك:

## تعدد الأولياء:

وليس في رؤية الشخص في أماكن متعددة في وقتٍ واحدٍ دلالة على الولاية؛ لأن ذلك ربما يكون من فعل الجن والشياطين التي تنقله أو تتشكل بصورته لا سيما إذا كان حال الرجل لا يبشر بخير في التوحيد، وينقل عنه أنه يطلع المنبر يوم الجمعة ويتبجح في الخطبة بالكفر، كما نقل في الطبقات عن محمد الحضري - الذي يرى في كذا كَذا بلداً في وقت واحد - أنه يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه ومجده: أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام! فقال الناس: كفر! فسلّ السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى أذان

(١) (ص:٣٦٢).

العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع[١].

القصة تدرج ضمن ولاية الصالحين، ويصيبها ما خطه المؤلف في سبب إيراد التراجم من التأسي بهم والاقتداء، والتعرف على أحوالهم، وفيها التصريح بالكفر، والإمعان في ذلك بترويع الناس، ولم يتوقف الوصف هنا! بل يمضي بنا الشعراني في تصويره ويزيد: بأن الحضري لم يخطب في تلك الجمعة في هذا المسجد فحسب بل عدت له ذلك اليوم ثلاثون خطبة! قال أبو الفضل راوي القصة معلقاً: هذا ونحن نراه جالساً عندنا في بلدنا.

وكيف لا يهابه الناس وله من إيذاء الناس حدٌ وصل على سلطانهم قايتباي حتى قذف في قلبه الرعب فيدخل بيته خوفاً أن يبطش به إذا رآه؟! وكان إذا أمسك أحداً يمسكه من لحيته ويصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له إطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه.. إلى آخر أحواله المذكورة، ولم يدر هؤلاء أن الشياطين يتصورون بصورة صاحبه! قال شيخ الإسلام: (ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح، وبالعكس! وكذلك في أبواب المدينة، وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة)[٢].

## ما يزعمونه من إحياء الموتى:

ما يطلقون عليه من إحياء الأموات يظهر ذلك في قصة عبد العزيز الدريني حين زار علي المليجي فذبح له فرخاً فأكله وقال للمليجي: لا بد أن أكافئك، فاستضافه يوماً فذبح له فرخة، فتشوشت امرأته، فلما حضرت قال لها المليجي: هش! فقامت الفرخة تجري وقال:

---

(١) (ص:٥٣٦).

(٢) الفرقان (ص:٣٥١).

يكفينا المرق ولا تتشوشي.

ومن الخصائص المزعومة أيضاً: صفة من يبرئ الأكمه والأبرص والمجنون بدعوته وهو أبو محمد الشنبكي[١].

وهذا جفاء للأنبياء في مشاركتهم ما خصهم الله به من معجزات تدل على صدقهم، قال شيخ الإسلام: (والذين يغلون في هؤلاء هو إن قصد تعظيمهم بذلك فيه غض ونقص بمن هو خير منهم وهم الأنبياء والرسل، كما أن الذي يغلو في الأنبياء والرسل يكون غلوه عيباً وغضاً بالألوهية، كما قال تعالى: * وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ &[آل عمران:٨٠][٢].

**الذوبان والتضخم:**

- ومنها كذلك صفة الذوبان والتضخم، وهما صفتان متناقضتان اتصف بهما بعض الأولياء، وهي لا تلتئم مع الشرع و الفطرة والعقل:

- فأحدهم - وهو الرفاعي - إذا تجلى الحق عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء! ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد شيئاً فشيئاً حتى يرد إلى جسمه المعتاد، ويقول: لولا لطف الله تعالى بي ما رجعت إليكم[٣].

- والثاني شمس الدين الحنفي، وكان يتطور بعض الأوقات حتى يملأ الخلوة بجميع

---

(١) (ص:٢٢٧-٣٤٢).

(٢) بغية المرتاد في الرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد (ص:٥٠٢).

(٣) (ص:٢٤٣).

أركانها، ثم يصغر قليلاً قليلاً حتى يعود إلى حالته المعهودة[١].

- أما الجيلاني فقد جمعوا له الوصفين معاً، فتتضاءل جثته مرة وتعظم أخرى[٢].

فكيف يذوب شخص خلقه الله في أحسن تقويم ويستحيل ماءً فيتحول إلى الحالة السائلة؟! ومقابل ذلك ما الذي يحيل الشخص إلى أن تتضخم جثته لتملأ الخلوة؟!

الجواب عندهم يعلقونه على الحال الذي نزله الصوفي والوارد الذي تلبس به، فنقول: هل الوارد هذا جاء به نبينا محمد، وعمل به ودعا إليه؟!

الجواب: لا، إذ لم ينقل في كتاب ولا سنة شيء من ذلك وما دراه الصحابة، أفلا يسعهم ما وسع الصحابة؟!

**قبض الدراهم من الهواء:**

ومن هذا الباب ما يفعلونه أيضاً قبض الدراهم من الهواء، فهم لا يستطيعون الضرب في الأرض والسعي في مناكبها مثل الناس، وإنما يلقي بيده في الهواء فيمسك الدراهم، وربما مارس الشحاتة من لم يهتد لهذه الحيلة، فهذا عبد الرحيم المنزلاوي لقيه رجل من أرباب الأحوال وكان مشهوراً بالكرامات، فقال: يا عبد الرحيم! أنت مسكين ما كنت أظن مع هذه الشهرة أنك عاجز عن هكذا، ثم قبض هو دراهم من الهواء وأعطاه؛ فأثر ذلك، ثم قال: يا عبد الرحيم! اشتغل بالله تعالى حتى تصير الدنيا في طوعك هكذا، فانقطع الشيخ في الخلوة تسعة شهور يقرأ في الليل ختماً وفي النهار ختماً، ثم خرج ينفق من الغيب، وممن كان يقبض من الهواء كل شيء يحتاجون إليه للبيت وغيره ويعطيه لهم محمد الشربيني، ومنهم الحنفي كان

---

(١) (ص:٥١٥).

(٢) (ص:٢٢٠).

يمسك من الهواء دراهم ودنانير[١].

وليس في هذه الخصيصة منقبة؛ لأن الجن ربما جلبوا ما يطلبه الشيخ ويناولونه إياه، ولعلهم سرقوه وهو يظن أنه يقبضه من الهواء، كما قال شيخ الإسلام: (وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحياناً أو يملأ إبريقاً من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس، أو أن بعض من استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله)[٢].

وحسبنا ما ذكر في هذا الباب من إقامة البناء الصوفي على قواعد لا تمت للزهد بصلة، وإنما هو دولة يديرها الأقطاب ويمتلكون خصائص ومعارف يظنون أنهم امتلكوها حين ارتاضوا الرياضة الفلسفية وقالوا: نحن أهل التصفية والعبادة، ولكن كثيراً من هذه العجائب الخارقة قد يكون للسحرة والكهان مثلها، ولا يلزم من صدورها من شخص ولايته، وإلا ماذا نقول في خوارق ابن صياد والدجال؟! فلا بد من ضبط الكرامة بالاستقامة وبالله التوفيق.

---

(١) (ص:٥٠٨-٦٨١-٦٨٥).

(٢) الفرقان (ص:١٠٠)، وانظر الفتاوى: (٣٥/ ١١٨).

# المبحث السابع
# أخبار الصوفية والسلاطين

الملك هو سياسة الناس، وإصلاح أمر الرعية، والأخذ بزمام الأمور، ويعد السلطان رأس النظام السياسي، ومع البعد عن الحكم الرشيد نجد أن من صفات السلاطين البطش بمخالفيهم، ودخول الناس في حكمهم، ولا يقترب أحد من حماهم إلا فتكوا به، ولكن طبقات الشعراني تخرج عن هذا المألوف، وتجعل من الشيوخ اللابسين المرقعات يتحكمون في الحكام، فلا عجب أن تشاهد الملوك - لا سيما سلاطين المماليك - وهم يخضعون لفقراء الجوع والسهر، وتدار إدارة البلاد من قبل هؤلاء القابعين في الزوايا، وربما تجاوز الأمر ذلك إلى ساكني الأضرحة والقباب التي لم تزل مهابتهم في قلوب من بيده شؤون الرعية، فما الذي عكس المعادلة وجعل أولي الأمر أطوع ما يكونون للصوفية - أصحاء ومجاذيب - وهم يقودون الجيوش مع خصومهم؟!

ربما يكون هناك أربعة أسباب في تقديري تجعل من السلاطين أداة طائعة بيد هؤلاء هي:

- قوة خفية تمسك بناصية السلاطين من الجن والشياطين، وربما السحر الذي يقف عند فعله الملوك عاجزين، ولو تمسكوا بالشرع لبطل هذا السحر.

- وربما أن الواقع البائس الذي ابتعد أصحابه عن الوحيين، وسافروا في متاهات الاعتقادات الفاسدة الذي رسنه بأيدي هؤلاء الصوفية هو السبب، وذلك لسيادة الفكر

الصوفي، واعتقاد العامة في الصوفية، ولم يشذ عن المجتمع حتى رأسه من بعض الفقهاء الذين جاروا صوفية الوقت، فظل هؤلاء السلاطين يهادنونهم حتى لا يؤلبوا المجتمع عليهم.

- ضعف أولئك السلاطين وما تحيط بهم من مؤامرات خارجية جعلتهم يذعنون لواقعهم المرير.

- جهل هؤلاء السلاطين وضعف إيمانهم سبب في السيطرة عليهم، إضافة إلى تقصير العلماء في بيان ما عليه الصوفية من ضلال.

## الأشرف قايتباي في طاعة الصوفية

لو أخذنا مثلاً على طاعة السلاطين للصوفية فإن خير شاهد لذلك هو السلطان قايتباي، فيظهر في الطبقات بصور مختلفة بين يدي الصوفية نذكر ثلاثاً منها:

- فحيناً نراه يمرغ وجهه على أقدام الدشطوطي!

- وحيناً آخر نلمحه يتخفى من محمد الحضري - الذي يشهد بألوهية إبليس - إذا رآه قاصداً له، ويدخل البيت خوفاً أن يبطش به بحضرة الناس.

- وفي المشهد الثالث يبدو كمحب شغوف بأبي العباس الغمري، يتمنى لقاءه فلم يأذن له، ولم يرث لحاله أو يكترث بمحبته، هذا في من بيده الحكم في البلد فكيف تكون هيبة من تحت حكمه لأولئك الصوفية[1]؟!

ولا عجب بعد ذلك أن يتميز عصر السلطان قايتباي بما لم يسبقه إليه أحد من السلاطين من التبعية للدراويش، والتفاني في خدمتهم، ورعاية مقامهم، ولا نستغرب حين

(١) (ص:٥٣٦-٥٦٠-٥٨٧).

نقرأ عن خيمته العظيمة التي جاءت من عجائب الدنيا وقد أبدع ابن إياس في وصفها وتخليد ذكرها، فيقول في أخبار ربيع سنة (٩٢٢ هـ) عصر السلطان الأشرف الغوري: (وفي يوم الاثنين حادي عشرة عمل السلطان المولد الشريف على العادة ونصب الخيمة العظيمة التي صنعها الأشرف قايتباي، قيل: إن مصروفها ستة وثلاثين ألف دينار، وهذه الخيمة كهيئة قاعة فيها ثلاثة لواوين، وفي وسطها قبة على أربعة أعمدة عالية لم يعمل في الدنيا قط لها نظير! وهي من قماش ملون، وهذه الخيمة لا ينصبها إلا ثلاثمائة رجل من النواتية[١].

وسنفرد لمولد البدوي حديثاً في نهاية الفصل.

**السلطان طومان:**

وقريباً من طاعة قايتباي للصوفية وانطراحه بين أيديهم يظهر السلطان طومان باي في انبطاحه بين أرجلهم، فهو يكشف رجل محمد عنان ويمرغ خدوده عليها، وأما علي أبو خودة فإنه يخرج خلفه على قرقماش أمير كبير كان أيام الغوري فيضربه بحضرة جنده؛ فإذا آلمه الضرب يهرب منه، فيتبعه، فإذا قفل عليه الباب خلعه فلا يستطيع أحد أن يرده حتى يرجع هو بنفسه[٢].

**مشاهد من لعب محمد الحنفي بأصحاب الملك:**

إن الصورة التي التقطها لنا الشعراني في الطبقات لمحمد الحنفي من مشاهير الصوفية زاهية الألوان، بديعة الإخراج، يبدو فيها كأنه المجلل بالهيبة، ويصغر عنده الملوك والأمراء كأنهم حثالة لا يؤبه لها، لتكتمل بهم الصورة قابعين في طرفها، بل إن منظرهم كما أخرجه لنا

---

(١) موالد مصر المحروسة (ص:١٢).

(٢) (ص:٥٥٩-٥٨٣).

أسوأ من منظر عبد بين يدي سيده، فلا يستطع أحد من الملوك ولا الأمراء ولا القضاة أن يجلس إلى جانبه، ولا يتربع بين يديه، بل يجلس جاثياً على ركبتيه متأدباً خاضعاً، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وكان الظاهر جقمق سيء الاعتقاد في طائفة الفقراء، وكان يكره الحنفي ومع ذلك كان يرسل له الشفاعات فيقضيها، ويقول لمن حوله: كلما أقول: إني لا أقبل لهذا الرجل شفاعة لا أستطيع، بل أقبل شفاعته وأتعجب في ذلك من نفسي.

ويذهب في تصوير أول أمره، وظهور شهرته أنه حين عارض السلطان فرج بن برقوق الذي يرمي الرمايا على الناس، أغلظ عليه السلطان القول؛ فتغير خاطر الشيخ؛ فحصل للسلطان عقب ذلك ورم في محاشمه كاد يهلك - وتأمل هذه الخارقة البائسة - فأرسل خلف الأطباء فعجزوا، فقال له بعض خواصه العقلاء: هذا من تغير خاطر الشيخ محمد الحنفي، فقال: أرسلوا خلفه لأطيب خاطره، فنزل الأمراء إليه فوجدوه خارج مصر نواحي المطرية، فأخبروه بطلب السلطان فلم يجب إلى الاجتماع به، فلم يزالوا يترددون بينه وبين السلطان حتى رق له، وأرسل له رغيفاً مبسوساً بزيت طيب، وقال لهم: قولوا له: كل هذا تبرأ، ولا تعد إلى قلة الأدب نملخ آذانك، فمن ذلك اليوم اشتهر أمر الشيخ للناس[1].

وهكذا يتم علاج الشيخ ببساطة شديدة بلا سبب وإنما برغيف، وتم الضحك على السلطان المسكين الذي بالغ في اعتقاده بعد ذلك فقدم له رأس أحد قواده - ممن أرسله ليغلظ القول عليه - في طبق! ولا لوم على إنفاق السلاطين على هؤلاء الشيوخ إذا خلوا من تبني العقيدة الصحيحة، كما قال السخاوي في حديثه عن السلطان برقوق هذا وهو ينفق على احتفال واحد من احتفالات الصوفية بالقلعة حضره السخاوي، فقال: (فرأيت ما هالني

(١) (ص:٥١٢-٥٢١).

وأظن ما أنفق في تلك الليلة على الحاضرين وغيرهم نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب العين ما بين خلع ومطعوم ومشروب وغير ذلك بحيث لم ينزل واحد منهم إلا بنحو عشرين خلعة من السلطان والأمراء)[١].

وتأمل التعبير السابق بتورم محاشم السلطان وظهور الخوارق سيئة الذكر تجده عيباً يزجر قائله:

**مهلاً أبيت اللعن مهلاً إن فيما قلت عيباً**

والطريف من أمر الحنفي هذا أنه شفع عند أمير يسمى: المناطح، كان كل من نطحه كسر رأسه، فقال للقاصد: قل لشيخك: اقعد في زاويتك وإلا جاء ينطحك ويكسر رأسك، فذكر القاصد ذلك للشيخ فلم يرد عليه جواباً، فلما دخل الليل كشف ذلك الأمير رأسه وصار ينطح الحيطان إلى أن مات، فبلغ الخبر السلطان فقال: قتله الحنفي! ومن أمره أنه إذا عطش وطلب كوز ماء للشرب يقوم من في المجلس من كبير أو أمير أو قاض، فلم يزالوا واقفين حتى يفرغ فيستأذنوه في الجلوس فيأذن لهم[٢].

**التصرف في السلاطين:**

وقد وصف إبراهيم المتبولي أنه كان سماً ناقعاً على الولاة، فإذا تشوش على أمير أو وزير مات لوقته أو في ليلته، وتعرض جماعة من الظلمة إلى جماعة غيطه، وأراد الوزير – وكان يسمى قاتم التاجر – أن يحدث عليهم مظلمة، وقال: إن كان المتبولي شيخاً ينفخني، فقال: يا ولدي! ما أنا أنفخ وإنما أفوق سهمي فلا يرد، فدخل الوزير بيت الخلاء فانتظروه ليخرج فلم

(١) موالد مصر المحروسة (ص:١٢)

(٢) (ص:٥١٦).

يخرج فدخلوا عليه فوجدوا لحيته ووجهه في حلق الخلاء وهو ملطخ بالعذرة وهو ميت؛ فرجع غالب الولاة عن معارضته في أمر من الأمور، ومنه ما سبق من تصرف حسين الجاكي في السلطان الذي رسم بمنعه من الوعظ، وما حصل للسلطان في بيت الخلاء[1].

- وكذلك حين أرسل ابن كتيلة مرة يشفع عند إنسانٍ من كبراء المحلة، فقال: إن كان ابن كتيلة فقيراً لا يعارض الولاة، وإن لم يسكت قطعت مصارينه في بطنه؛ فتكدر ابن كتيلة وأعلم الحنفي فقال: هو الذي تتقطع مصارينه في بطنه، وأرسل جماعة من الفقراء وأمرهم: إذا طلعوا المحلة أن يمروا على بيت ذلك الظالم ويرفعوا أصواتهم بالذكر، ففعلوا فصار يتقيأ ومصارينه تطلع قطعاً إلى أن مات[2]!!

**المتعة في أخبار الصوفية والسلاطين:**

ومن أخبار لعب الصوفية بالسلاطين ما فيه المتعة القصصية، لولا أنه يصب في إضفاء القداسة على أصحاب الصوف، ويملأ قلوب العامة فرقاً منهم لما فيها من تصوير قدراتهم الخارقة لمن أنكر عليهم.

وأحياناً يصل الأمر إلى أن يتحول عسكر السلطان كله من التبعية له، وينقاد للصوفي بدلاً عنه إذا حاول السلطان إثارة الصوفية، والمس من شعورهم، والنيل من مكانتهم، فأحد السلاطين مثلاً كان يسير حسب العلاقة الموسومة والمرسومة آنفاً حيث يكون خيطه بيد

---

(١) سبق ذكر ذلك.

(٢) (ص:٣٥٩-٥٠٠)، وشبيه بالحديث عن رد شفاعة الولي وما يتبع ذلك من سوء العاقبة تأتي حكاية أحمد السطيحة الذي من كراماته أنه شفع عند أميرٍ من الأمراء كان نازلاً بمنف، فقبل شفاعته، فلما خرج من عنده رجع وحبس الرجل ثانيةً، فطلعت في رقبته غدة فخنقته؛ فمات في يومه!

هؤلاء الصوفية - وقطبهم حسن التستري - يبدون ويعيدون في نظامه، ولم يزل به الحاسدون حتى أفسدوا هذه العلاقة فغير اعتقاده فيهم، ولم يتوقف التغيير عند الاعتقاد فحسب، بل قرنه بالعمل، فأرسل وزيره إلى زاوية التستري ليسد بابها، وكان الشيخ خارج مصر في المطرية هو والفقراء، فرجعوا فوجدوا الباب مسدوداً، فقال الشيخ: من سد الباب؟! فقالوا: سده الوزير فلان بأمر السلطان، فقال: ونحن نسد أبواب بدنه وطيقانه! فعمي الوزير وطرش وخرس وانسد نفه عن خروج النفس، وقبله ودبره عن البول والغائط؛ فمات الوزير في الحال[1]!!

وتستمر الحكاية بنا إلى موقف السلطان الذي يرى وزيره ينتقم منه، وبدلاً من القصاص له لاذ بالخلاص من الحادثة، وطالب بتسوية القضية بأن نزل إلى الشيخ وصالحه وفتح له الباب، قالوا: وكان عسكر السلطان كله قد انقاد للتستري حتى خرجوا عن طاعة السلطان إلى طاعته، وبدلاً من الأخذ على يد المبطل خسر السلطان وزيره وعسكره، ونزل على حكمه، وزاد اعتقاد العامة في الصوفية؛ لأنه لم يعتصم بالشرع كاملاً، ويتحصن بالأذكار، ويقرأ آية الكرسي، وإنما دخل المعركة بسيف من خشب!

**بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم**

ولوازم هذا الباب إضفاء التصرف إلى مخلوق ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ومن تمسك بشرع الله لا يخوفه ما يلوحون به من سيف

---

(١) (ص:٣٥٩-٥٠٠-٥١٧)، ومن الأمراء المشهورين المنكرين على الشيوخ شخص أنكر على أبي الحجاج الأقصري، ولا ولم توضح الحكاية المخالفة التي قارفها الأقصري، ولكن النتيجة موضحة بقوله: تنكر على الفقراء وأنت رقاص عند فلان؟! فما مات ذلك الرجل حتى صار رقاصاً لسوء أدبه واعتقاده!

البرهان، قال تعالى: * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ & [الزمر:٣٨].

وأين هذا الكلام من وصية النبي ﷺ لابن عباس ب : (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) (١).

**سلب الأحوال:**

هكذا استطاع هؤلاء الصوفية تصوير قدراتهم الخارقة في التصرف في ولاة الأمر من السلاطين، ولكن إذا انتهت معركتهم مع الحكام بالسلب فإنها تبدأ معركة قوية بينهم يتصارعون فيها على سلب بعضهم أحوال بعض، إذ لا يتأتى أن يوجدوا جميعاً بمكان واحد، فإما أن يذهب بعضهم أو يسلم بضعفه لمن هو أقوى منه، وهي ظاهرة جديرة بالوقوف عندها؛ لأنها تظهر أولياءً متشاكسين في السيطرة على الأتباع، ويمتلك كل واحد من جنوده الخفية ما يكسر به شوكة خصمه، وتدور المعارك المضنية في سبيل البقاء على الولاية والجلوس على أعلى مقاماتها.

هناك امرأة بالعراق تدعى فاطمة بنت بري لها حال عظيم، وجمال بديع، وكانت

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

تسلب الرجال أحوالهم، وقد باءت بالفشل كل المحاولات في القضاء على سلطان هذه المرأة صاحبة الجمال، ومسلبة أحوال الرجال، وبقيت تكسب الجولات مع وفرة الأولياء بالعراق، وتهزمهم لضعف أحوالهم، وظلت أعناقهم تشرئب إلى من يخلصهم مما هم فيه، وينتظرون المخرج من هذه الفتنة، ويا لها من فتنة حجبت هؤلاء المساكين من مزاولة مهمتهم، والسعي في رزقهم! وبينما كان أحمد البدوي في العراق - وبلغه أمرها - عقدت عليه الآمال، وأنيطت به المهمة، وعرف أمرها فاضطلع بالواجب وتوجه قصدها، واجتمع الأولياء، وكان يوماً مشهوداً يتطلعون للنهاية التي ستسفر عن دخول كبيرهم حلبة الصراع.

وأبدت فاطمة بنت بري فتنتها أولاً بفتياتها الجميلات فلم تؤثر في البدوي، ثم بدت هي بنفسها في النزال وأظهرت جمالها للزواج، فلم ينبس ببنت شفة؛ فاستعانت بالقبائل، وهنا أبلى البدوي بلاءً حسناً فأظهر من كراماته ما أعجز الشجعان؛ فذاقت وبال أمرها، ورجعت تائبة من فعالها، شاهدةً على حال البدوي، وقررت أن لا تتعرض لأحدٍ بعد ذلك اليوم، وتفرقت القبائل الذين كانوا اجتمعوا لها، وفرح بذلك الفقراء[1].

وتتدخل الجن في القيام بالمهمة في سلب محمد بن هارون حاله وقد سلبه صبي القراد كما سبق، وسلم بضعفه أمام القراد الكبير طالباً منه حاله من اجتماع الناس حوله، فأوصاه بالتوبة بعد أن بين له مقام صبيه، ثم أرسله إلى سنهور المدينة إلى الحائط التي كان يفلي ثوبه عندها وقال: ناد السحلية التي هناك في الشق وقل لها: إن قزمان طاب خاطره فردي علي حالي، فخرجت ونفخت في وجهه فرد الله عليه حاله[2].

---

(١) (ص:٣١٠).

(٢) (ص:٣٦١).

والعجيب أن أحد سالبي الأحوال وهو محمد الحنفي كان في أول أمره قد امتنع من دخول الوليمة التي دعي إليها؛ لأن من الحاضرين من هو أعظم منه حالاً وهو علي بن وفا وخاف أن يدخل من غير استئذان عليه فيسلب حاله، فقال: إن أذن لنا وإلا رجعنا خوف السلب، وما زال يترقى في الأحوال حتى بلغ درجة بحيث إذا دخل أحد مصر من غير إذنه سلب - فلم يقتصر على مجرد وليمة - وقد دخل رجل من غير إذنه فسلبه حاله؛ فاستغفر الله ثم جاء إلى الشيخ فرد عليه حاله[1]!

والذي يمكن أن نستخلصه هنا: إن ما تمارسه السحرة يواجه بمعارضة من قبل من هو أشد منه، ومهما أتى الساحر بكيد فإن الذي علمه يفوقه، وهو ما يشبه هنا التباري بالخوارق فيما يدعى السلب، خلافاً للكرامة التي يكرمها الله عباده المتقين، ولقد بلغ هؤلاء الشيوخ في العداوة والتنافس مبلغاً عظيماً يؤدي إلى القتل والقهر إما بسلب الحال أو العزل، فخوارقهم إنما هي من جنس ما يفعله السحرة من هذه الحيثية والله أعلم.

**عمل المولد:**

إن من تنكب طريق الحق ما يفعله بعض هؤلاء السلاطين من الإطالة في مد حبل الباطل ليلف من وصل سمعه هذا الإمعان في الخرافة، والقيام بعمل الموالد التي تشاع في البلاد لهؤلاء الصوفية مجاراة لهم واعتقاداً فيهم، وهو يجسد التبعية العمياء للصوفية الذين صاروا يتصرفون في حكم السلاطين، والمولد قد أحدثه الفاطميون بمصر في القرن الرابع الهجري، وما زالت العناية به حتى صار مظهراً من مظاهر الدين يعاب تاركه، ولنأخذ مولد البدوي كشاهد تم التركيز عليه في الطبقات، وهو مولد تشد له رحال الناس ليشهدوا احتفالاته، ويزعمون أنهم يتعرضون لنفحات البدوي الذي واراه التراب من قرون سلفت.

---

(١) (ص:٥٠٨-٥١٥).

**قايتباي يدعو للمولد:**

لا ينفرد العامة في حضور المولد، بل يتزعمه الملوك والسلاطين، وكان السلطان قايتباي كثير الإعجاب بالسيد البدوي، وقد زار ضريحه ووسع مقامه، وشيد له المباني، وكان يعتقد في المشايخ، ويقدم الناس لاستجداء البركات من التراب، وتخليصهم من المصائب، وقد كثرت البطالة وامتدت لتشمل الفقراء أنفسهم الذين يأخذون من بلاد الغيبة كل ما أرادوه ويزعمون أنه حلال لهم، ويطلعون بالمزامير قبل أن أبطل ذلك الشناوي[1].

**تصوير اجتماع الناس له:**

ويجتمع فيه الناس اجتماعاً لا يفوقه إلا موسم الحج، وكيف لا يجتمعون وقد صوروا للناس أن الرسول ﷺ والأنبياء وأصحابهم يحضرونه؟! وهل يتقاعس أحدٌ وهو ينصت لما يقصه عليه الشعراني في منامه وهو يرى البدوي يدعو الناس من سائر الأمصار والناس خلفه وعن يمينه وعن شماله أمم وخلائق لا يحصون، وأراني خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم الأحياء والأموات من الشيوخ والزمنى بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد، وجماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الإفرنج مقيدين مغلولين يزحفون على مقاعدهم، وفوق ذلك يأتيه من الهند من يخرج من بيته يوم الثلاثاء، وينام ليلة الأربعاء في المدينة، وليلة الخميس عند الجيلاني ببغداد، وليلة الجمعة عند البدوي، ويقول: إن الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله، وربما أن أولياء ما وراء البحر المحيط وسائر البلاد والجبال يحضرون أيضاً، وفي نشوة اعتراف الشعراني بالقصص يصرح بمشاركة الجن في دورهم الخفي في حضور الناس للمولد، فيقول: إن البدوي رسم عليه سبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال: لا تفارقاه حتى تحضرا به.

---

(١) انظر ما ورد من حكايات في الطبقات: (٣١٥-٣١٦).

**الشرك والمنكرات والفجور محضورة لا محظورة:**

وفي اجتماعهم بهذه الصورة الكبيرة في أمشاج الناس لا تقصر النساء في حضوره والتماس البركة، ومشاهدة الذكر وأناشيد السماع، وموائد الطعام، فيحصل في بعض الليالي - لا سيما الختامية - ازدحاماً يكون للفتنة حظ كبير فيه، في موضع انسجمت فيه تهييج الغرائز من الرقص والسماع والتسلية والأكل من جراء كثرة النذور ونحرها، وازدحام النساء، ويجري تحت سمع الأولياء وبصرهم دون اعتراض، وهذه مظاهر تثير الفقهاء وكل من يغير على الدين، فيدخل بعضهم في معركة محسومة لصالح الصوفية سلفاً في تصويرها في الطبقات، قد تكون كلفتها باهضة في سلب الإيمان في أعلى قيمتها، ودونه سلب القرآن والعلم.

فالشناوي شخص أنكر اختلاط الرجال بالنساء في مولد البدوي فسلب الإيمان ولم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، وكأن المولد هذا من أركان الإسلام أو من المعلوم من الدين بالضرورة! مع أن إنكار البدوي نفسه أمر لا يتعلق بعقيدة المرء، وينجح الصوفية في بداية الجولة، ويسلم لهم هذا الفقيه ويستغيث بالبدوي، ليبوء بخسارة أعظم ويشرك بالله! ويشترط عليه البدوي من ضريحه أن لا يعود فيلتزمه[1].

فلا سلمت عقيدته ولا أبطل المنكر أو كما قيل: (لا الحبة حصلت ولا الرسالة وصلت).

**قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح**

**فلا في الليل نالت ما تمنت ... ولا في الصبح كان لها سراح**

---

(١) (ص:٣١٥).

ويمضي البدوي - بعد أن كسب المعركة - في الاستدلال على جواز هذا الاختلاط، ويعمل القياس بواقع الطواف، ويمر هذا القياس مع اختلال أركانه بفارق العلة والحكم أيضاً مروراً سريعاً، ثم يظهر في المرحلة النهائية من الحوار أهليته وخصائصه التي خرجت من وحدة الوجود فيقول: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته! وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار، وأحميهم من بعضهم بعضاً أفيعجزني الله ﷻ عن حماية من يحضر مولدي؟![1].

وهكذا ينهض البدوي نفسه في الدفاع عن المنكرين، ويتصرف فيهم في دعاوى عريضة من الشطح حيث لا يعزب عنه ما يدور بين الوحوش والسمك من تصارع نعوذ بالله من الخذلان! فبدلاً من التسليم للشرع ذهب يستدل بوحدة الوجود التي سبق أنها من الأسرار التي لا تذاع؛ لأنها كفر فكيف يفتخر بها؟!

قال تعالى: * قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ & [سبأ:٢٢].

ومن أخبارهم أيضاً ما يلي:

- أنكر ابن الشيخ خليفة حضور أهل بلده المولد، فوعظه الشناوي فلم يرجع؛ فاشتكاه للبدوي فقال: ستطلع له حبة ترعى فمه ولسانه، فطلعت من يومه ذلك وأتلفت وجهه ومات بها.

- ووقع ابن اللبان في حقه فسلب القرآن والعلم! ولم يزل يستغيث بالأولياء فدلوه على ياقوت العرشي فكلمه في القبر وأجابه، فكلم البدوي في شأنه فرضي عنه.

---

(١) (ص:٣١٦).

- وابن كتيلة حين حضر إلى القاهرة، وهو أحد العلماء بالمحلة الكبري وأحد الصالحين بها، وذهب إلى بولاق لمشاهدة زحام عظيم، عرف أنه من أجل الاستعداد للذهاب لحضور مولد السيد أحمد البدوي.. فامتعض الشيخ وقال.. هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم صلي الله عليه وسلم مثل اهتمامهم بأحمد البدوي فرد عليه رجل: سيدي أحمد ولي عظيم! فرد الشيخ: بل في هذا المجلس من هو أعلي منه مقامًا. وجاء قريب للشخص فدعاه لتناول الطعام عنده، وأطعمه سمكة فدخلت حلقه شوكة من السمك لم تتحرك بكل الوسائل وظل يتألم لمدة تسعة شهور وهو يكاد يقترب من الموت، ولم يربط الشيخ بين ما حدث له وبين إنكاره للسيد أحمد البدوي، وعندما فطن إلى هذا طلب من أهله أن يحملوه إلى مقام السيد البدوي، فادخلوه إليه وقرأ سورة يس، ثم عطس عطسة شديدة فخرجت الشوكة من حلقه مغموسة بالدم. وقال الشيخ: تبت إلى الله يا سيدي أحمد. [1].

**وفي هذا المقام لا بد من وقفات:**

١- المولد بدعة من البدع التي فشت في العالم الإسلامي، ولم ينقل عن الصحابة أنهم فعلوه، وإنما ابتدعه العبيديون وهو من المحدثات، وقد صح في صحيح مسلم مرفوعاً: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) [2].

٢- تلقف الصوفية عمل المولد وصار مرتعاً خصباً لتمرير كثير من المعتقدات كالحقيقة المحمدية والسماع والذكر، إضافة إلى ما شابه من الغلو في النبي ﷺ، والوقوع في ما نهى عنه من الإطراء، كما صح من حديث عمر | في الصحيح مرفوعاً: (لا تطروني كما

(١) هذه الحكايات وردت في ترجمة البدوي في الطبقات (ص:٣١٥).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله) (١).

٣- زاد الشعراني في الطبقات على ما فيه من بدع شركيات ومنكرات وصلت إلى حد ما مر معنا آنفاً.

٤- عدم الالتفات إلى المنكرين شنشنة معروفة من أخزم، قد أفرطوا في ذكرها فما فتئت تحضر في أغلب الحكايات، وهي تؤكد مدى التمادي في بطر الحق، والاعتراض على النصوص بما رآه الشيوخ، ونحن نكرر مع كل إيراد أنه: لا يضر كل من قال بالحق وقام به ما يلاقيه من أذى، فإنه لم يزل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريقه محفوف بالمكاره، ولولا أن كتائب أهل الحق تصول لأضحى الحق غريباً، قال تعالى: * فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ & [هود:١١٧].

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

# المبحث الثامن
# المجاهدة والرياضة والبدع العملية

تعد المجاهدات التي يمارسها الصوفية هي السبيل للوصول إلى نهاية المطاف من الفناء والمشاهدات، وتقوم هذه المجاهدة والرياضة على أربعة أمور: هي الجوع والصمت والسهر والخلوة، وقد استعير بعض ملامح هذه الرياضة من مصادر الفلاسفة في رياضة النفس لتشرق عليها المعارف، أو رهبانية المسيحية التي ابتدعوها ولم تكتب عليهم كتركهم الزواج، فأشبه هؤلاء أولئك في بعض جزئياتها، ومنعوا أنفسهم من طيبات أحلت لهم، ولم يزالوا ينحرفون بالتصوف عن بداية أمره حتى اختلط بغيره وصار له طعم آخر، ونذكر ما ورد في هذه الأركان.

**السهر:**

من أركان التصوف في السلوك هجر النوم هجراً طويلاً، ومواصلة الرياضات لكي يحثوا الخطا إلى مطلوبهم، وقد نسجت الحكايات المبالغ فيها مبالغة مفرطة لا تنسجم مع قدرات البشر، وسطرت الحكايات في الخروج عن ما جبل عليه الإنسان في قصص هي أقرب للرهبانية منها للإسلام، فمن ذلك ما نقلوه عن هؤلاء الشيوخ:

- الشبلي أنه كان يكتحل بالملح كي لا ينام ليدفع الغفلة.

- وقيل: إن عبد الرحمن بن بكتمر كانت مجاهداته فوق الحد، وكان له حبل مربوط في السقف في خلوته، فكان لا يضع جنبه على الأرض سنين حتى وقع له الفتح.

- وأما علي العياشي فقد مكث نحو نيفٍ وسبعين سنة لا يضع جنبه على الأرض إلا من مرضٍ شديد.

- وأقل منه المرصفي في قوله: لي أربعون سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء وقد طويت سجادتي بعدي، ومكث خمساً وعشرين سنة لم يضع جنبه على الأرض.

- وتتواضع المدة في السهر لتصل عند علي الكازروني الذي كان كثير المجاهدة والرياضة إلى الخمسة الشهور لا يضع جنبه بالأرض لا ليلاً ونهاراً[1].

وهذا كله تنطع ليس من هديه عليه الصلاة والسلام، بل حذر أمته من الخروج عن هديه العدل الذي من أفراده أنه يقوم وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، وقد زجر النفر الذين تقالوا عبادته × فقال: (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2].

فهذا سبيله فداه أبي وأمي، وكأن لسان حال هؤلاء الصوفية أنهم تقالوا عبادته فاستوردوا جوع الفلاسفة وسهرهم كوسيلة للنتيجة المطلوبة عندهم، وقد حادوا في الوسيلة والغاية معاً، أعني: ما قرروه من الوصول للفناء عن طريق الرياضة، وما الاكتحال بالملح ومواصلة السهر إلا نزعة من سلوكهم مع ما فيه من المبالغة التي لا تناسب البشر والغلو، وما التنطع إلا من وسوسة إبليس كما قيل:

**لم يجعل الله في ذا الدين من حرج  لطفاً وجوداً على أحيا خليقته**

---

(١) (ص:١٨٠-٤٩٥-٦٥٨-٦٧١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١). وروى مسلم في صحيحه (٧٤٦) عن عائشة ل قالت: (ما رأيت رسول الله قام ليلة حتى الصباح، وما صام شهراً متتابعاً إلا رمضان).

| | |
|---|---|
| وما التنطع إلا نزعة وردت | من مكر إبليس فاحذر سوء فتنته |
| القصد خير وخير الأمر أوسطه | دع التعمق واحذر داء نكبته |
| إن التنطع داء لا دواء له | إلا بتركك إياه برمته |

**الجوع:**

ويعد الجوع من أعظم الوسائل التي يقوم عليها التصوف السلوكي مع الصمت والخلوة والسهر، وهو يفتح الباب على مصراعيه للدخول إلى المكاشفة، وللسيوطي هنا كلمة في تعذيب النفس بالجوع يقول فيها: (ومن الأمور التي يدخل الشيطان عليهم ترك المباحات وتعذيب النفس بقلة المطعم حتى ييبس البدن مع لبس الصوف، ويمنعها من البارد، وما هذه طريقة رسول الله، ولا طريقة أصحابه وأتباعه، كانوا يجوعون إذا لم يجدوا، فإذا وجدوا أكلوا وكان رسول الله - وهو رأس الزاهدين - يأكل اللحم ويحبه، ويأكل الدجاج ويحب الحلوى والعسل ويستعذب الماء)[1].

ويذكر الذهبي عن ابن عطاء الآدمي أنه فقد عقله ثمانية عشر عاماً بسبب الجوع والرياضات المنحرفة، ثم يعلق بقوله: (ثبت الله علينا عقولنا، فمن تسبب في زوال عقله بجوع أو رياضة صعبة عصى وأثم) كما يعلق في موضع آخر فيقول (الطريقة المثلى هي المحمدية، وهو الأخذ من الطيبات، وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف، فلم يشرع لنا الرهبانية ولا الوصال، ولا صوم الدهر)[2].

أما الفناء عند الصوفية فإنه إنما يمر عبر بوابة الجوع، وهو ما نقلوه من التلفيق الباهت

---

(١) الأمر بالاتباع: (ص:٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٢/ ٨٩) (١٤/ ١٥٣).

الذي يصف الجائعين بما يخرج عن الجادة، وقارن بين هدي النبي ﷺ لأصحابه في السير على المنهج الوسط المعتدل، والأكل من الطيبات، ولبس الثياب، وبين محبة أحمد الرفاعي لجميع أصحابه متمنياً لهم الجوع والعري والفقر، والذل والمسكنة، وكان يفرح لهم إذا نزل بهم![1].

ومنهم من كان يطوي الأربعين يوماً كشرف الصعيدي، وصرح عبد الرحيم المغربي لأن في الجوع صفاء الأسرار في استغراق الأذكار، وهذه بعض الأخبار في ذلك:

- فمنهم أبو السعود الجارحي كان كثير المجاهدات، كان ينزل في سرداب تحت الأرض من أول ليلة من رمضان فلا يخرج إلا بعد العيد بستة أيام، وذلك بوضوء واحد من غير أكل وأما الماء فكان يشرب منه كل ليلة قدر أوقية.

- ومنهم الشيخ مرشد كان يطوي الأيام والليالي، مكث نحو أربعين سنة يأكل كل يوم زبيبة واحدة حتى لصق بطنه على ظهره!

- ومنهم البدوي، كان يمكث الأربعين يوماً وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام!

- ومنهم أبو يعزى المغربي، أقام في بدايته خمس عشرة سنة في البر لا يأكل إلا من حب الشجر في البادية!

- ومنهم الجيلاني يصف أول أمره بقوله: كنت أقتات بخنوب الشوك، وقمامة البقل وورق الخس من شاطئ النهر، وقوله: قمت في صحراء العراق وخرائبه خمساً وعشرين سنة مجرداً سائحاً.. ومكثت سنة في خرائب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات فآكل المنبوذ ولا أشرب ولا أنام[2]!!

---

(١) (ص:٢١٦).

(٢) (ص:٢٢٦-٢٢٠-٢٣٣-٥٧٣-٦٠٤).

أفبعد هذا الجوع المفرط يلامون على ما يرونه من تخيلات وترهات سببها قلة الطعام بل عدمه؟! ولذا منهم من يرى الحيات، ومنهم من يخطب وهو عريان.. إلى آخر الحكايات التي ذكرت، وفاقوا فيها الفلاسفة.

**الخلوة:**

وهي من أركان الرياضة، ويستبدل بعضهم السياحة بالخلوة، وفي كلا الأمرين تضييع للواجبات، ولم يكن من هديه × ذلك، ومر معنا بعض صورها التي تكون فيها مرتعاً خصباً للالتقاء بالجن، وتغير أحوال القابعين فيها، وتبدل هيئاتهم، ولذلك لا بد من الاستئذان عليهم في الدخول؛ لكي لا يرتاع المريد فيرى شيخه أسداً أو فيلاً، أو يشاهده بسبع عيون، أو يراه وقد ملأ الخلوة، أو عكس ذلك لا يرى أحداً أصلاً وكل ذلك قد مر، كما تكون الخلوة معملاً لعلم الكيمياء، ومجلبة للشياطين التي تلبس على السالك في سلوكه، فكان الشيوخ يحذرون المريدين من ذلك اللبس ويوصونهم بأخذ الحيطة، ويتفقدون أحوالهم لكي لا يقع المريد في شباك إبليس، فأبو النجيب السهروردي كان إذا جلس فقير في خلوة يدخل عليه في كل يوم يتفقد أحواله، ويقول: يرد عليك الليلة كذا.. ويكشف لك عن كذا.. وتنال حال كذا.. وسيأتيك شخص في صورة كذا.. ويقول لك كذا.. فاحذره فإنه شيطان، فيقع للفقير جميع ما أخبر به[1].

وأعجب خبر من أخبار الخلوة حكاية عيسى البرلس الذي مكث بوضوء واحد سبع عشرة سنة! توضأ يوماً قبل أذان العصر واضطجع على سريره وقال للنقيب: لا تمكن أحداً يوقظني حتى أستيقظ بنفسي، فما تجرأ أحد أن يوقظه، فانتظروه هذه المدة كلها، فاستيقظ

(١) سبق ذكره.

وعيناه كالدم الأحمر، فصلى بذلك الوضوء الذي كان قبل اضطجاعه ولم يجدد وضوءاً، وكان في وسطه منطقة قام وحلها فتناثر من وسطه الدود[١]!

ويستطرد أبو المواهب الشاذلي فيقول دليلنا في القول بالخلوة ما صح أنه كان يختلي في غار حراء حتى فاجأه الوحي، فدل على أن الخلوة حكم مرتب عليه الوحي، وذريعة لمجيء الحق وظهور نور الله تعالى، وكان يقول: من شرط الخلوة الطي، وله تأثير كبير، واختار القوم الأربعين؛ لأن الأربعين فيها يكون نتاج النطفة علقة، ثم مضغة، ثم صورة وهي مدة الدر في صدفه وعدد أيام توبة داود × [٢].

وهذه من الحجج الواهية، والكلمات المكلومة؛ لأن النبي ﷺ ليس من هديه الحث على دخول هذه الخلوات، والصحابة لم ينقل عنهم اتخاذها ذريعة لتزكية النفس، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وأما إيواؤه × إلى غار حراء فهذا قبل الوحي، وأما بعده فكان لا يعتكف إلا في مسجده.

قال شيخ الإسلام: (ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ورسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال..)[٣].

---

(١) ويشترط بعضهم للخلوة الجوع، وقد رأى أبو الفضل رجلاً مختلياً وصوته ضعيف الذكر، فقال لصاحبه: أخرج هذا الفقير وأطعمه وإلا مات ودخل النار، فقال الفقير: هذا من شرط الخلوة، فنهاه وأعطاه رغيفاً فلم يخرج؛ فدعا عليه بالموت.

(٢) سبق ذكره في الفصل الأول.

(٣) الفرقان (ص:٢١٣).

**السياحة في الأرض:**

ومن استبدل السياحة بالخلوة فقد خالف أيضاً كالخروج للبراري والانقطاع في الصحاري، وتعريض النفس للضيعة، ولا يعتبر ذلك منقبة كما عدوها في ترجمة أبي الخير - أوحد زمانه في التوكل - الذي كانت السباع والهوام تأنس به، وقد نقل عن أبي تراب أنه مات بالبادية فنهشته السباع[(١)].

وهكذا يدخل الشيطان عليهم من هذا الباب، فيخرج أحدهم إلى السياحة تاركاً واجباته من إقامة الجمعة والجماعة، ويرتكب المنهيات كإضاعة حق الزوجة والأولاد، ويخرج منفرداً يهيم على وجهه، وممن مضى على هذا الطريق:

- أبو السعود الجارحي سمع قائلاً يقول: يا سيدي فسدت المعاملة، ونودي على الفلوس بأنها بطالة؛ فصاح وسقط على وجهه، ونتف لحيته، ومكث يصيح يوماً كاملاً[(٢)].

- وكان جمع من المشايخ حاضرين حين أجاب الجيلاني عن شخص ادعى أنه يرى الله؛ فأطربهم سماع جوابه، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حال الرجل، ومزق جماعة ثيابهم وخرجوا عرايا إلى الصحراء[(٣)].

- وبهاء الدين المجذوب، كان أحد شهود القاضي، فسمع مرة قائلاً يقول: هاتوا لنا رجال الشهود؛ فخرج هائماً على وجهه فمكث ثلاثة أيام في جبل المقطم لا يأكل ولا يشرب، ثم ثقل عليه الحال فخرج بالكلية[(٤)].

---

(١) (ص:١٤٣-١٥١-١٨٧).

(٢) (ص:٥٧٣).

(٣) (ص:٢١٨).

(٤) (ص:٥٨٦).

- أبو الحسين الجمال، ورد على قلبه شيء فهام على وجهه، فلحقوه في وسط التيه في الرمل ملقىً ففتح عينيه وقال: أربع فهذا مربع الأحباب[١].

وما الذي يحمل هؤلاء على ما يفعلون؟ وكان أليق بهم مراعاة هدي رسول الله، ولا ينشغلوا بالوارد والحال والمقام ففيها العطب، وإذا خلدت الأمة إلى الخلوات والفلوات وتقدمها الشيوخ في ذلك، وركنوا إلى السياحة بحيث يمضي وحيداً، فأين جهاد رسول الله ؟!

وأين ما سطره القرآن من الحث على الغزو الذي هو ذروة سنام الإسلام؟ وأين نشر الدعوة حتى يكون الدين ظاهراً في الأرض؟ قال تعالى: ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون)) فالسياحة في البراري من الرهبنة وليست من عمل هذه الأمة، وإنما سياحتها الجهاد في سبيل الله.

**الصمت:**

ومن أركان المجاهدة الصمت عن الكلام، وملازمته خطأ؛ لأن قول الخير مقدم عليه ومأمور به؛ لما صح عنه عليه الصلاة والسلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) [٢]، وعد ماجد الكردي الصمت عبادة من غير عناء وزينة، من غير حلي وهيبة، من غير سلطان وحصن، من غير سؤر وراحة للكاتبين وغنية عن الاعتذار، وقيل: إن محمد بن زرعة كان يتكلم ثلاثة أيام ويسكت ثلاثة أيام[٣].

وبعضهم يختار بدلاً عن الصمت الذي نص عليه الفلاسفة الذكر بطريقة معينة،

---

(١) (ص:١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٣) (ص:٦٠٦).

ووجدوا فيه بديلاً مناسباً للتعجيل من دورة السلوك نحو الغاية، واختار بعضهم لفظ الجلالة مجرداً مكرراً ثلاثاً: الله الله الله! دون لا إله إلا الله لوحشتهم من توهم ثبوت الإلهية حتى ينفوها بتعبير أبي المواهب الشاذلي، وأردف بقوله: إن من غلب عليه الأهواء فذكر لا إله إلا الله أنفع له، ومن خلص من الأهواء فذكر الجلالة فقط فهو أنفع له، وكان أبو لحاف المجذوب يقول طول ليله: الله الله الله! لا يفتر وكان حافياً مكشوف الرأس ملتحفاً بملاءة حمراء[1].

ولا يتوهم المرء أننا نسد الذرائع المفضية إلى تزكية القلب أو نرد ما يدعو إلى ترقيق القلب حيث ينشده المسلم من هديه عليه الصلاة السلام من القيام والصيام والذكر وقراءة القرآن، وملازمة الاستغفار وغير ذلك، كلا فهذا محراب الصالحين، والفقه يقتضي إعطاء كل ذي حق حقه كما في خبر أبي الدرداء ا وقد آخى رسول الله بينه وبين سلمان ا ، فجاء سلمان يزوره، فإذا أم الدرداء ل متبذلة فقال لها: (ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا- يقوم الليل، ويصوم النهار- فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له سلمان: كل. قال: فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. قال: نم. فنام ثم ذهب يقوم فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ: صدق سلمان)[2].

---

(١) (ص:٤٨٦، ٦٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٩٦٨)، وفي رواية للطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢١٨)(٦٠٥٦) عن ابن سيرين مرسلاً زاد في آخرها: (عويمر سلمان أعلم منك). وصححها الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٨٠).

**الانحراف العملي في التوكل:**

والمتأمل لبعض المقامات التي رتبها الصوفية ليعرجوا من خلالها إلى الغاية عن طريق الشيخ المؤدب يجد أنها مليئة بالبدع العملية، فالتوكل في الشرع لا يعني ترك الأسباب، أو ارتكاب النهي الوارد في سفر الواحد، أو السفر من دون زاد، وقد زعم قوم أنهم المتوكلون فلا يأخذ أحدهم الزاد؛ فنزل قوله تعالى: * وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ & [البقرة:١٩٧].

ومما سطر من المخالفة في باب التوكل ما يلي:

- محمد المنير، كان أكثر أوقاته يحج على التجريد ماشياً، وعلى كتفه ركوة يسقي الناس منها![1]

- محمد السندفاوي، مكث سنين عديدة يحج على التجريد ماشياً حافياً![2]

- ماجد الكردي، جاءه رجل يودعه وهو يريد الحج على قدم التجريد والوحدة، ولا يستصحب زاداً ولا أحداً، فأخرج له الشيخ ماجد ركوته وأعطاها إياه، وقال: إنك تجد فيها ماءً إن أردت الوضوء! ولبناً إن عطشت، وسويقاً إن جعت، فكان الرجل من طول سفره من جبل حمرين بالعراق إلى مكة وفي مدة إقامته بالحجاز إلى العراق إذا أراد الوضوء توضأ منها ماء مالحاً، وإذا أراد الشرب شرب منها ماءً حلواً، وإذا أراد الغذاء شرب لبناً وعسلاً وسويقاً أحلى من السكر[3].

فيا سبحان الله أي ركوة هذه تحوي هذه الأصناف المختلفة؟!

---

قال الحافظ في الفتح (٤/ ٢١٢): وفيه كراهية الحمل على النفس في العبادة.

(١) (ص:٦٦٣).

(٢) (ص:٥٧٥).

(٣) (ص:١٥٢). وقد قيل لمحمد بن الجلاء: ما تقول في رجل يدخل البادية بلا زاد؟! فقال: هذا من فعل رجال الله! قيل: فإن مات؟! قال: الدية على القاتل.

**تسول بعض أصحاب الطبقات:**

ومن هذا الباب يأتي التسول **باسم الولاية**، فالتوكل لا يدعو المرء إلى البطالة، والقعود به يتكفف الناس، والركون إلى ما في أيديهم، وقد نهى رسول الله عن ذلك وحث على الكسب فقال: (لأن يحتزم أحدكم حزمة من حطب فيحملها على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل رجلا يعطيه أو يمنعه)[١].

وكان نبي الله زكريا نجاراً كما ثبت في صحيح مسلم[٢]. وكان شعار عبد الرحمن بن عوف: (دلوني على السوق) حين قدم المدينة وأراد سعد بن الربيع أن يقاسمه ماله[٣]. وقد كان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلّف مالاً، وخلّف سفيان الثوري مالاً وقال: لولاك لتمندلوا بي[٤].

وتأمل ألقاب بعض الفقهاء والعلماء تجد دلالة على الحرف التي يكتسبون منها كالزيات والحداد والقفال والحذاء، يأكلون من كسب أيديهم على خلاف من قعد في الزاوية فإذا جاع خرج يسأل الناس.

وأحياناً يسمون هذا الأمر باسمه مثل محمد الشربيني الذي من طريقته أنه يأمر مريديه بالشحاتة على الأبواب دائماً في بلده، ويتعممون بشراميط البرد السود والحمر والحبال[٥].

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٢). وروى مسلم في صحيحه أيضاً (١٠٣٣) حديث (اليد العليا خير من اليد السفلى).

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠٧٢).

(٤) صيد الخاطر (٢٥٢).

(٥) (ص:٥٨٣).

فهو لا يستنكف من التصريح بالشحاتة صراحة من غير تورية، ومنهم من يسميها بغير اسمها، ويطلق عليها طريقة التجريد، فيوسف العجمي الذي سبقت الإشارة إلى حديثه يتحول عنده المريدون إلى مزاولة التسول، كل يوم شخص منهم يخرج ليسأل الناس إلى آخر النهار، فمهما أتى به هو يكون قوت الفقراء ذلك النهار كائناً من كان، وكان يوم الفقراء يأتي أحدهم بالحمار محملاً خبزاً وبصلاً وخياراً وفجلاً ولحماً ويوم يوسف العجمي يأتي ببعض كسيرات يابسة يأكلها فقير واحد، فسألوه عن ذلك؟ فقال: أنتم بشريتكم باقية وبينكم وبين الناس ارتباط، وأنا بشريتي فنيت حتى لا تكاد ترى فليس بيني وبين التجار والسوقة وأبناء الدنيا كبير مجانسة، وكان صورة سؤاله أن يقف على الحانوت أو الباب ويقول: الله ويمدها حتى يغيب ويكاد يسقط على الأرض؛ فيقول من لا يعرفه: هذا الأعجمي راح في الزقزية![1]

**الدنيا في خدمتهم:**

**وقد زعموا أن الدنيا تخدم الصوفية الكسالى**، واتفقت قصتان في موضعين مختلفين على أن الدنيا كلها في خدمة بعض الصوفية:

- الأولى عن محمد عنان قال: سخر الله لي الدنيا مدة إقامتي في جامع عمرو، فكانت تأتيني كل ليلة بإناء فيه طعام ورغيفان، وما خاطبتها قط وما خاطبتني! ولكن كنت أعرف أنها الدنيا[2].

- والثانية عن حسن العراقي الذي أقام في القرافة في قبة مهجورة عشر سنين قال: تخدمني الدنيا في صورة عجوز تأتيني كل يوم برغيفين وإناء فيه طعام، فلا كلمتها ولا كلمتني قط[3].

---

(١) (ص:٤٦٨).

(٢) (ص:٥٥٥).

(٣) (ص:٥٩٠).

وأوجه الشبه هنا لا تخفى عند أيسر نظر في عدة أوجه في هاتين الصورتين وهي:

الأول: خدمة الدنيا، والثاني: أنها في صورة عجوز، الثالث: عدم الحديث معها، الرابع: عدة الطعام رغيفان، الخامس: الإتيان إليهم ولكن باختلاف الزمان، فمساءً عند عنان وصباحاً عند العراقي.

**الانحراف في الزهد:**

ومن المقامات التي رتبت وخرجوا به إلى التعمق والتشدد: الزهد في المباح ما لم يكن على عهد السلف كالجوع وترك الزواج، والزهد الحق ما كان عليه أفضل الخلق وما عدا ذلك فهو من البدع ولا يدل على صلاح، بل قد يتصف به بعض المبتدعة، وقد مدح المنصور أحد رأس المعتزلة وهو عمرو بن عبيد بقوله:

**كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد غير عمرو بن عبيد**

قال ابن كثير معلقاً: (الزهد لا يدل على صلاح، فإن بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين)[1].

وقد مر بنا الجوع المفضي إلى فوات البدن، ونذكر الآن ما يتعلق بترك الزواج، وهو من الأمور المبتدعة حيث يميل المرء إلى الانفراد وترك النكاح رغبة عنه وذماً له، وسنة الرسول × أنه يتزوج النساء كما هو معروف[2]، وحبب إليه من الدنيا الطيب والنساء[3]، ويكون الزواج مع خوف العنت واجب، ومن غير خوف العنت سنة مؤكدة عند جمهور العلماء؛

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) رواه النسائي (٣٩٣٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

لحديث عائشة عند ابن ماجة: (النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني) [١]. ومن تأمل وصية النبي ﷺ لجماعة من الشباب بالرجوع إلى أهليهم أدرك شفقته عليه الصلاة السلام للمتعلمين، قال مالك بن الحويرث: (قدمنا على النبي ﷺ فلبثنا عنده نحواً من عشرين ليلة وكان النبي ﷺ رحيماً فقال: لو رجعتم إلى بلادكم فعلمتموهم، مروهم فليصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم)[٢] رواه البخاري، وذكر الحافظ في الفتح رواية وفيها: (كان رحيماً رقيقاً فظن أنا اشتقنا إلى أهلنا، وسألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه فقال: ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم)[٣][٤].

فالزم ما عرفت من هدي المصطفى، ودع عنك بنيات الطريق وجهالات القوم؛ فإنها رهبانية تخالف الإسلام.

ومن الصوفية قوم رغبوا في الزواج واعتبروه من آفات الطريق، وقرنوه بآفة كتابة الحديث ومعاشرة الضد عند نصر الدقاق، وكحب الدراهم والرياسة عند أحمد الآدمي، واقتصر يوسف الرازي في تشبيهه بمعاشرة الأضداد فقط دون غيره من الآفات في عرفهم، زاد الدقاق بقوله: لا يصلح هذا الأمر إلا لأقوام قد كنسوا بأرواحهم المزابل على رضاً منهم واختيار[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٧).

(٢) رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤).

(٣) رواه مسلم (٦٧٤).

(٤) فتح الباري: (٢/ ١٧١).

(٥) (ص:١٥٣-١٦٨-٢٧٠).

ومنهم من يأمر مريده أن يعتزل زوجته وأولاده وعشيرته إذا خاف الفتنة والشغل عن الله، وينصح محمد بن أبي جمرة الفقير أن لا يطأ زوجته إذا حملت إلا لغرض صحيح من إعفافها أو إعفافه، ولا ينبغي له وطؤها لمجرد الشهوة؛ فإن ذلك نقص في الفقير[(١)].

وتبعد بنا الطبقات كثيراً في زهد بعضهم الذي لم يكتف بترك المباحات في الدنيا ليصل إلى الزهد في نعيم الآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهو من العجائب التي لا تنقضي، فأبو حمزة البغدادي كان يقول: قد يقطع بقوم في الجنة كما وقع لآدم، وهم الذين يقولون لهم ملائكة الحق كلوا واشربوا هنيئاً؛ فإنه شغلهم عنهم بالأكل والشرب ولا مكر فوق هذا[(٢)].

**الانحراف في التواضع:**

ويعد التواضع من الخصال التي يركزون عليه ولكنه خرج إلى لون آخر لا سيما في مصاحبة الحيوانات، كالرفاعي مثلاً كان إذا جلس على جسمه بعوضة لا يطيرها ولا يمكن أحداً يطيرها ويقول: دعوها تشرب من هذا الدم الذي قسمه الحق لها، وكان إذا جلس على ثوبه جرادة وهو مار في الشمس وجلست على محل الظل يمكث لها حتى تطير ويقول: إنها استظلت بنا، وكان إذا نام على كمه هرة وجاء وقت الصلاة يقطع كمه من تحتها ولا يوقظها، فإذا جاء من الصلاة أخذ كمه فخاطه ببعضه، ووجد مرة كلباً أجرب أخرجه أهل عبيدة إلى محل بعيد، فخرج معه إلى البرية وضرب عليه مظلة، وصار يطليه بالدهن، ويطعمه ويسقيه، ويحت الجرب منه بخرقة، فلما برئ حمل له ماءً مسخناً وغسله[(٣)].

---

(١) (ص:٤٦٦).

(٢) (ص:١٧١-٤٧٦)، وينقل حسن التستري أنه لما سمعت رابعة العدوية شخصاً يتلو قوله تعالى: ((وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون)) قالت: نحن إذاً صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير.

(٣) (ص:٢٤٣).

وعند مدافعة النفس للكبر يبعدون أيضاً شوطاً يمثل حمدون القصار ملمحه حين يقول: من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر، وكذلك قهر النفس التي صورها الشبلي بأنه كان إذا أعجبه صوف أو قلنسوة أو عمامة لفها وأدخلها النار فأحرقها، ويقول: كل شيء مالت إليه النفس دون الله تعالى وجب إتلافه[١].

**التصوف بين الجوع والشبع:**

في مقابل الجوع الذي سلف ذكره نشأ من يضيف إلى البطالة في الزوايا والانقطاع في الأربطة الأكل حد الشبع، وبعضهم زاد الرقص في السماع، فتغلظت أحوالهم كثافة، وبدا خلافهم للمتصوفة الجائعين القابعين في الخلوات الذين يمارسون ما يسمونه عبادة الصمت، وهنا يتصدع الجدار جراء هذا الانقسام، ولكن لا يعيب الآكلون الراقصون على الجائعين الصامتين ولا العكس، فمما يمكن الاستشهاد به هنا أن أحد أتباع محمد الحنفي وقد أمره أن يأكل طعام المرأة التي عملته حيث استقلت طعام الفقراء، فأكله وحده وشكا الجوع؛ فأخذته إلى بيتها وقدموا له نحو ذلك، فأكله وهو يشكو الجوع، وكان الحنفي هذا إذا تذكر أحداً من أصحابه الغائبين عن السماط يأكل الشيخ عنه لقمة أو لقمتين فتنزل في بطونهم في أي مكان كانوا ثم يجيئون ويعترفون بذلك[٢].

---

(١) (ص:١٤٥-١٨٠)، ومن الانحراف في الإخلاص ما بلغ الحنفي-حين أراد أن يلقن الشابين الأمردين اللذين ينامان في الخلوة الإخلاص-عن الشبلي أنه دخل يوماً خربة يقضي فيها حاجته فوجد فيها حمارة فراوده الشيطان عليها، فلما أحس الشبلي بذلك رفع صوته وصاح: يا مسلمون! يا مسلمون! الحقوني وأخرجوا عني هذه الحمارة، فإني أعرف ضعف نفسي عن سلوك طريق الصيانة!!

(٢) (ص:٥١٩).

وأما الديروطي فقد كانت أمه تضع ما يأكل وما يشرب فيأكله وهي لا تراه إنما تسمع كلامه فقط!

وأما أبو سعيد القلوري فقد دعي مرة إلى طعام هو وأصحابه فمنعهم من أكل ذلك الطعام وأكله وحده، فلما خرجوا قال لهم: إنما منعتكم من أكله لأنه كان حراماً، ثم تنفس فخرج من أنفه دخان أسود عظيم كالعمود وتصاعد في الجو حتى غاب عن أبصار الناس، ثم خرج من فمه عمود نار وصعد في الجو حتى غاب عن النظر، ثم قال: هذا الذي رأيتموه هو الطعام الذي أكلته عنكم[1].

**التصوف بين الصوف والعري:**

فأما لبس الخرقة الصوفية فليس عليه دليل صحيح، وإنما تناقله أهل الطريق منسوباً إلى علي بن أبي طالب ا ولم يصح، وربما كان لبس الخرقة يعود إلى أبي بكر الصديق، وأول من ألبسه ثوباً وطاقية في النوم البطائحي، فاستيقظ فوجدهما عليه، وقد بقيت هاتان الخرقتان حتى حازهما علي الهيتي فيما بعد، وممن نقل عنه ذلك علي السنجاري، قال كنت أتعبد في مسجد بظاهر البرية، فبينما أنا نائم ليلة رأيت أبا بكر الصديق ا فقال: يا علي! أمرت أن ألبسك هذه الطاقية، وأخرج من كمه طاقية ووضعها على رأسي[2].

وتخصيص أبي بكر ا بالذكر قد رده شيخ الإسلام حيث يرى أن هذا من حيلة إبليس، فقال: (يأتي الشخص في النوم يقول أحدهم: أنا أبو بكر، وأنا أتوبك لي، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس، ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه، فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه، ولا يعلم أنه الشيطان وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام).

---

(١) (ص:٢٥٠)، ولأبي الحسن الشاذلي ستون عرقاً تضرب إذا مد يده لطعام فيه شبهة (ص:٣٨٠).

(٢) (ص:٢٢٦-٢٣٦)، وقال أبو الفضل الأحمدي: وقد لبس الخرقة ابن عربي من الخضر عند الحجر الأسود على شرط أن يخلع جميع الأخلاق المذمومة.

وقال أيضاً: (ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر إما الصديق أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته وثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أ ومقصوص، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصوه)[١].

وبإزاء لبس الخرقة أو المرقعات ظهرت طائفة جنحت إلى تغليب العري وهو الذي أحبه الرفاعي لأصحابه كما سبق، وقد وجد من يبقى عرياناً إذا غلبه الوجد أو الحال ليس في وسطه شيء مثل أبي السعود الجارحي، ويكثر هذا العري عند المجاذيب.

وعلل إبراهيم الدسوقي استحسان لبس الرقيق من الثياب لخفته على الجسد الذي أنهكته المحبة فلا يقوى على لبس ما غلظ منها، فقال: فإذا كان عملك كله في قلبك كان فائدة، وأضرم نار القلب واحترق الحشا، وامتلأ القلب خوفاً من الله تعالى ومحبة له، فما رقيق الثياب حينئذ وما خشنها، فإذا قويت في القلب لم يطق صاحبه حمل ثوب رقيق ولا إزار، قال الشعراني معلقاً ومضيفاً فائدة أخرى: وهذا سبب ترك بعض القوم لبس الثياب من مجاذيب وصحاة والله أعلم[٢].

---

(١) الفرقان (ص:٢٠٧)، وأما التفاخر بترقيع الثياب وعدها من الصفات المحمودة في بعض الطرق فندع السيوطي يرد تلبيسهم هذا بقوله: منهم من يلبس الصوف تحت الثياب ويلوح بكمه حتى يرى لباسه، وهذا لص ليلي، ومنهم من يلبس الصوف فوقها، وهذا لص نهاري مكشوف.. ويكره لبس الفوطة والمرقعات من خمسة أوجه: أنه ليس من لباس السلف وإنما كانوا يرقعون ضرورة، أنه يتضمن ادعاء الفقر وقد أمر الإنسان أن يظهر نعمة الله عليه، أنه إظهار التزهد وقد أمرنا بالستر، أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، أنه ثوب شهرة وقد نهي عن لباس الشهرة.

(٢) (ص:٢٤٦-٦٣٥).

**مناقشة أركان الرياضة:**

لقد ارتفعت أصوات كثيرة في دراسة التصوف تعود به إلى أصول الطريقة البوذية والهندية والفلسفة الأفلاطونية، وتعتبره قد رضع من لبانها، واستقى من أفكارها، ولذا راجت كثير من بضاعتهم في سوقه، وقدم أصحاب هذه الأصوات على دعواهم شواهد متعددة تقضي لهم بالصحة، وأبدوا بينة قولهم بعد المقارنة والتتبع، وأبعد نفر منهم إلى تأثره بالمسيحية، وبزيادة التأثر بعقائد الشيعة – الاثني عشرية والاسماعيلية – يعد التصوف أمشاجاً من هذه الآراء ممزوجاً بنصوص شرعية.

والحقيقة أن الزهد الأصيل لا يتصل بآراء البوذية ورهبنة المسيحية والتطهر عند الافلاطونية، بل هو في منأى عن ذلك كله، وهو الذي عناه ابن خلدون في مقدمته بقوله: (إن نشأة التصوف كانت في القرن الثاني عندما أقبل الناس على الدنيا وانصرف بعض الناس للزهد والعبادة فسموا صوفية) غير أن ارتباطه فيما بعد النشأة بهذه الثقافات جعله يستوعب بعض آرائها، ومن ثم تم صياغته شيئاً آخر، وتوارى الزهد ليحل محله التصوف، وهنا تكمن وعورة البحث وتتبع شعاب هذه المصادر الشائكة، وما يعنينا هنا هو ما كان له علاقة بالأدلة المأخوذة من الطبقات، ويمكن الإشارة إلى أربع شعب منها:

**أولا: التأثر بالطريقة الهندية والبوذية:**

في السعي نحو إماتة النفس بالجوع والسهر وقهر الجسد بالتقشف ففي البوذية يتخلص السالك من نواقض الحياة المادية؛ حتى يتحرر من الرغبة في الحياة بالقرب من الآلهة بعد قطع أربعة مقامات، وفي الديانة الهندية يمر المريد بخمس مراحل تنتهي بالتخلص من أدران المادة، ويعيش في عالم الآلهة، قال لسان الدين ابن الخطيب: (ومن الهنود الذي وضع لهم الحكمة المصلحية.. والزهاد والعباد..... وهم يهجرون اللذات الطبيعية جملة، ويكثرون

الجوع والرياضة، عشاق فيها ولوا وجوههم شطره)[١].

وسواء شعر الصوفية أو لم يشعروا فقد جعلوا أركان الرياضة أربعة تتمثل في الجوع والسهر والصمت والخلوة مضاهاة لهؤلاء، وهي التي توصلهم إلى الغاية، وقد نقل الشعراني عن عبد القادر قوله: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها عدي بن مسافر، وزاد الشعراني في بيان أمر عدي: (إنه أقام أول أمره زماناً في المغارات والجبال والصحاري مجرداً سائحاً يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، وكانت الحيات والهوام والسباع تألفه)[٢].

وهكذا تعمقوا في المجاهدات التي عرفت في الديانة الهندية مثلاً كهجر الأولاد والخروج إلى الجبال والكهوف، والجلوس في البراري باسم السياحة، وهو موجود أيضاً في الديانة الهندية، وكذا أتباع البوذية يخرجون للسياحة ويأخذون أنفسهم بتطهير القلب.

ومن رسومهم الخلوة، وما ذكر عن البدوي ملازمة الصمت، وما كان يكلم الناس إلا بالإشارة وهو من العادات البوذية، وكذا التسول والاستجداء والوقوف على أبواب الناس من نصائح بوذا الثمانية[٣].

**ثانيا: التأثر برهبنة المسيحية:**

لقد تسرب إلى التصوف مفردات تحاكي ما عليه رهبان المسيحية منها: التواصي بترك الزواج ومدح العزوبة، وقد نقل الشعراني عن رباح بن عمرو من الأوائل أنه قال: (لا يبلغ الرجل منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل

---

(١) روضة التعريف بالحب الشريف.

(٢) الطبقات: (١/ ١٣٦).

(٣) انظر: التصوف المنشأ والمصدر لإحسان إلهي ظهير، فإنه مليء، ومن أحيل إلى مليء فليتبع.

الكلاب)[1].

ومن خصائص المسيحية وتعاليمها ترك الدنيا والتجرد عن المال، والتجوع وتعري الأجساد، وهي رهابنية ابتدعوها، وتمناها أحمد الرفاعي لأتباعه كما سبق، أعني: الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وانظر إلى هؤلاء المجاذيب الذين يتعرون ويتجردون عن ثيابهم ويمشون في الأسواق تجد جلاء هذه الصفات، وكذا التزامهم لبس الصوف علامة تميزهم عن غيرهم، وبناء الأماكن الخاصة للتعبد، والذكر الذي يمارسونه في الزوايا بدلاً عن المساجد، ولم يكن من هديه × إلا الاعتكاف في المساجد.

وهذا أمر في غاية الوضوح، ولذا اعترف أبو طالب المكي به في قوت القلوب فقال: (روينا عن عيسى × أنه قال: أجيعوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل)[2].

فهم لم يأخذوه إلا من رهبان النصارى ونساك المسيحية الذين ألزموا أنفسهم التبتل، خلافاً لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وتقليداً لهم واقتداءً بهم ومخالفة للكتاب والسنة، وقد ذم ابن الجوزي ما بناه المتعبدون من أربطة اتخذوها للانفراد بالتعبد، وخطأهم من ستة أوجه: أحدها: أنهم ابتدعوها، وإنما بنيان أهل الإسلام المساجد، والثاني: أنها نظير المساجد وتقليل لجمعها، الثالث: أنهم أفاتوا نقل الخطا إلى المساجد، الرابع: أنهم تشبهوا بالنصارى لانفرادهم في الأديرة، الخامس: أنهم تعزبوا وهم شباب وأكثرهم محتاج إلى النكاح، السادس: أنهم

---

(١) الطبقات: (١/ ٤٦).

(٢) قوت القلوب: (٢/ ١٦٧)، وروى أحمد في مسنده (١١٧٩١) أنه جاء رجل إلى النبي مستوصياً، فقال له: (وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٥٥٥).

جعلوا لأنفسهم علماً ينطق بأنهم زهاد فيوجب زيارتهم والتبرك بهم)[١].

**ثالثا: التأثر بالافلاطونية الحديثة:**

إن القول بالفناء - بوحدة الوجود - تتمشى مع نظرية الفيض التي نادت بها الأفلاطونية الحديثة، فأول ما فاض عن الواحد عندهم هو العقل الأول، ثم توالت الفيوضات، ويرى المصدر الأفلاطوني أن الأشياء كلها انبجست من الواحد المحض، فإن الهوية الأولى - هوية العقل - هي التي انبجست منه أولاً بغير واسطة ثم منه جميع هويات الأشياء[٢].

وهذا الشذوذ من هذه الفلسفة البائدة تلقفه أصحاب الوحدة ونقلوه إلى التصوف، وفرعوا عليه أسماء متعددة كالحقيقة المحمدية أي: الروح الذي يعد محمد وغيره من الأنبياء صوراً له،والإنسان الكامل وهو الأصل الذي يستمد كل نطق نطقه، والعقل الأول، والقطب الذي تدور عليه الأفلاك! فتباً لهذا الهراء الذي تعددت مسمياته فربما تخيله المرء شيئاً فإذا تعددها زاد من قبحه.

وهكذا اصطبغ التصوف بالأفلاطونية الحديثة في القول بالفيض أو الاتحاد بالوجود المحض بعدما أصابها التغيير إلى وحدة الوجود، وتسرب المصدر الفارسي في التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، وتذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً، ويبلغ الإنسان المعرفة

---

(١) تلبيس إبليس (ص:١٩٥)، وتتمة كلامه: (وقد رأينا جمهور المتأخرين منهم مستريحين في الأربطة من كد المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم...)، وذكر من حالهم ما يدعونه من قولهم: حدثني قلبي عن ربي، ومحاربتهم للعلم حيث يمنعون قراءة القرآن والحديث في الرباط قالوا: ليس هذا موضعه).

(٢) التصوف والتفلسف الوسائل والغايات د/ صابر طعيمة.

التامة، ويفهم كل شيء بعد بلوغه الأسرار المكنونة والمعاني المصونة.

ولا يستنكف عبد الكريم الجيلي في كتابه (الإنسان الكامل) من محاكاة هذه الفلسفة، ولا يقف عند حد الاعتراف بذلك، بل يفصح عن أمر في غاية الخطورة فيقول في أوهامه ومناماته: (ولقد اجتمعت بأفلاطون الذي يعده أهل الظاهر كافراً! فرأيته وقد ملأ العالم الغيبي نوراً وبهجة!! ورأيت له مكانة لم أرها إلا لآحاد الأولياء!!! فقلت له: من أنت؟ قال: أنا قطب الزمان، وواحد الأوان)[1].

فيا سبحان الله ما هذا الزيغ الصراح والزيف البواح؟! كبرت كلمة تصف هذا الفيلسوف في مصاف آحاد الأنبياء! فهذا لم يتبع ما شرع الله من الدين القويم، بل يتبع ما أوحى له الشيطان من الضلالات الباطلة والأحوال الفاسدة، قال تعالى: * قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ & [الأعراف:٣٣].

**رابعا: التأثر بالشيعة الإسماعيلية:**

لقد نفثت الرافضة سمومها حتى سرى في الطرق الصوفية، ونتج عن الغلو في الأئمة والقول بعصمتهم وتقديسهم ما يوازيه من الغلو في الأولياء، والقول بحفظهم والتسليم لهم، ونسبوا الخرقة إلى علي بن أبي طالب | في أسانيدهم، وفي الطبقات عن أحدهم أن علياً رفع كما رفع عيسى، قال الشعراني: وبذلك سمعت سيدي علي الخواص يقول: إن نوحاً × أبقى في السفينة لوحاً على اسم علي يرفع عليه إلى السماء، فلم يزل محفوظاً في صيانة القدرة حتى رفع علي[2]!

(١) الإنسان الكامل (٢/ ٥٢).

(٢) الطبقات: (٢/ ٤٤).

ونتج أيضاً القول بالقطب وأعوانه من الأوتاد والأبدال وما وسدوا إليهم من أمور، وهو مأخوذ من كلام الرافضة في الإمام والنقباء كما سبق نقله عن ابن خلدون، وظهر أيضاً الغلو في علم الأئمة وعلم الباطن وعلم الغيب واللوح المحفوظ، والتناسخ بانتقال النور عبر الأزمنة، وهذا النور يتسلسل بالأنبياء والأولياء في كل دور، فنوح هو آدم، وكتم الأسرار التي لا يحتملها نبي ولا ملك مقرب، وخصوا الأئمة بمعرفة الظاهر والباطن، وهم يسبغون عليهم جنب الله، وظهر تقديس الأموات والاستغاثة بهم، وبناء القباب على قبورهم، وإحداث الزيارات الشركية وعمل الموالد.

وخلاصة المناقشة أن الصوفية تلبست بمذاهب مستمدة من المجوسية والفلسفة الهندية، وحتى لا يبادر أهل الإسلام بالإنكار لاذوا بالقول بالأسرار، وفتحوا باب التأويل، وأوجبوا مرور المريد بشيخ خبير، وحذروا من المشي بانفراد في طريق وعرة، وما زال الاختلاط بالثقافات المختلفة و الامتزاج بها حتى فشت الزندقة، وصار الغلو والتشيع والعلوم الغامضة والكيمياء والسحر وراثة التراث الفلسفي.

ولا شك أن الصوفية ليسوا سواء في الأخذ والحكم، قال شيخ الإسلام: (فابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم صوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ليسوا من صوفية أهل الكلام، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الدارني، ومعروف الكرخي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبدالله التستري، وأمثالهم)[1].

(١) الفرقان: (ص:١٢٧).

وقال أيضاً في مقام الزهد الصافي قبل أن يتلوث بالأفكار الفلسفية التي شرب منها كثير من المتأخرين: (فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ... وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء.. والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة.. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً..)[1].

(١) الفتاوى: (١١/ ١٧).

# المبحث التاسع
# أخبار مجاذيب الصوفية

إن من الصوفية فريقاً له أحاديث غريبة، يطلق عليهم المجاذيب، يقال: إنهم جذبوا في الطريق، وكفوا مشقة الرياضة وأهوالها فطاروا إلى الغاية في جذبة كلمح البصر، والأمر في بعض مراحله لا يعدو أن يكون تسمية الجنون بغير اسمه، فالأقوال والأفعال التي تصدر عن المجاذيب هي لغو لأنها في غياب عقولهم، فلا فضيلة في عدها من الكرامات؛ لأن المجنون قد رفع عنه القلم فلا يصح منه شيء من عبادته ولا تصرفاته، ولا يعتد بأقواله؛ لأنها لا يتعلق بها حكم شرعي، قال شيخ الإسلام: (فالمجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب بالفرائض، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع، فقد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات شيطانية وتصرفات شيطانية كما أن للكهان والسحرة، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله)[1].

فمن مفارقة الحق ومجانبة الصواب ذكر هؤلاء المجاذيب في الطبقات التي بدأت بسلف الأمة:

**لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد**

---

(١) الفرقان (ص:٨٠).

وأولياء الله أصحاء وليسوا مجانين أو مجاذيب قد خرجوا مما يسمى قديماً بالبيمارستان، كما ذكره في الطبقات عن الشبلي والجيلاني دخولهم هذا المكان حين عدوهم من جملة المجانين ومنهم فرج المجذوب انقطع آخر عمره في المارستان حتى مات[1].

فالجذب هو المعادل الحقيقي لمسمى الجنون، وهم يقصدون به أخذ العقل باندهاشه بالأنوار على حين غرة، وتستمر مع المجذوب الحالة التي جذب فيها، فبهاء الدين المجذوب مثلاً كان يحفظ البهجة، فكان لا تزال تسمعه يقرأ فيها، ومن المجاذيب من تراه مقبوضاً على الدوام لكونه جذب على حالة قبض، ومنهم من تراه مبسوطاً وهكذا، وكان الشيخ فرج المجذوب لم يزل يقول: عندك رزقة فيها خراج ودجاج وفلاحون؛ لكونه جذب وقت اشتغاله بذلك.

قال الشعراني: وزمن المجذوب من حين يجذب إلى أن يموت زمن فرد لا يدري بمرور زمان عليه، فابن البجائي لم يزل يقول: الفاعل مرفوع، والمخفوض مجرور وهكذا! لأنه جذب وهو يقرأ في النحو، والقاضي ابن عبد الكافي لما جذب لم يزل يقول وهو في بيت الخلاء وغيره: ولا حق ولا استحقاق ولا دعوى ولا طالب ولا غير ذلك[2].

وتعد مشاهد المجاذيب في الطبقات من أطرف المشاهد وأظرفها لولا أنها تفسد العقائد وتزري بالشرائع، ويصل بهم إلى تقديس ما يصدر عنهم مع مخالفته للنصوص، ولا

---

(١) (ص:٢١٧-٥٩٤).

(٢) (ص:٥٨٧)، قال: ومن وقائعه أننا حضرنا يوماً معه وليمة فنظر للفقهاء في الليل وزعق فيهم، وقال لهم: كفرتم بكلام الله! ثم حذفهم بقلة من الماء كانت بجانبه، فصعدت إلى نحو السقف، ثم نزلت فقال فقيه منهم: كسر القلة، فقال له: كذبت فوقعت على الأرض صحيحة كما كانت، فبعد خمس عشرة سنة رأى الفقيه فقال: أهلاً بشاهد الزور الذي يشهد أن القلة انكسرت.

نعفي أنفسنا ونحن نطوف في عالم المجاذيب من تلمس قصصهم وتتبع أخبارهم، وما تفيض به تصرفاتهم الصبيانية - نسبة للصبي غير المميز، أما من ميز من الصبيان فإنه يعتد بأقواله وأفعاله عند جماعة من العلماء - وقد وردت تراجمهم في الطبقات بكثرة، وكأننا في حاجة ملحة لسماع قصصهم العجيبة.

والأدهى والأمر ورود أقوالهم في شرائع الإسلام كالصلاة والأذان بالتنقيص والاستهزاء والازدراء، ومجالستهم النصارى بالتوقير والثناء، ولم تنبس شفة الشعراني - ومن دار في فلكه من الصوفية - بكلمة تصحيح أو تعليق، ولم تخط أقلامه حرف عتاب ولو عتاباً جميلاً، بل على العكس فهم يلتمسون منهم البركة، وليس هناك حرج فيما يصدر عن هؤلاء إذا صح أنهم مجاذيب حقاً، ولكن العتب على المتصوفة في تلمس البركة في تصرفاتهم وأقوالهم وعرضها على جانب من التبجيل!

**أحد المجاذيب يتشوش من المؤذن:**

وهو إبراهيم بن عصيفير كان يتشوش من قول المؤذن: الله أكبر! فيرجمه ويقول: عليك يا كلب نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا!

قال الشعراني: وما ضبطت عليه قط كشفا أخرم! كان كثير الشطح وكان أكثر نومه في الكنيسة! ويقول: النصارى لا يسرقون النعال في الكنيسة بخلاف المسلمين، وكان يقول: أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من لا يأكل اللحم الضأني أيام الصوم كالنصارى! وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضأني والدجاج أيام الصوم فصومهم عندي باطل![1]

(١) (ص:٥٩١).

فما الداعي وراء ذكر هذا الهذيان، وكذا المرور عليه دون تعليق؟! وما مناسبة الشطح الذي يكثره، والكشف الذي لا ينخرم إذا ثبت اختلال عقله؟!

**وآخر منهم ينادي الصلاة المشؤومة:**

وهو النشيلي، كان في أول جذبه الحروز معلقة على رأسه، وكان أهله يعتقدون أنه الجان، وكان يحب دخول الحمام ولم يزل يدخله حتى مات فيه! وكان ينادي خادمه وهو في الصلاة، فإن لم يجئه مشى إليه وصكه ومشى به، وقال: كم أقول لك لا تعد تصلي هذه الصلاة المشؤومة،فلا يستطيع أحد أن يخلصه منه، وكان يضرب الإنسان على وجهه[1].

وترك الصلاة قد حكي عن عبد القادر الدشطوطي حين دخل عليه الشعراني فأخبره ببعض المغيبات!! ثم أذن الظهر فتغطى الشيخ بالملاية وغاب ساعة، ثم تحرك، ثم قال: الناس معذورون يقولون عبد القادر ما يصلي! والله ما أظن أني تركت الصلاة منذ جذبت، ولكن لنا أماكن نصلي فيها، فقلت للشيخ محمد عنان، فقال: صدق له أماكن إنه يصلي في الجامع الأبيض برملة لد، وكان أكثر ما ينام عند شخص نصراني في باب البحر؛ فيلومه الناس؛ فيقول: هذا مسلم! ومن بركته أسلم النصراني على يديه[2].

**وثالث يستخف بخطبة الجمعة:**

ومن المخزيات في الاستخفاف بخطبة الجمعة حديث إبراهيم العريان الذي وصفوه بأنه إذا دخل بلداً سلم على أهلها كباراً وصغاراً بأسمائهم حتى كأنه تربى بينهم! وكان يطلع المنبر ويخطب عرياناً، فيقول السلطان ودمياط وباب اللوق بين القصرين وجامع طليون

---

(١) (ص:٥٩٢).

(٢) (ص:٥٨٨).

الحمد لله رب العالمين فيحصل للناس بسط عظيم!! وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر، ثم يقول: هذه ضرطة فلان!!! ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه[١].

وهذا ليس بكلام؛ لأن حد الكلام ما أفاد المستمع، ولو سلمنا أنه مجنون فالواجب الحجر عليه، فإن لم يحجر عليه فتمادى في هذيانه فالذي نطلبه من الذين يحاجون عن هؤلاء: أن يفسر لنا انبساط الناس من هذيانه! فهل هذا إلا لعب بالشرع من قبل هؤلاء المجاذيب وسكوت من قبل أولئك الصوفية فإلى الله المشتكى! وأما خجل الأكابر من جرمه المشين فيسببه الاعتقاد الفاسد في مثل هذا المجذوب جزاءً وفاقاً، ولو كانوا حقاً أكابر لصانوا الشرع من أمثال تصرفات هذا المجذوب.

**الأكل في نهار رمضان:**

ومن ذلك الأكل في نهار رمضان ممن يصف في مصاف أصحاب الكرامات العظيمة، والخوارق التي تصل عندهم إلى التمييز بين الشقي والسعيد، وهذا حال الشريف المجذوب، كان ساكناً تجاه المجانين بالمارستان المنصوري، وكان يأكل في نهار رمضان ويقول: أنا معتوق أعتقني ربي، وكان كل من أنكر عليه يعطبه في الحال! وكان يتظاهر ببلع الحشيش فوجدوها يوماً حلاوة، وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هذه الدار[٢]!

والاعتقاد في أفعال المجاذيب يدل على الرضا، والواجب الإنكار عليهم وعلى شعبان المجذوب الذي كان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها! وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل على رغم قول

---

(١) (ص:٥٩٥).

(٢) (ص:٦٠٧).

الشعراني فلا ينكر عليه أحد[١].

وقد أحسن شيخ الإسلام الذي خبر طريق القوم حين اشتد نكيره على من عد المجانين أولياء وهم لا يؤدون الفرائض، ولا يجتنبون المحارم، بل قد يأتون بما يناقض ذلك ويفرق بين من كان مجنوناً ظاهراً - متولهاً - بحيث يغيب عقله بالجنون تارةً ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض، وبين المجنون ظاهراً وباطناً الذي رفع عنه القلم، قال: (فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكنه إن كان حال إفاقته كان مؤمناً بالله متقياً كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان في حال إفاقته فيه كفر ونفاق أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه، وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر ونفاق)[٢].

## هيئات المجاذيب وأحوالهم:

هيئات المجاذيب دلالة على عتههم من خلع ثيابهم، وصياحهم، والتخبط في الكلام، فيخبر بكلام لا معنى له يفسره من يعتقد فيه على حسب هواه، فيعدون ذلك على سبيل الكرامة، وتصدر منهم أحوال وردت في الطبقات ونترك المقام للسان الطبقات تصف بعضهم:

- فمنهم عبد القادر الدشطوطي، كان صاحياً وهيئته هيئة المجاذيب، وكان مكشوف الرأس حافياً.

---

(١) (ص:٦٦٧).

(٢) الفرقان: (ص:٧٦).

- ومنهم على الدميري المجذوب، كان جالساً ليلاً ونهاراً على دكان بياع الرقاق تجاه حمام المارستان، وكان مكشوف الرأس ملفوفاً في بردة كلما تقطعت بدلوه بأخرى.

- ومنهم عبد القادر السبكي، كان ليله كله تارة يقرأ، وتارة يضحك، وتارة يكلم نفسه إلى الصباح!

- ومنهم شعبان المجذوب، كان عرياناً لا يلبس إلا قطعة جلد أو بساط أو حصير أو لباد يغطي قبله ودبره فقط، وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً لم أسمع أحداً قط ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم تحنيناً عليه.

- ومنهم خليل المجذوب، كان يطوف حول بلده طول النهار ويزغرد، وتارة يصيح، وتارة يصمت.

- ومنهم عبيد البلقيني حصل له جذب في أول عمره فمكث نحو الخمس عشرة سنة بلباس جلده مكشوف الرأس والبدن لا يلتفت لتدبير بدنه؛ حتى صار الدود يتساقط من تحت قلنسوته من محل الزيق[1].

ولأن المجذوب ليس برشيد، ولا يحسن النظر في المال فإن أحدهم وهو أحمد المجذوب

---

(١) (ص:٥٨٧-٦٠٧-٦٦٤-٦٦٧-٦٦٩).

- جلوس عبد الرحمن المجذوب-الذي قطع ذكره بنفسه في أوائل جذبه- على الرمل صيفاً وشتاءً وإذا جاع أو عطش يقول: أطعموه اسقوه، وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت، وكان يتكلم بالسريانية!

- وإبراهيم بن عصيفير كان يغلب عليه الحال، وكان يمشي أمام الجنازة ويقول: زلابية هريسه! وأحواله غريبة، قال الشعراني: وكان يحبني وأنا في بركته وتحت نظره!!

- وحبيب المجذوب ليس له كرامة إلا في أذى الناس مبتلى عليه بالإنكار.

يقف على الدكان ويصيح: يا مالي ومال السلطان عند صاحب هذا الدكان! فلا يزال كذلك إلى أن يأخذ ما يطلبه منه ثم يدفنه تحت جدار ويذهب.

والثاني - ويدعى فرج المجذوب - كان يطلب الفلوس من الناس، فإذا اجتمعت أعطاها للمحاويج والأرامل، وكثيراً ما يدفنها في جوار حائط ويخليها فيأخذها الناس.

- والثالث إبراهيم المجذوب، فكل فلوس حصلها يعطيها للمطبلين ويقول: طبلوا لي وزمروا لي، وكان له قميص يخيطه ويحزقه على رقبته، فإن ضيقه جداً حتى يختنق حصل للناس شدة عظيمة، وإن وسعه حصل للناس الفرج[1].

**شاهد على استغلال المجاذيب:**

ومما يجدر ذكره خبر في غاية الأهمية: إذا خرجنا عن عالم الطبقات وبقينا في دائرة الجذب لنطلع على واحد من رهط المجاذيب يدعى علي البكري كشف الجبرتي في تاريخه حقائق تتعلق بدهاء أخيه في اكتساب المال عن طريقه، ننتقل إلى هناك ليحدثنا الخبر بتفاصيله وبه ننهي المبحث، ومن وراء المبحث الدراسة كلها، قال الجبرتي: (كان علي البكري رجلاً من البله، وكان يمشي بالأسواق عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين غالباً! وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به، واستمر على ذلك سنين، ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى ميل الناس لأخيه واعتقادهم فيه كما هي عادة أهل مصر في أمثاله، فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت، وألبسه ثياباً وأظهر للناس أنه أذن له بذلك، وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك.

فأقبلت الرجال والنساء على زيارته، والتبرك به، وسماع ألفاظه والإنصات إلى تخليطاته

(١) (ص:٥٩٣-٥٩٤-٦٠٢).

وتأويلها بما في نفوسهم، وطفق أخوه المذكور يرغبهم ويبث لهم في كرامته، وأنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات وينطق بما في النفوس؛ فانهمكوا في الترداد إليه، وقلد بعضهم بعضاً وأقبلوا بالهدايا والنذور والامدادات الواسعة من كل شيء، وخصوصاً من نساء الأمراء والأكابر، وراج حال أخيه واتسعت أمواله، ونفقت سلعته، وصادت شبكته، وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البوّ العظيم.

فلم يزل على ذلك إلى أن مات فدفنوه بمعرفة أخيه في قطعة حجر عليها من هذا المسجد من غير مبالاة ولا مانع، وعمل عليه مقصورةً ومقاماً، وواظب عنده بالمقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك، ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه في أعبائهم وجيوبهم!

والناس هرعت لزيارة قبره - النساء والرجال - بالنذور والشموع وأنواع المأكولات وصار ذلك المسجد مجمعاً وموعداً، فلما حضر الفرنساوية إلى مصر تشاغل الناس وأُهمل شأنه في جملة المهملات، وترك مع المتروكات، فلما فتح أمر الموالد والجمعيات - ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء، واتباع الشهوات والتلاهي، وفعل المحرمات - أعيد فتح هذا المولد مع جملة ما أعيد[1].

قال البدر الحجازي في بعض منظوماته:

---

(١) تاريخ الجبرتي: (٣/ ٨٤).

| | |
|---|---|
| ليتنا لم نعش إلى أن رأينا | كل ذي جنة في الناس قطباً |
| علماً به يلوذون بل قد | اتخذوه من دون ذي العرش رباً |
| إذ نسوا الله قائلين فلان | لجميع الأنام يفرج كرباً |
| وإذا مات يجعلوه مزاراً | وله يهرعون عجماً وعرباً |
| بعضهم قبل الضريح وبعض | عتب الباب قبلوه وتربا |
| هكذا المشركون تفعل مع | أصنامهم تبتغي بذلك قرباً |
| فالحذار الحذار من فعل أهل | الجهل ولو عالماً يدرس كتباً |

وهكذا رأينا كيف انحدر التصوف في هذا المبحث إلى اعتقاد المجاذيب، واستحسان ما هم عليه من مخالفات تصل إلى الكفر، وننتهي هنا إلى ملاحظات أهمها:

- إلغاء العقل والنظر إلى أحوال المجاذيب على سبيل الكرامة.

- ينبغي الحجر على هؤلاء لا أن تمر أفعالهم دون نكير، فإن الولاية مقيدة بالمحافظة على الأمر والنهي، وهذه تراجم السلف منزهة عن ذكر أفعال المجانين فضلاً عن استحسانها.

- البعد عن الهدي القويم يقود المجتمع للانجرار وراء الخرافات والتمادي، فكلما غاب نور الكتاب والسنة أقبلت سدف الظلام التي تعيش بها خفافيش تمارس إضلال الأمة.

- أدرك أعداء الإسلام ما تضمنه التصوف من مخالفات ففتحوا له الباب، وأعادوا الموالد التي تشاغل الناس عنها، كما فعلت فرنسا حين غزت البلاد الإسلامية، وقد وجدوا في مقاصد التصوف معاني لا تتعارض مع توسعهم، بل ربما غرست هذه المعاني مفاهيم فاسدة في التعامل مع أعداء الله، وترك الجهاد في سبيل الله، وأطالت من فترة استعمارهم، وإلى الله المشتكى!!

# الختام

والخاتمة أيها القراء بعد أن طفنا بكم في دراسة تحليلية في طبقات الأولياء للشعراني رأيتم فيها العجائب والغرائب التي عرضت في مشاهد مختلفة، وبألوان متعددة حاولنا فيها الإصابة قدر المستطاع، وأوغلنا إلى مفاهيم أثخنت الأمة بالجراح فترنحت في شبكتها، وتحتاج أن تتخلص منها حتى تفيء إلى أصالتها، وتسكت الأصوات التي تنادي بعودة المتصوفة إلى الحياة من جديد ليقف الناس أمام عتبات الشيوخ بالتقديس.

وآن لنا أن نبرك مطايا البحث، وأن نستريح عند ما يلم شعث المباحث في خطوط عريضة يتم بها المقصود، ونؤكد على جملة من الأمور على النحو التالي:

١- غرس العقيدة الصافية والتوحيد الخالص لله ﷻ، وأن يشرب المسلم من المعين الذي ورده الصحابة، ويستقي من زلاله قبل تكديره بانحرافات أهل البدع بلوثاتهم التي لا تروي غليلاً، وإنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

٢- تعظيم الله سبحانه وتنزيهه عما لا يليق بعظمته، وتقديره ﷻ حق قدره من خلال التدبر في آيات القرآن؛ فإنه ميسر للذكر، والتفكر في آيات الكون؛ فإنها ميسرة للفكر، قال تعالى: * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ & [نوح:١٤]، وبهذا يكسر جدار تعظيم المخلوق وتقديس الشيوخ، والغلو في الصالحين الذي هو ذريعة الشرك وسبب هلاك الأمم السابقة.

٣- التلفع بمرط العلم الشرعي؛ فإنه يعصم من الشبهات التي يقذفها المبتدعة،

والشهوات التي يزينها أهل الباطل، وإشغال النفس بالعمل الصالح والإكثار منه، والتمسك بالكتاب والسنة والدعوة إليهما والصبر عليهما؛ فإنها أفضل الأعمال وأجل ما صرفت فيها الأعمار، قال تعالى: * وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ & [العصر:١-٣].

٤- وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة، وأن تعرض عليهما الأقوال والأفعال والأشخاص، فما كان موافقاً فهو الحق، وغير ذلك يرد على صاحبه، فليس أحد يسوغ له الخروج عنهما، وأول ما أضع قولي لميزان الحق من الكتاب والسنة فما خالفه فمصيره الرد.

٥- لا بد من نفي تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتصفية الشوائب التي علقت بالعقيدة الإسلامية، وقد كانت شمسها ساطعة فكسفت وأذهبت جمالها هذه الخرافات، فعلينا بالتصفية حتى يعود للدين بهاؤه وجماله.

٦- أن يحمد المسلم ربه على السلامة والعافية مما ابتلى به هؤلاء المتصوفة من الوقوع في المضلات، وعلى المسلم السير على الخط المستقيم الذي رسمه لنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والتسليم، والاهتمام بالقلوب من قطاع الطريق الذين يبثون الغوائل، ويردد أبداً: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هدتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وعليه صيانة القلب من تعريضه لمواطن الفتن، وأن يضرب بسور منيع وحمىً لا يقترب بينه وبين هذه الأفكار.

٧- بيان الفرقان بين الكرامات والخرافات، وبين الأحوال الشرعية والخوارق الشيطانية، فإن اللبس بينهما يوقع المرء في المحظور، ولا بد من فضح الشيطان ومكره ودوره في الإضلال حين تسلل بمصطلحات ظاهرها الصحة وباطنها من قبلها العذاب.

٨- موافقة الشرع الحنيف للعقل الصريح والفطرة السليمة، وأن ما سبق من قصص يقود إلى إلغاء عقل المسلم والتسليم كبهيمة تنقاد لصاحبها، وفيها ما يضاد الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

٩- التزود للآخرة، والميل عن الدنيا وعدم الاغترار بزهرتها، فإن نفراً فتنتهم فركبوا موجة الزهد والتصوف، وتحايلوا على الناس من خلال هذه الكرامات، ونصبوا شباكهم ليصيدوا أموالهم من خلال النذور والوجاهة.

١٠- إبداء النصح للمخالف، وركوب الموعظة الحسنة والجدال بالأحسن لمن اغتر بهذه الانحرافات، وإقامة الحجج التي تقنعه، فإن القرآن نادى بالحجج العقلية، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأول ما نغيره من أنفسنا هو المعتقدات الفاسدة، ولا يركن المسلم إلى يأس لا يصنع شيئاً، فليركب سفينة الناصحين، ويبذل قصارى جهده في الإمساك بيد الغارقين في متاهات تقديس الشيوخ تحت مسمى الولاية.

وفقنا الله جميعاً للعمل لدينه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وتقبل منا ومنكم، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# أهم المراجع

١- تفسير ابن كثير.

٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

٣- جامع الترمذي.

٤- سير أعلام النبلاء للذهبي.

٥- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

٦- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

٧- مقدمة ابن خلدون.

٨- كشف الحجاب والران عن أسئلة الجان للشعراني.

٩- الفتح تأويل في ما صدر عن الكمل من الشطح للشعراني.

١٠- تاريخ الجبرتي.

١١- تائية ابن الفارض.

# فهرس المحتويات

مقدمة ..... ٥
المبحث الأول باب كرامات الأولياء ومفتاحه..... ١٧
المبحث الثاني أسرار الصوفية وكشف ملفات الشطحات..... ٦٨
المبحث الثالث التربية الصوفية واستسلام المريد للشيخ ..... ٩٩
المبحث الرابع العلم ووسائل التلقي عند الصوفية..... ١١٤
المبحث الخامس الفقهاء والصوفية..... ١٤٧
المبحث السادس التصوف بين الزهد والقطبانية وخصائص الأولياء..... ١٦٠
المبحث السابع أخبار الصوفية والسلاطين..... ١٩٨
المبحث الثامن المجاهدة والرياضة والبدع العملية..... ٢١٣
المبحث التاسع أخبار مجاذيب الصوفية..... ٢٣٨
الختام..... ٢٤٩
أهم المراجع..... ٢٥٣
فهرس المحتويات..... ٢٥٥

* * *